
صحيح قصص الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من سرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله؛ فلا مضل، ومن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن قصص الأنبياء غيب لا يُعلم إلا بالوحي المنزل على رسول الله ﷺ: قرآناً أو سنة.

وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران:٤٤].

وقال الله -تعالى-: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود:٤٩].

وقال -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القصص:٤٤و٤٥].

ومقاصد قصص الأنبياء، هو: تقديم العبر للمؤمنين على كرِّ الأيام ومرِّ الدهور وتوالي السنين؛ لتكون لأتباعهم الصادقين المخلصين زاداً ترتشف رحيقَه أرواحُهم، وتتضلع منه قلوبُهم وعقولُهم؛ فتُحْدِثُ في كيانهم دافعاً للخير وحافزاً للبّر والتقوى، وشوقاً للعمل الصالح والكلم الطيب.

ولقد وجدت أن أحسن من كتب في هذا الميدان هو الإمام العلامة السلفي والحافظ النقاد الأثري عماد الدين ابن كثير الدمشقي -رحمه الله- في كتابه المستطاب المسمى: «قصص الأنبياء» المستل من كتابه العجاب «البداية والنهاية» وسبق أني اعتنيت بهذا الكتاب توثيقاً وتحقيقاً لنصوصه وتخريجاً لأحاديثه وآثاره؛ فميزت بين الصحيح والضعيف والسليم والسقيم؛ فرأيت أنه يحتوي على مادة كثيرة لا تليق بأخبار سادات الخلق وأصفياء الله من عباده ممن صنعهم على عينه

وغرسهم بيده؛ فعمدت إلى حذفها والاكتفاء بالصحيح؛ ففيه غنية عما سواه؛ لأنه لا يجوز نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ، ولا يجوز التساهل في ذلك؛ بدعوى أنها قصص وأخبار؛ لأنها أحداث إيمانية ووقائع غيبية.

والغيب نقطة ارتكاز في دائرة الإيمان ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة:٣]؛ فإدخال ما لا يصح عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إلى هذه الدائرة زيغ في التصور وانحراف في المسار؛ فالقصص المنحول يحمل مفاسد في العقيدة والتعبد والأخلاق والقيم والسلوك والتربية والسياسة تسري في الأمة كالنار في هشيم المحتظر؛ فتضعف كيانها، وتهدم أركانها، وتفرق جمعها، وتشتت شملها؛ لأن ذلك القصص مركب حبور وعبور سهل للذين يريدون بالمسلمين شراً من غير كد ولا عناء ولا إعلان عداء.

ومنهجي العلمي كالآتي:

١- أبقيت النصوص القرآنية؛ كما ساقها الإمام ابن كثير -رحمه الله-؛ لأن القصص القرآني لا تكرار فيه؛ ففي كل سياق زيادة معنى لا تجدها في غيره.

وأما تفسيرها؛ فاكتفيت بالصحيح والصواب إلا ما كان لذكره ضرورة؛ لسلامة السياق وفهم المراد.

٢- الاكتفاء بما صح رواية ودراية ورعاية من الأحاديث النبوية والآثار السلفية، وأما الضعيف الذي أبقيته -مع التنبيه عليه-؛ فهو لبيان ذلك وإن كان مشهوراً ومتداولاً، أو لأن السياق لا يفهم إلا به.

وأما الإسرائيليات؛ فما شهد لها الكتاب والسنة أو أحدهما؛ فتقبل، وما دون ذلك؛ فقد أغنانا الله عنها بفضله.

٣- حذف الأسانيد ولم أبق إلا صحابي الحديث، أو ما لا بد من ذكره؛ ليتم السياق.

٤- حذف الروايات المكررة إذا لم يكن فيها زيادة معنى.

٥- حذف اختلافات أهل العلم التي لا تقوم على أصل ثابت.

٦- حافظت على عبارة الإمام ابن كثير؛ فإنها سلسلة شيقة وسهلة ماتعة، وقد أضفت بعض الجمل؛ لربط الكلام، أو لخصت معنى صحيحاً في رواية لا يصح سندها.

٧- وضعت عناوين فرعية تعين على الفهم، وتسهل ضبط المراد، وتقرب العبر والفوائد.

٨- صنعت فهرساً تحليلياً للموضوعات والفوائد.

وسميته: «صحيح قصص الأنبياء».

أخي القارئ الكريم هذا عملي بين يديك؛ فلك غنمه، وعلي غرمه؛ فإن وجدت خيراً؛ فلا تأل جهداً في الدعاء لي؛ فإن دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجاب، وإن وجدت خللاً؛ فأصلحه، أو عيباً؛ فاستره، أو نصيحة؛ فلا تبخل علي بها؛ فإني متقلد منّة من أهدى إلى شيئاً ينفعني في ديني ويصلح عيوبي.

وأسأل الله العلي العظيم أن يتقبل جهد المقل خدمة لدينه الحنيف، وصيانة لجناب النبوة الشريف، وأن يدخر لي ثواب ذلك إلى يوم لقائه؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والله الموعد.

وكتب

سليم بن عيد الهلالي السلفي الأثري

أبو أسامة

[قصة آدم عليه السلام]

باب ما ورد في خلق آدم -عليه السلام-

[في القرآن الكريم]

قال الله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال- تعالى-: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ ﴾ [الأعراف:١٨٩].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف:١١-٢٥].

كما قال في الآية الأخرى: ﴿ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه:٥٥].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٢٦﴾ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي

خَلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر:٢٦-٤٤].

وقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾ [الإسراء:٦١-٦٥].

وقال -تعالى-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف:٥٠].

وقال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ

ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه:١٢١-١٢٦].

وقال -تعالى-: ﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص:٦٧-٨٨].

فهذا ذكر هذه القصّة من مواضع متفرّقة من القرآن، وقد تكلمنا على ذلك كلّه في «التفسير»[١]، ولنذكر هاهنا مضمون ما دلّت عليه هذه الآيات الكريمات، وما يتعلّق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ، والله المستعان.

---

(١) المسمى: «تفسير القرآن العظيم»، وهو من أصح كتب التفسير السلفية.

[الملائكة الكرام يسألون عن حكمة خلق آدم -عليه السلام-]

فأخبر-تعالى- أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] أعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريّته الذين يخلُف بعضهم بعضاً؛ كما قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٦٥] ، وقال -تعالى-: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل:٦٢][١]؛ فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته؛ كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه.

فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة، لا على وجه الاعتراض والتّنقّص لبني آدم والحسد لهم؛ كما قد يتوهّمه بعض جهلة المفسرين؛ قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة:٣٠].

قيل: علموا أن ذلك[٢] كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم -عليه السلام- من الجن؛ فعلموا أن الأرض لا يخلق منها إلا ما يكون بهذه المثابة غالباً. والله أعلم.

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾؛ أي: نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن أولاء لا نفتر ليلاً ولا نهاراً.

﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة:٣٠]؛ أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون؛ أي: سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون.

ثمّ بيّن لهم شرف آدم عليهم في العلم؛ فقال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١].

---

(١) هذا تصريح بفساد ذاك القول: إن الإنسان خليفة الله في الأرض؛ كما يهرف بذلك الأدباء القصاصون والصحفيون؛ فليس له نقل مستند صحيح أو قول معتمد صريح.

(٢) الفساد وسفك الدماء.

والصحيح: أنّه علّمه أسماء الذّوات وأفعالها؛ مكبَّرها ومصغَّرها؛ كما أشار إليه ابن عباس -رضي الله عنهما-[١].

وذكر البخاري عن أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ؛ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة؛ فيقولون: لو استشفعنا إلى ربّنا؛ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر[٢]؛ خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كلّ شيء...» وذكر تمام الحديث[٣].

---

(١) وقال المصنف-رحمه الله- في «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٦): «والصحيح: أنه علّمه أسماء الأشياء كلها؛ وذواتها وصفاتها وأفعالها؛ كما قال ابن عباس: حتى الفسوة والفسية؛ يعني: أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر».

قلت: ما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- لا يصح سنده، وإنما يدل عليه عموم اللفظ القرآني، والله أعلم.

(٢) هذا دليل قاطع، وبرهان جامع على أن آدم أبو البشر جميعهم، وليس كما شكك في ذلك الشيخ محمد عبده المصري، ومن المؤسف حقاً أن يقره على باطله الشيخ محمد رشيد رضا في «المنار» (٤/ ٣٢٣و٣٢٤و٣٢٥).

ثم رأيت كتاباً للدكتور الدّجال عبد الصبور شاهين: «أبي آدم:قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة» يدندن حول هذه الفرية والخرافة؛ فجعل آدم أول إنسان وليس أبا البشر(!).

ولا يخوض في هذا الغيب إلا المضلون؛ كما قال-تعالى-: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝ ﴾ [الكهف:٥١].

أشهد هؤلاء الأفاكون خلق آدم -عليه السلام- حتى يفرقوا بين البشر والإنسان ويقولون: آدم من البشر وليس أبا البشر ولكنه أول إنسان.

إن هذه الضلالة المليئة بالجهالة ترويج لإفك داروين وأنصاره: أن أصل الإنسان قرد(!).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم(١٩٣).

ووجه إيراد المصنف - رحمه الله- الحديث أنه دلّ على أن الله- عز وجل- علّم آدم- عليه السلام- جميع أسماء المخلوقات.

وهذا يدل على أن مذهب الإمام ابن كثير - رحمه الله- كمذهب البخاري - رحمه الله- في المسألة.

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٣١]؛ قال الحسن البصري: لما أراد الله خلق آدم؛ قالت الملائكة: لا يخلق ربّنا خلقاً؛ إلا كنا أعلم منه! فابتلوا بهذا، وذلك قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

قالوا: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣٢]؛ أي: سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك؛ كما قال: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة:٣٣] ؛ أي: أعلم السرَّ؛ كما أعلم العلانية.

وقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة:٣٤]: هذا إكرام عظيم من الله -تعالى- لآدم حين خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه؛ كما قال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩]؛ فهذه أربع تشريفات: خلقه بيده الكريمة، ونفخه من روحه، وأمره الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء.

ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملأ الأعلى وتناظرا: «أنت آدم أبو البشر؛ الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء»[2].

وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة[3].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١/ ١٧٣) بسند جيد.

(٢) سيأتي تخريجه (ص ٢٨).

(٣) مضى تخريجه (ص ١٤).

[حسد إبليس لآدم -عليه السلام-]

وقال في الآية الأخرى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١-١٢].

قال الحسن البصري: قاس إبليس، وهو أول من قاس.

وقال محمد بن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس.

رواهما ابن جرير[١].

ومعنى هذا: أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم؛ فرأى نفسه أشرف من آدم؛ فامتنع من السجود له، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود!

والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار[٢].

ثم هو فاسد في نفسه؛ فإن الطين أنفع وخير من النار؛ لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق[٣].

ثم إن آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه؛ ولهذا أمر الملائكة بالسجود له؛ كما قال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا

---

(١) في «جامع البيان» (٧/ ٩٨) وصححهما الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢١٢).

(٢) وانظر -لزاماً-: «حجة إبليس» للإمام ابن قيم الجوزية (ص١١ -وما بعدها- بتحقيقي).

(٣) وقد بيّن ذلك مفصلاً الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في «الصواعق المرسلة» (٣/ ١٠٠٢-١٠٠٣).

فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝﴾ [الحجر:٢٨-٣٥]: استحق هذا من الله- تعالى-؛ لأنه استلزم تنقّصه لآدم وازدراؤه به وترفّعه عليه مخالفة الأمر الإلهيّ ومعاندة الحقّ في النصّ على آدم على التّعيين، وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً، وكان اعتذاره أشد من ذنبه.

كما قال -تعالى- في سورة سبحان: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝﴾ [الإسراء:٦١-٦٥].

وقال في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]؛ أي: خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره.

وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليه؛ فإنه مخلوق من نار؛ كما قال، وكما قد روينا في «صحيح مسلم»[1] عن عائشة، عن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط[2].

---

(١) (برقم٢٩٩٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان»(١/ ١٧٩)، وأبو الشيخ في «العظمة»(١١٢٩)، وغيرهما بطرق عن عوف الأعرابي عن الحسن به.

قلت: وسنده صحيح.

هذه المسألة من المسائل التي اختلف فيها أهل العلم من السلف والخلف اختلافاً كبيراً، والراجح: أن إبليس -لعنه الله- من الجن وليس من الملائكة للوجوه الآتية:

١- قوله -تعالى-: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]؛ فهذا نص جليّ في المسألة؛ لأن الجن قسيمو الإنس في الخلق، وعندما تطلق هذه اللفظة لا يراد بها الملائكة أو حيّ منهم.

وقال في سورة ص: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [ص:٧١-٨٥].

وقال في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٦-١٧]؛ أي: بسبب

= ٢- أن إبليس مخلوق من نار، وأما الملائكة؛ فمخلوقات نورانية، ويا بعد ما بينهما!

٣- أن إبليس له ذرية: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ [الكهف:٥٠]، والملائكة لا تتناسل.

٤- أن إبليس عصى الله واستكبر وكفر، والملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فإن قيل: كيف أمر بالسجود مع الملائكة وهو ليس منهم؟

فالجواب: أنه رفع إلى مصافهم بفضل علمه واجتهاده وعبادته وتشبهه بالملائكة؛كما جاء عن كثير من السلف، وهو ما رجحه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، ولا غرابة أن يكون معهم وليس منهم؛فهذا آدم -عليه السلام- كان في مصاف الملائكة عند ربه -تبارك وتعالى-.

وإن قيل :كيف استثناه الله منهم وهو ليس كذلك؟

فالجواب:إن هذا الاستثناء من باب الاستثناء المنقطع الذي لا يشترط أن يكون المستثنى جزءاً من المستثنى منه؛ كقولك: شرب القوم إلا ماشيتهم! وجاؤوا إلا إبلهم!!.

إغوائك إياي؛ لأقعدن لهم كلّ مرصد، ولآتينهم من كل جهة منهم، فالسعيد من خالفه، والشقيّ من اتبعه.

عن سبرة بن أبي الفاكه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه» وذكر الحديث[١].

[الملائكة الذين سجدوا لآدم عليه السلام]

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم؛ أهم جميع الملائكة كما دلّ عليه عموم الآيات؟ -وهو قول الجمهور- أو المراد بهم ملائكة الأرض.

ولكن الأظهر من السياقات الأول، ويدل عليه الحديث: «وأسجد له ملائكته»[٢]، وهذا عموم -أيضاً-، والله أعلم[٣].

[إبليس كان في السماء]

وقوله -تعالى- لإبليس: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف:١٣]، و﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف:١٨] دليل على أنه كان في السماء، فأمر بالهبوط منها، والخروج من المنزلة

---

(١) صحيح-أخرجه أحمد(٣/ ٤٨٣)،والنسائي (٦/ ٢١-٢٢)،وابن حبان في «صحيحه» (١٠/ ٤٥٣/ ٤٥٩٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف»(٥/ ٢٩٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ رقم٦٥٥٨) بسند صحيح، وصححه شيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- في «صحيح النسائي» (٢٩٣٧)، و«صحيح الجامع»(١٦٤٨).

(٢) مضى تخريجه (ص١٤).

(٣) وقد فصَّل المصنف- رحمه الله- في «تفسير القرآن العظيم»(١/ ٢٨٧) هذه المسألة بعض الشيء؛ فانظره غير مأمور.

والمكانة التي كان قد نالها بعبادته، وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه، فأهبط إلى الأرض مذؤوماً مدحوراً[1].

[حواء -عليها السلام- وقصة خلقها]

وأمر الله آدم -عليه السلام- أن يسكن هو وزوجته الجنة، فقال: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة:٣٥].

وقال في سورة الأعراف: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٨-١٩].

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه:١١٦-١١٩].

وسياق هذه الآيات يقتضي أن خَلْقَ حواء كان قبل دخول آدم إلى الجنة لقوله: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾، وهذا قد صرح به محمد بن إسحاق بن يسار، وهو ظاهر هذه الآيات.

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم، ولأم مكانه لحماً.

ومصداق هذا: في قوله -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً

---

(١) هذا يدل على أن ابن كثير -رحمه الله- يرجح أن إبليس من الجن؛ كما تقدم (ص ١٧-١٨).

وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١].

وفي قوله -تعالى-: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ [الأعراف:١٨٩].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «استوصوا بالنساء خيراً ؛ فإنّ المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه؛ فإن ذهبت تقيمه؛ كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج؛ فاستوصوا بالنساء خيراً»[1].

هذا لفظ البخاري.

[الشجرة التي نهي عنها آدم وزوجته -عليهما السلام-]

وقد اختلف المفسرون في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة:٣٥].

وهذا الخلاف قريب، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعيّنها لنا، كما في غيرها من المحال التي تُبْهَم في القرآن[2].

[حقيقة الجنة التي كان فيها آدم وزوجته -عليهما السلام-]

وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي أدخلها آدم: هل هي في السماء أو في الأرض؟ هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه.

---

(١) أخرجه البخاري(٣٣٣١)، ومسلم(١٤٦٨).

(٢) هذا أصل سلفي في تفسير القرآن؛ فلا ينبغي للمفسر أن يبحث في تعيين مبهمات القرآن ما لم يأت في ذلك نقل صحيح صريح عن رسول الله ﷺ؛ لأنه غيب لا يعلم إلا بوحي؛ فتدبر.

والجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنّة المأوى؛ لظاهر الآيات والأحاديث؛ كقوله -تعالى-: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة:٣٥]، والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى.

وكقول موسى -عليه السلام- لآدم -عليه السلام-: «علام أخرجتنا ونفسك من الجنة... ؟» الحديث كما سيأتي الكلام عليه[1].

وروى مسلم في «صحيحه»[2] من حديث أبي هريرة وحذيفة قالا: قال رسول ﷺ: «يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم، فيقولون: يا أبانا! استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟» وذكر الحديث بطوله.

هذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى.

[إبليس يوسوس لآدم وحواء - عليهما السلام -]

وقوله -تعالى-: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا ﴾ [البقرة:٣٦]؛ أي: عن الجنة ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة:٣٦]؛ أي: من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكدّ والنكد، وذلك بما وسوس لهما وزيّنة في صدورهما.

كما قال -تعالى-: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ۝٢٠ ﴾ [الأعراف:٢٠] يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين؛ أي: لو أكلتما منها لصرتما كذلك. ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ ﴾ [الأعراف:٢١]؛ أي: حلف لهما على ذلك ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف:٢١]؛ كما قال في الآية الآخرى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ

---

(١) (ص ٢٨).

(٢) برقم (١٩٥).

ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه:١٢٠]؛ أي: هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم، واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي؟ وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع.

والمقصود: أن قوله: ﴿ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ ﴾ [طه:١٢٠] التي إذا أكل منها خلدت، وقد تكون هي الشجرة التي قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[١].

وقوله: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف:٢٢] ؛ كما قال في طه: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۚ ﴾ [طه:١٢١].

[حواء -عليها السلام- والشجرة]

وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم، وهي التي حثّته على أكلها، والله أعلم.

وعليه يحمل الحديث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «لولا بنو إسرائيل؛ لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٠و٣٣٩٩)، ومسلم (١٤٧٠).

قلت: خيانة حواء لآدم -عليهما السلام- تزيينها لآدم الأكل من الشجرة لا معنى لها غير ذلك. أفاده الحافظ ابن حجر - رحمه الله- في «فتح الباري» (٦/ ٣٦٨).

وقال شيخ مشايخنا العلامة أبو الأشبال أحمد شاكر - رحمه الله -في تعليقه على في «المسند» (٨٠١٩): «وأزيد: إنه لم يكن هناك رجال غير آدم حتى يوجد احتمال أن تكون الخيانة بارتكاب الفواحش».

قلت: هذا قول مكين وتوجيه متين؛ فما زنت امرأة نبي، وآدم -عليه السلام- نبي مكلم.

[لباس آدم وحواء -عليهما السلام-]

وفي كتاب التوراة[1] التي بأيدي أهل الكتاب: أن الذي دلّ حواء على الأكل من الشجرة هي الحيّة، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها، فأكلت حواء عن قولها، وأطعمت آدم -عليه السلام-، وليس فيها ذكر لإبليس؛ فعند ذلك انفتحت أعينها وعلما أنّهما عريانان، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر، وفيها أنهما كانا عريانين.

وكذا قال وهب بن منبه: وكان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها.

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم، وتحريف وخطأ في التعريب؛ فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة لا يتيسر لكلّ أحد، ولا سيما ممن لا يكاد يعرف كلام العرب جيداً، ولا يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى[2].

وقد دلّ القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله: ﴿ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ﴾ [الأعراف:٢٧]؛ فهذا لا يرد لغيره من الكلام، والله- تعالى- أعلم.

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق؛ ستين ذراعاً، كثير الشعر مواري العورة، فلما أصاب الخطيئة في الجنّة بدت له سوأته، فخرج من الجنة؛ فلقيته شجرة؛ فأخذت بناصيته، فناداه ربه: أفراراً مني يا آدم؟ قال: بل حياء منك والله يا رب مما جئت به»[3].

---

(١) «العهد القديم»(سفر التكوين/ الإصحاح٣).

(٢) هذه قاعدة علمية فريدة يجب على المترجمين أن يفقهوها، وبخاصة الذين يعملون في ترجمة الكتب العلمية الشرعية.

فكم رأيت في عملهم من جهل وعبث؛ لأنهم لم يعرفوا لغة العرب على مراد أهلها وكذلك علمهم الشرعي ضحل إلا من رحم ربك ، وقليل ما هم.

(٣) حسن- أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣١)، والحاكم (٢/ ٢٦٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٠٥) من طريق عبد الوهاب بن عطاء الخفاف العجلي عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن عتي عن أبي به.

[ندم الأبوين -عليهما السلام- واستغفارهما]

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٢-٢٣]، وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة، وتذلل وخضوع واستكانة، وافتقار إليه- تعالى- في الساعة الراهنة، وهذا السِّرُّ ما سرى في أحد من ذريته؛ إلا كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه.

[إخراج آدم وحواء -عليهما السلام- من الجنة]

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٤]، وهذا خطابٌ لآدم وحواء وإبليس- قيل: والحية معهم- أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين.

وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ: أنه أمر بقتل الحيات، وقال: « ما سالمناهن منذ حاربناهن »[1].

= قلت: ورجاله ثقات؛ لكن قتادة والحسن البصري مدلسان، وقد عنعنا، وابن أبي عروبة اختلط بأخرة؛ لكن رواية عبد الوهاب عنه قبل اختلاطه.

وخالف عبد الوهاب العجلي عباد بن العوام؛ فرواه عن سعيد بن أبي عروبة بسنده به موقوفاً: أخرجه ابن سعد (١/ ٣١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥٤)، والحاكم (٢/ ٥٤٣-٥٤٤).

لكن عباد هذا مضطرب الحديث عن سعيد بن أبي عروبة؛ كما قال الإمام أحمد. انظر: «هدي الساري» (ص٤١٢).

لكن رواه إسحاق بن الربيع -وهو صدوق- عن الحسن به موقوفاً: أخرجه ابن سعد (١/ ٣٢).

وبالجملة؛ فالحديث من هذه الطريق ضعيف، لكن له طريق آخر سيذكره المصنف -رحمه الله- بعد هذا مباشرة، فيرتقي الحديث -إن شاء الله- بمجموعها إلى درجة الحسن.

(١) صحيح- أخرجه أبو داود (٥٢٤٨)، وأحمد (٢/ ٢٤٧و٤٣٢و٥٢١)، وابن حبان (٥٦٤٤) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

=

وقوله في سورة طه: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه:١٢٣] هو أمر لآدم وإبليس، واستتبع آدمُ حواء وإبليسُ الحيَّةَ.

وقيل: هو أمر لهم بصيغة التثنية؛ كما في قوله- تعالى-: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٨].

والصحيح: أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدَّعٍ ومدّعى عليه، قال: ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴾.

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة:٣٦-٣٩]؛ فقال بعض المفسرين: المراد بالإهباط الأول: الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا، وبالثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض.

وهذا ضعيف؛ لقوله في الأول: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة:٣٦]؛ فدل على أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول، والله أعلم.

والصحيح: أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً، وناط مع كلّ مرة حكماً؛ فناط بالأول: عداوتهم فيما بينهم، وبالثاني: الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك؛ فهو السعيد، ومن خالفه؛ فهو الشقي، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم.

= وله شاهد من حديث ابن عباس -رضي الله عنه- أخرجه أبو داود (٥٢٥٠)، وأحمد (١/ ٢٣٠).

وبالجملة ؛ فالحديث صحيح،والله أعلم.

عن أبي موسى الأشعري؛ قال: إن الله حين أهبط آدم من الجنّة إلى الأرض؛ علمه صنعة كلّ شيء، وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تتغيّر وتلك لا تتغيّر[١].

عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها »[٢].

وفي« الصحيح» من وجه آخر: «وفيه تقوم الساعة».

[توبة آدم -عليه السلام-]

وقوله: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:٣٧]؛ قيل: هي قوله: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٣].

روي هذا عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والربيع بن أنس، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب، وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم[٣].

عن ابن عباس: «﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ ﴾ [البقرة:٣٧]؛ قال: قال آدم: يا رب! ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له: بلى. ونفخت فيّ من روحك ؟

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره»(١/ ١/ ٤٣-٤٤)، والطبري في « جامع البيان» (١/ ١٧٥)، وابن أبي حاتم في « تفسيره»(١٣٨/ ٤٢١)، والبزار في « البحر الزخار» (٨/ ٤٥/ ٣٠٣٠)، والحاكم (٢/ ٥٤٣)، والبيهقي في « البعث»(١٤١/ ١٨٠) وسنده صحيح موقوفاً.

وقد ثبت مرفوعاً عند البزار(٨/ ٤٥/ ٣٠٢٩) بسند صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»(٨٥٤).

(٣) انظر: « تفسير عبد الرزاق »(١/ ١/ ٤٤)، و«تفسير ابن أبي حاتم»(٤١٤)، و« جامع البيان »(١/ ١٩٣-١٩٤)، و« تفسير القرآن العظيم » للمصنف (١/ ٨٥)، و« الدر المنثور» (١/ ٥٩).

قيل له: بلى. وعطست؛ فقلت: يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له: بلى. وكتبت علي أن أعمل هذا ؟ قيل له: بلى، قال: أفرأيت إن تبت؛ هل أنت راجعي إلى الجنة ؟ قال: نعم[1].

وهذه الآية؛ كقوله -تعالى-: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه:١٢١-١٢٢].

[احتجاج آدم وموسى -عليهما السلام-]

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « حاجّ موسى آدم -عليهما السلام-؛ فقال له: أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟! قال آدم: يا موسى ! أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني ». قال رسول الله ﷺ: «فحجَّ آدمُ موسى »[2].

عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ قال: « قال موسى -عليه السلام-: يارب! أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة؛ فأراه آدم -عليه السلام-؛ فقال: أنت آدم ؟ فقال له آدم: نعم. فقال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك الأسماء كلها ؟ قال: نعم. قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟! فقال له آدم: من أنت ؟ قال: أنا موسى. قال: أنت موسى نبي بني إسرائيل ؟ أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب؛ فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه ؟ قال: نعم. قال: تلومني على أمر قد سبق من الله -عز وجل- القضاء به قبل ؟!». قال رسول الله ﷺ: «فحجّ آدم موسى، فحجّ آدم موسى»[3].

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث:

---

(١) أخرجه الحاكم(٢/ ٥٤٥)، وابن أبي حاتم(١٣٥/ ٤١١)، وابن جرير في «جامع البيان»(١/ ١٩٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»(٧/ ٤٣٣) بإسناد حسن.

(٢) أخرجه البخاري(٤٧٣٨)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٣) صحيح- أخرجه أبو داود(٤٧٠٢)، وأبو يعلى في «المسند»(٢٤٣) بإسناد جيد.
وله طريق آخر- سيذكرها المصنف عقب هذا- عند أبي يعلى(٢٤٤)، وفيه ضعف.
وبالجملة؛ فالحديث بهما صحيح، والله أعلم.

فردّه قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق.

واحتج به قوم من الجبرية، وهو ظاهر لهم بادي الرأي؛ حيث قال: «فحج آدم موسى» لما احتج عليه بتقديم كتابه، وسيأتي الجواب عن هذا.

وقال آخرون: إنما حجّه؛ لأنه لامه على ذنب قد تاب منه، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وقيل: إنما حجّه؛ لأنه أكبر منه وأقدم.

وقيل: لأنه أبوه.

وقيل: لأنهما في شريعتين متغايرتين.

وقيل: لأنهما في دار البرزخ؛ وقد انقطع التكليف فيما يزعمون.

والتحقيق: أن هذا الحديث رُوى بألفاظ كثيرة، بعضها مرويٌّ بالمعنى، وفيه نظر، ومدار معظمها في «الصحيحين» وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة؛ فقال له آدم: أنا لم أخرجكم، وإنما أخرجكم الذي رتب الإخراج على أكلي من الشجرة، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو الله -عز وجل-؛ فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إليّ أكثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة ؛فأكلت منها، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي؛ فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة، وإنما كان هذا من قدر الله وصنعه، وله الحكمة في ذلك؛ فلهذا حج آدم موسى.

ومن كذّب بهذا الحديث؛ فمعاند؛ لأنه متواتر عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً، ثم هو مروي عن غيره من الصحابة، كما ذكرنا.

ومن تأوّله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً، فهو بعيد من اللفظ والمعنى، وما فيهم من هو أقوى مسلكاً من الجبرية،وفيما قالوه نظر من وجوه:

أحدها: أن موسى -عليه السلام- لا يلوم على أمر قد تاب عنه فاعله.

الثاني: أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وقد سأل الله في ذلك بقوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾ [القصص:١٦].

الثالث: أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد؛ لا نفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله، فيحتج بالقدر السابق؛ فينسد باب القصاص والحدود.

ولو كان القدر حجة؛ لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهذا يفضي إلى لوازم فظيعة! فلهذا قال من قال من العلماء[١]: بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا على المعصية، والله -تعالى- أعلم بالصواب، وهو حسبي ونعم الوكيل[٢].

---

(١) كشيخي الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية -رحمهما الله-، وكلام المصنف -رحمه الله- يلتقي معهما ولا يختلف؛ فتدبر.

وانظر -لزاماً- «الاحتجاج بالقدر» لشيخ الإسلام، و«التمهيد» (١٨/ ١٢)، و«الاستذكار» (٢٦/ ٨٥و٨٨) كلاهما لابن عبد البر.

(٢) وجملة القول: أن القدر يؤمن به ولا يحتج به.

ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم -عليه السلام-

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك»(١).

عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم؛ تركه ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به؛ فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك»(٢).

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «لما نفخ في آدم؛ فبلغ الروح رأسه؛ عطس فقال: الحمد لله رب العالمين؛ فقال له-تبارك وتعالى-:يرحمك الله»(٣).

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من تراب، ثم جعله طيناً، ثم تركه حتى إذا كان حمأً مسنوناً خلقه الله وصوّره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار.

قال: فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم!

ثم نفخ الله فيه من روحه؛ فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه؛ فعطس؛ فلقّاه الله حمد ربه، فقال الله: يرحمك ربك. ثم قال الله: يا آدم! اذهب إلى هؤلاء النفر؛ فقل لهم: السلام عليكم؛ فانظر ماذا يقولون؟ فجاء؛ فسلم عليهم؛ فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقال: يا آدم! هذه تحيتك وتحية ذريتك. قال: يا رب! وما ذريتي ؟ قال: اختر يدي يا آدم، قال: أختار يمين ربّي وكلتا يدي ربي يمين، فبسط كفه؛ فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن، فإذا رجال منهم على أفواههم النور، وإذا رجل يعجب آدم نوره، قال: يا رب! من هذا؟ قال:

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٠و٤٠٦)، وأبو داود(٤٦٩٣)، والترمذي (٢٩٥٥)، وابن حبان في« صحيحه»(١٤/ ٢٩/ ٦١٦٠-إحسان) وغيرهم بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٢)، ومسلم (٢٦١١).

(٣) صحيح- أخرجه ابن حبان (٦١٦٥) بإسناد صحيح.

ابنك داود، قال: يا رب! فكم جعلت له من العمر ؟ قال: جعلت له ستين، قال: يا رب! فأتم له من عمري حتى يكون عمره مائة سنة. ففعل الله ذلك؛ وأشهد على ذلك.

فلما تقدم عمر آدم بعث الله إليه ملك الموت؛ فقال آدم: أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داود ؟! فجحد ذلك، فجحدت ذريته، ونسي؛ فنسيت ذريته »[١].

عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه؛ فضرب كتفه اليمنى؛ فأخرج ذريته بيضاء كأنهم الدر، وضرب كتفه اليسرى؛ فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم؛ فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي »[٢].

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ؛ قال: «خلق الله آدم؛ وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب، فسلم على أولئك النفر من الملائكة؛ فاستمع ما يجيبونك؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك.

فقال: السلام عليكم.

فقالوا: السلام عليك ورحمة الله؛ فزادوه : ورحمة الله.

فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن »[٣].

---

(١) صحيح-أخرجه أبو يعلى(٦٥٨٠)، والترمذي(٣٠٧٦و٣٣٦٨)، والنسائي في«عمل اليوم والليلة»(٢١٩و٢٢٠)، وابن أبي عاصم في«السنة»(٢٠٦)، وابن حبان(٦١٦٧)، والحاكم(١/ ٦٤و٢/ ٥٨٥و٤/ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في«التفسير»(٥/ ١٦١٤/ ٨٥٣٥) من طرق عنه به.

قلت: وهو بمجموعها صحيح، والله أعلم.

(٢) صحيح- أخرجه أحمد(٦/ ٤٤١)، وابنه في«الزوائد» ومن طريقهما ابن عساكر في «تارخ دمشق» (٧/ ٣٩٧)، والبزار في «مسنده» (٢١٤٤-كشف)، بسند صحيح، وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٢٦و٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١).

عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سُئل عن هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف:١٧٢] الآية؛ فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يُسأَل عنها؛ فقال: «إن الله خلق آدم -عليه السلام-، ثم مسح ظهره بيمينه؛ فاستخرج منه ذرية؛ قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية؛ قال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: يا رسول الله! ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة؛ استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة؛ فيدخل به الجنة. وإذا خلق الله العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل أهل النار؛ فيدخل به النار»(١).

[مسألة الميثاق والاستنطاق بالتوحيد]

وهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه -تعالى- ذرية آدم من ظهره كالذر، وقسمتهم قسمين: أهل اليمين وأهل الشمال.

وقال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»(٢).

---

(١) صحيح لغيره-أخرجه مالك(٢/ ٨٩٨)، وأحمد(١/ ٤٤)، وأبو داود(٤٧٠٣)، والترمذي(٣٠٧٥)، وابن حبان(٦١٦٦)، والحاكم(١/ ٢٧و٢/ ٣٢٤و٥٤٤) وغيرهم من طريق مالك به.

وأخرجه أبو داود(٤٧٠٤)، وابن أبي عاصم(٢٠١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٤-٥) من طريق زيد بن أبي أنيسة.

قلت: إسناده ضعيف؛ كما بينه الترمذي في «سننه»؛ ولكن له شواهد من حديث أبي هريرة وابن عباس وعبدالرحمن بن قتادة وأنس وأبي -رضي الله عنهم-، يرتقي بها إلى درجة الصحة؛كما قرر ذلك ابن عبدالبر في «التمهيد»، وأقره المنذري في «مختصر السنن»(٧/ ٧٣).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد(٤/ ١٨٦)، وابن سعد(١/ ١٠)، وابن حبان(٣٣٨)، والحاكم(١/ ٣١) من حديث عبد الرحمن بن قتادة بإسناد صحيح.

فأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بالإقرار بالواحدانية، فلم يجيء في الأحاديث الثابتة، وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر؛ كما بيناه هناك، وذكرنا الأحاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها؛ فمن أراد تحريره؛ فليراجعه ثمَّ، والله أعلم[1].

فأما الحديث: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ ؛ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان (يعني: عرفة)[2]، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣]»[3].

روي موقوفاً ومرفوعاً، والموقوف أصح[4].

واستأنس القائلون بهذا القول -وهو أخذ الميثاق على الذرية، وهم الجمهور- بما قال عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء؛ أكنت مفتدياً به؟ ». قال:

---

(١) في هذا نظر، وقد تعقب شيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- ابن كثير وشيخه ابن القيم -رحمهما الله-، وبيّن خطأ ما ذهبا إليه في هذه المسألة في «الصحيحة» (٤/ ١٦٠/ ١٦٢٣)؛ فانظره؛ فإنه من ضنائن العلم الغاليات التي تضرب لها أكباد المطي.

(٢) في جميع الأصول: « يوم عرفة»، والصواب ما أثبته؛ كما في مصادر التخريج.

(٣) صحيح- أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٤٤٠/ ٥٦٠٢-تحفة الأشراف)، والطبري في «جامع البيان» (٦/ ١١٠/ ١٥٣٤٩)، والحاكم (٢/ ٥٤٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٢) من طريق محمد بن حسين المروذي به.

قلت: إسناده صحيح؛ كما قال المصنف- رحمه الله-، وأقره شيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (١٦٢٣).

(٤) تعقبه شيخنا الإمام الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٣) بكلام نفيس، وبيَّن أن له حكم المرفوع من عدة أوجه؛ فلا اختلاف ولا تعارض!.

«فيقول: نعم؛ فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي»[١].

[حسرة إبليس من توبة آدم -عليه السلام-]

وتقدم أنه -تعالى- لما أمر الملائكة بالسجود لآدم؛ امتثلوا كلهم الأمر الإلهي، وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له؛ فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها، وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً.

عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد؛ اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله! أمر ابن آدم بالسجود؛ فسجد؛ فله الجنة، وأمرت بالسجود؛ فعصيت؛ فلي النار»[٢].

[مدة مقام آدم -عليه السلام- في الجنة]

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها؛ أقام بها هو وزوجته حواء -عليهما السلام- يأكلان منها رغداً حيث شاءا، فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها؛ سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض.

وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها[٣].

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة: واختلفوا؛ هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد؟[٤]

وذكروا أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه، والآخر بالأخرى، وهلم جرا، ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه.

---

(١) البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

(٢) مسلم (٨١).

(٣و٤) ولا يصح في هذا الباب شيء.

ذكر قصة ابني آدم
قابيل وهابيل

قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْأَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة:٢٧-٣١].

وقوله لما توعده بالقتل: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة:٢٨] دل على خلق حسن، وخوف من الله -تعالى-، وخشية منه، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار».

قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل؛ فما بال المقتول ؟! قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[1].

وقوله: ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المائدة:٢٩]؛ أي: إني أريد ترك مقاتلتك- وإن كنت أشد منك وأقوى- إذ قد عزمت على ما عزمت عليه.

---

(١) أخرجه البخاري(٣١)، ومسلم(٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة -رضي الله عنه-.

﴿ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾؛ أي: تتحمل إثم قتلي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك؛ قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد.

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل؛ كما قد توهمه بعض الناس؛ فإن ابن جرير حكى الإجماع على خلاف ذلك.

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ ؛ أنه قال: « ما ترك القاتل على المقتول من ذنب»؛ فلا أصل له، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً[1].

ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة أن يطالب المقتول القاتل؛ فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة؛ فتحول من سيئات المقتول إلى القاتل؛ كما ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم[2]، والقتل من أعظمها. والله أعلم.

عن سعد بن أبي وقاص: أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة: القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي ».

قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إلي ليقتلني؛ قال: «كن كابن آدم»[3].

عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وقال: «كن كخير ابني آدم»[4].

وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا[5].

---

(١) انظر -لزاماً- « الضعيفة » (٢٨٧) لشيخنا الإمام الألباني - رحمه الله- حيث نقل كلام المصنف-رحمه الله-، وأقره عليه.

(٢) هو حديث المفلس: أخرجه مسلم (٢٥٨١).

(٣) صحيح - أخرجه أحمد(١/ ١٦٩و١٨٥)، وأبو داود(٤٢٥٧)، والترمذي(٢١٩٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم.

(٤) صحيح لغيره- أخرجه ابن مردويه في « التفسير»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم»(٢/ ٤٢) بإسناد ضعيف؛ فيه رجل لم يسمه.

لكن له شواهد صحيحة من حديث سعد وأبي ذر يرتقي بها إلى درجة الصحة.

(٥) يريد أصل الحديث وليس فيه ذكر الفتنة.

وأما الآخر[١]؛ فقد قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً؛ إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سن القتل»[٢].

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها: مغارة الدم، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب؛ فالله أعلم بصحة ذلك[٣].

وقوله -تعالى-: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة:٣١].

ذكر بعضهم: أنه لما قتله؛ حمله على ظهره ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين، فتقاتلا؛ فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله؛ عمد إلى الأرض يحفر له فيها، ثم ألقاه ودفنه وواراه؛ فلما رآه يصنع ذلك؛ ﴿ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٣١]؛ ففعل مثل ما فعل الغراب؛ فواراه ودفنه.

وقد ذكر : أن قابيل عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه، تنكيلاً به، وتعجيلاً؛ لذنبه وبغيه وحسده لأخيه؛ لأبويه.

= وأخرجه -في حديث طويل- أحمد(٥/ ١٤٩و١٦٣)، وأبو داود(٤٢٦١)، وابن ماجه(٣٩٥٨)، وابن حبان(٥٩٦٠)، والحاكم(٢/ ١٥٦و٤/ ٤٢٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم.

وأخرجه مسلم في «صحيحه» (٦٤٨)، وأبو داود(٤٣١)، والترمذي(١٧٦)، وابن ماجه(١٢٥٦) مختصراً بذكر قصة الصلاة فقط.

(١) من ابني آدم ، وهو الذي ليس بخيرهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٦٧)، وأحمد(١/ ٣٨٣و٤٣٠و٤٣٣)، والترمذي (٢٦٧٣)، والنسائي (٣٩٩٦)، وابن ماجه (٢٦١٦).

(٣) وكذلك أسماء ابني آدم إنما تلقيت من أهل الكتاب، ولا يصح في ذلك شيء.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ : أنه قال: « ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»(١).

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا، وامتدوا في الأرض ونموا؛ كما قال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ [النساء:١].

[قصة منكرة في وقوع آدم وحواء -عليهما السلام- في الشرك]

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠].

فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم، ثم استطرد إلى الجنس؛ وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء بل لما جرى ذكر الشخص؛ استطرد إلى الجنس؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾ [الملك:٥] ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها.

فأما الحديث عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد؛ فقال: سميه عبد الحارث؛ فإنه يعيش؛ فسمته عبد الحارث؛ فعاش؛ وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»(٢).

---

(١) صحيح- أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»(٢٩)، وأحمد(٥/ ٣٦و٣٨)، وأبو داود(٤٩٠٢)، والترمذي(٢٥١١)، وابن ماجه(٤٢١١) من حديث أبي بكرة بإسناد صحيح.

(٢) ضعيف- أخرجه أحمد(٥/ ١١)، والترمذي(٣٠٧٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (٩/ ٩٩)، وابن أبي حاتم(٥/ ١٦٣١)، والحاكم(٢/ ٥٤٥)من حديث سمرة بإسناد ضعيف؛ =

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا؛ فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً ؛ لما عدل منه إلى غيره، والله أعلم.

وأيضاً: فالله -تعالى- إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء؛ فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً ؟!

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا؛ فإن آدم أبو البشر؛ الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه جنته.

عن أبي ذر؛ قال: قلت: يارسول الله! كم الأنبياء ؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قلت: يا رسول الله! كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر: جم غفير» قلت: يا رسول الله! من كان أولهم؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله! نبي مرسل ؟ قال: «نعم ؛ خلقه الله بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبلاً»[1].

وفي حديث الإسراء الذي في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ لما مرّ بآدم وهو في السماء الدنيا؛ قال له: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. وقال: « وإذا كان يمينه أسودة وعن يساره أسودة؛ فإذا نظر عن يمينه؛ ضحك، وإذا نظر عن

= كما بينه المصنف -رحمه الله- في «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٥٣)، وشيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- في «الضعيفة» (٣٤٢).

(١) صحيح - أخرجه ابن حبان (٣٦١)، والطبراني في «الكبير» (١٦٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦)، والطيالسي (٤٧٨)، وأحمد (٥/ ١٧٨و١٧٩و٢٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٩/ ١٨٠/ ١١٩٦٨-تحفة الأشراف)، والحاكم (٢/ ٥٩٧)، والبيهقي (٩/ ٤) وغيرهم من طرق عن أبي ذر.

قلت: وهو بمجموعها صحيح، وإن كان بعضها لا يخلو من مقال.

وصححه شيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- في «المشكاة» (٥٧٣٧)، و«الصحيحة» (٢٦٦٨).

شماله؛ بكى! فقلت: يا جبريل! ما هذا ؟ قال: هذا آدم وهؤلاء نسم[١] بنيه، فإذا نظر قبل أهل اليمين - وهم أهل الجنة -؛ ضحك، وإذا نظر قبل أهل الشمال - وهم أهل النار -؛ بكى»[٢].

وهذا معنى الحديث.

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ: «فمررت بيوسف، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن »؛[٣]، قالوا: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم -عليه السلام- وهذا مناسب؛ فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه؛ فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء.

عن عبد الله بن عمرو وابن عمر -أيضاً- موقوفاً ومرفوعاً: «أن الله -تعالى- لما خلق الجنة؛ قالت الملائكة: يا ربنا ! اجعل لنا هذه؛ فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون؛ فقال الله -تعالى-: وعزتي وجلالي؛ لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن؛ فكان »[٤].

---

(١) النفوس أو الأرواح.

(٢) أخرجه البخاري(٣٤٩)، ومسلم(١٦٣).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه »(١٦٢).

(٤) أخرجه الدارمي في«الرد على بشر المريسي» (١/ ٢٥٦) قال: حدثناه عبد الله بن صالح حدثني الليث، حدثني هشام ، حدثني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً به.

وهذا سند حسن؛ للخلاف في عبد الله بن صالح، وخلاصة الكلام فيه: أنه ما يجيء من رواية الحفاظ الحذاق؛ فهو من صحيح حديثه، وروايتهم عنه مستقيمة، وهذا منها؛ فإن راويه عن عبد الله بن صالح هو الإمام الدارمي؛ لكن يحتمل أن يكون أصل الحديث من الإسرائيليات التي كان يحدث بها بعض الذين أسلموا من أهل الكتاب، والله أعلم.

وللحديث شواهد؛ لكنها ضعيفة معلولة عند التحقيق، وانظر: «تفسير القرآن العظيم » (٥/ ١٢٥)، وتعليق شيخنا الألباني - رحمه الله - على «العقيدة الطحاوية» (ص٣٠٥).

وقد ورد الحديث المروي في «الصحيحين» وغيرهما من طرق: أن رسـول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم على صورته»[1].

وقد تكلم العلماء على هذا الحديث؛ فذكروا فيه مسالك كثيرة، ليست هذا موضع بسطها، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري(٢٥٥٩)، ومسلم(٢٦١٢) من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه.

[ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث - عليهما السلام -]

ومعنى شيث: هبة الله، وسمياه بذلك؛ لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل.

ولما توفي آدم- عليه السلام - وكان ذلك يوم الجمعة؛ جاءته الملائكة بحنوط وكفن من عند الله -عز وجل - من الجنة، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً -عليه السلام-.

عن عُتيٍّ - هو ابن ضمرة السعدي -؛ قال: رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم؛ فسألت عنه؛ فقالوا: هذا أبي بن كعب؛ فقال: «إن آدم لما حضره الموت؛ قال لبنيه: أي بني! إني أشتهي من ثمار الجنة.قال: فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل؛ فقالوا لهم: يا بني آدم! ما تريدون وما تطلبون ؟ - أو ما تريدون وأين تطلبون ؟ - قالوا: أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة؛ فقالوا لهم: ارجعوا؛ فقد قضى أبوكم . فجاءوا، فلما رأتهم حواء عرفتهم؛ فلاذت بآدم؛ فقال: إليك عني؛ فإني إنما أتيت من قبلك؛ فخلي بيني وبين ملائكة ربي -عز وجل-، فقبضوه، وغسلوه، وكفنوه، وحنطوه، وحفروا له، ولحدوه، وصلوا عليه، ثم أدخلوه قبره؛ فوضعوه في قبره، ثم حثوا عليه، ثم قالوا: يا بني آدم! هذه سنتكم»[١].

إسناد صحيح إليه.

---

(١) صحيح- أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»(٥/ ١٣٦)، والطبراني في «الأوسط» (٨/ ١٥٧/ ٨٢٦١و٩/ ١٠٥-١٠٦/ ٩٢٥٩)، وابن سعد في «الطبقات»(١/ ٣٣)، وابن جرير في «تاريخ الأمم والملوك»(١/ ١٠٠) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٥٥و٤٥٦) عن أبي.

وهو صحيح؛ كما قاله المصنف -رحمه الله-.

وأخرجه الحاكم(١/ ٣٤٤) مرفوعاً وهو صحيح.

قلت:لا تعارض بين الرفع والوقف، فالموقوف مرفوع حكماً؛ لأنه لا يقال من قبل الرأي والاجتهاد.

واختلفوا في موضع دفنه؟

وقد ماتت بعده حواء.

واختلف في مقدار عمره -عليه السلام-: فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً: أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة.

وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة؛ لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود، إذا خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم.

وأيضاً؛ فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث؛ فإن ما في التوراة -إن كان محفوظاً - محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الإهباط، وذلك تسعمائة سنة وثلاثون سنة شمسية، وهي بالقمرية تسمائة وسبع وخمسون سنة، ويضاف إلى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الإهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره؛ فيكون الجميع ألف سنة.

[قصة إدريس - عليه السلام -]

قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ [مريم:٥٦-٥٧].

فإدريس -عليه السلام- قد أثنى عليه ووصفه بالنبوة والصديقية.

وقد قال طائفة من الناس: إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل؛ فقال: «إنه كان نبي يخط به؛ فمن وافق خطه؛ فذاك»[1].

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام: أنه أول من تكلّم في ذلك، ويسمونه: هرمس الهرامسة، ويكذبون عليه أشياء كثيرة؛ كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء.

وقوله -تعالى-: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ [مريم:٥٧] هو كما ثبت في «الصحيحين»[2] في حديث الإسراء: أن رسول الله ﷺ مر به وهو في السماء الرابعة.

عن مجاهد في قوله: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾؛ قال: إدريس رفع ولم يمت؛ كما رفع عيسى[3]!

إن أراد أنه لم يمت إلى الآن؛ ففي هذا نظر، والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح، وهو قول مجاهد[4] وغير واحد.

---

(١) أخرجه مسلم(٥٣٧).

(٢) مضى تخريجه (٤١).

(٣) أخرجه الطبري في « جامع البيان »(١٦/ ٧٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه الثوري في « تفسيره» (٥٧٥)، وابن أبي شيبة في « المصنف» (١١/ ٥٥٠/ ١١٩٣٣)، والطبري في «جامع البيان »(١٦/ ٧٣) بسند صحيح.

قال البخاري[1]: ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس: أن إلياس هو إدريس.

واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء: أنه لما مرّ به -عليه السلام-؛ قال له: «مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح»، ولم يقل؛ كما قال آدم وإبراهيم: «مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح».

قالوا: فلو كان في عمود نسبه؛ لقال كما قالا له.

وهذا لا يدلُّ ولا بدَّ؛ لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع، ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن وهو أكبر أولي العزم بعد محمد -صلوات الله عليهم أجمعين-.

---

(١) (٦/ ٣٧٣-فتح)، وقال الحافظ ابن حجر-رحمه الله-: «أما قول ابن مسعود؛ فوصله عبد بن حميد وابن أبي حاتم بإسناد حسن عنه؛ قال: إلياس هو إدريس، ويعقوب هو إسرائيل، وأما قول ابن عباس؛ فوصله جويبر في «تفسيره» عن الضحاك عنه، وإسناده ضعيف».

قصة نوح - عليه السلام-

كان مولده بعد وفاة آدم ، وكان بينهما عشرة قرون؛ عن أبي أمامة: أن رجلاً قال: يا رسول الله! أنبي كان آدم ؟ قال:« نعم، مكلم». قال: فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال: «عشرة قرون »[1].

قلت: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام »[2].

فإن كان المراد بالقرن: مائة سنة -كما هو المتبادر عند كثير من الناس-؛ فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيّد به ابن عباس بالإسلام؛ إذاً قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون، وزادنا ابن عباس: أنهم كانوا على الإسلام.

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب: أن قابيل وبنيه عبدوا النار، والله أعلم.

وإن كان المراد بالقرن:الجيل من الناس؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء:١٧]، وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون:٣١]، وقال -تعالى-: ﴿ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٨]، وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ [مريم:٧٤]،

---

(١) صحيح - أخرجه ابن حبان(٦١٩٠)، والطبراني في« الكبير» (٧٥٤٥)، و «الأوسط» (٤٠٥)، والحاكم(٢/ ٢٦٢)، وابن عساكر في«تاريخ دمشق»(٧/ ٤٤٥-٤٤٦).

وصححه الحاكم والذهبي والهيثمي وشيخنا الألباني-رحمهم الله -.

(٢) أخرجه ابن جرير في«جامع البيان»(٢/ ١٩٤)، والحاكم(٢/ ٥٤٦) بإسناد على شرط البخاري؛ كما قال الحاكم ووافقه الذهبي وشيخنا الألباني- رحمهم الله-.

وكقوله -عليه السلام-: «خير القرون قرني..» الحديث[1]؛ فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة؛ فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين! والله أعلم.

وبالجملة؛ فنوح -عليه السلام- إنما بعثه الله -تعالى- لما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر؛ فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض؛ كما يقول أهل الموقف يوم القيامة[2].

[قصة نوح -عليه السلام- في القرآن الكريم]

وقد ذكر الله قصته، وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة، في غير ما موضع من كتابه العزيز؛ ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت، وأنزل فيه سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف [٥٩-٦٤]: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١و٢٦٥٢)، ومسلم(٢٥٣٣و٢٥٣٥) من حديث ابن مسعود وعمران بن حصين -رضي الله عنهما-.

وله شواهد عن جمع من الصحابة- رضي الله عنهم-؛ ولذلك حكم عليه الحافظ في «الإصابة » (١/ ١٢)بالتواتر، وقد خرجتها في كتابي: «بصائر ذوي الشرف بشرح مرويات منهج السلف» (ص ٩-١٦)، وبينت هناك أن لفظ «خير القرون» غير محفوظ!

(٢) سيأتي تخريجه (ص٥٧).

وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

وقال-تعالى- في سورة يونس [٧١-٧٣]: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

وقال-تعالى- في سورة هود [٢٥-٤٩]: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ

عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧].

وقال-تعالى- في سورة المؤمنون [٢٣-٣٠]: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا

وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقال- تعالى- في سورة الشعراء[١٠٥-١٢٢]: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

وقال-تعالى- في سورة العنكبوت [١٤-١٥]: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الصافات [٧٥-٨٢]: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة القمر[٩-١٧]: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا

جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ١٠-٢٨].

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في «التفسير»، وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار.

[مدح نوح -عليه السلام- والثناء عليه]

وقد جرى ذكره -أيضاً- في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه، فقال -تعالى- في سورة النساء[١٦٣-١٦٥]: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾.

وقال في سورة الأنعام [٧٣-٨٧]: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾.

وتقدمت قصته في الأعراف.

وقال في سورة براءة [٧٠]: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

وتقدمت قصته في يونس وهود.

وقال في سورة إبراهيم [٩]: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

وقال في سورة سبحان [١٧]: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء:٣] وقال فيها- أيضاً-: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت.

وقال في سورة الأحزاب [١٢-١٤]: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب:١٢-١٤].

وقال في سورة ص [١٢-١٤]: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقال في سورة غافر[٥و٦]: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝ ﴾.

وقال في سورة الشورى[١٣]: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة ق [١٢-١٤]: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝ ﴾.

وقال في الذاريات [٤٦]: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ ﴾.

وقال في سورة النجم [٥٢]: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ ﴾ وتقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة.

وقال -تعالى- في سورة الحديد [٢٦]: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝ ﴾.

وقال تعالى في سورة التحريم [١٠] ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝ ﴾.

[انحراف ذرية آدم -عليه السلام- وعبادتهم الأصنام]

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار.

فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وذكرنا أن المراد بالقرن: الجيل، أو المدة على ما سلف.

ثم بعد ذلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام.

وكان سبب ذلك ما رواه البخاري[1] عن ابن عباس؛ عند تفسير قوله: -تعالى-: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح:٢٣].

قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا؛ أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم! ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم؛ عبدت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا «التفسير»، ولله الحمد والمنة.

وقد ثبت في« الصحيحين»[2] عن رسول الله ﷺ : أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة، تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة، ويقال لها: مارية، وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها؛ قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح؛ بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله -عز وجل-».

[نوح -عليه السلام- أول رسول إلى أهل الأرض]

والمقصود: أن الفساد لما انتشر في الأرض وعمَّ البلاء بعبادة الأصنام فيها؛ بعث الله عبده ورسوله نوحاً- عليه السلام-؛ يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهي عن عبادة ما سواه.

---

(١) في «صحيحه»(٤٩٢٠).

(٢) أخرجه البخاري(٤٢٧)، ومسلم(٥٢٨) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض؛ كما ثبت في «الصحيحين»[1] في حديث الشفاعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «فيأتون آدم؛ فيقولون: يا آدم! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة؛ فسجدوا لك، وأسكنك الجنة؛ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟

فيقول: ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة؛ فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح!.

فيأتون نوحاً؛ فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسمّاك الله: عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك -عز وجل-؟

فيقول: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي».

وذكر تمام الحديث بطوله؛ كما أورده البخاري في قصة نوح[2].

فلما بعث الله نوحاً -عليه السلام-؛ دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً؛ وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه؛ كما أمر الله -تعالى- من بعده من الرسل الذي هم كلهم من ذريته؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات:٧٧].

وقال فيه وفي إبراهيم: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد:٢٦]؛ أي: كل نبي من بعد نوح فمن ذريته، وكذلك إبراهيم.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

---

(١) أخرجه البخاري(٤٧١٢)، ومسلم(١٩٤).

(٢) برقم(٣٣٤٠).

وقال-تعالى-: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف:٤٥]، وقال -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولهذا قال نوح لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [هود:٢٦]، وقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ... وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ [نوح:٢-١٤] الآيات الكريمات.

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة؛ في الليل والنهار، والسر والإجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان، وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به، وتوعدوه بالرجم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ ﴾ [الأعراف:٦٠]؛ أي: السادة الكبراء منهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأعراف:٦٠-٦١]؛ أي: لست كما تزعمون من أني ضال، بل على الهدى المستقيم، رسول من رب العالمين؛ أي: الذي يقول للشيء كن فيكون، ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأعراف:٦٢]، وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً؛ أي: فصيحاً ناصحاً، أعلم الناس بالله -عز وجل-.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود:٢٧].

تعجّبوا أن يكون بشر رسولاً، وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم، وقد قيل: إنهم كانوا من أفناد الناس- وهم ضعفاؤهم-؛ كما قال هرقل: وهم أتباع الرسل[1]، وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾؛ أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية! وهذا الذي رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه -رضي الله عنهم-؛ فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر، ولهذا مدح رسول الله الصديق، وكانت بيعته يوم السقيفة -أيضاً- سريعة من غير نظر ولا رويّة؛ لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة- رضي الله عنهم-.

ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته؛ فتركه؛ قال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[2].

وقول كَفَرَةِ قوم نوح له ولمن آمن به: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾؛ أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ وهذا تلطف في الخطاب معهم، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق؛ كما قال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه:٤٤]، وقال -تعالى-: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل:١٢٥] وهذا منه.

يقول لهم: ﴿ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾؛ أي: النبوة والرسالة؛ ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾؛ أي: فلم تفهموها ولم

---

(١) كما أخرجه البخاري (٧)، ومسلم(١٧٧٣) من حديث عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما-.

(٢) أخرجه مسلم(٢٣٨٧) من حديث عائشة - رضي الله عنها-.

تهتدوا إليها؛ ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾؛ أي: أنغصبكم بها ونجبركم عليها؟ ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾؛ أي: ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه.

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [هود:٢٩]؛ أي: لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم، أن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطونني أنتم.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود:٢٩] كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك؛ فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾؛ أي: فأخاف إن طردتهم أن يشكوني إلى الله -عز وجل-.

ولهذا لمَّا سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين؛ كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم[1]؛ نهاه الله عن ذلك؛ كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف.

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود:٣١]؛ أي: بل أنا عبد رسول، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به، ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ﴿ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ ﴾ [هود:٣١]؛ يعني: من أتباعه: ﴿ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٣١]؛ أي: لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة، الله أعلم بهم، وسيجازيهم على ما في نفوسهم: إن خيراً؛ فخير، وإن شراً؛ فشر؛ كما قالوا في المواضع الأخرى: ﴿ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الشعراء:١١١-١١٥].

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٢٤١٣) من حديث سعد - رضي الله عنه-.

[يأس نوح -عليه السلام- من إيمان قومه]

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم؛ كما قال -تعالى-: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٤]؛ أي: ومع هذه المدة الطويلة؛ فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلما انقرض جيل؛ وصّوا مَنْ بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه؛ وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٧].

ولهذا قالوا: ﴿ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝ ﴾ [هود:٣٢و٣٣]؛ أي: إنما يقدر على ذلك الله -عز وجل-؛ فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر، بل هو الذي يقول للشيء: كن؛ فيكون.

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [هود:٣٤]؛ أي: من يرد الله فتنته؛ فلن يملك أحد هدايته، هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

[نوح -عليه السلام- يصنع السفينة]

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود:٣٦]: تسلية له عما كان منهم إليه؛ ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود:٣٦]: وهذه تعزية لنوح -عليه السلام- في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن؛ أي: لا يسوءنك ما جرى؛ فإن النصر قريب، والنبأ عجب عجيب.

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود:٣٧].

وذلك أن نوحاً -عليه السلام - يئس من صلاحهم وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال؛ دعا عليهم دعوة غضب ؛ فلبى الله دعوته، وأجاب طلبته.

قال الله- تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الصافات:٧٥و٧٦]، وقال -تعالى-: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٦]، وقال -تعالى-: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الشعراء:١١٧و١١٨]، وقال -تعالى-: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [القمر:١٠]، وقال -تعالى-: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٦]، وقال -تعالى-: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح:٢٥-٢٧].

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم؛ فعند ذلك أمره الله -تعالى- أن يصنع الفلك، وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها، ولا يكون بعدها مثلها[1].

وقدم الله -تعالى- إليه أنه إذا جاء أمره، وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين؛ أنه لايعاوده فيهم ولا يراجعه؛ فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم؛ فإنه ليس الخبر كالمعاينة؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود:٣٧].

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ ﴾ [هود:٣٨]؛ أي : يستهزئون منه استبعاداً لوقوع ما توعدهم به، ﴿ قَالَ إِن

---

(١) لأنها معجزة نبي.

تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود:٣٨]؛ أي: نحن الذين نسخر منكم في استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم؛ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [هود:٣٩].

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا، وهكذا في الآخرة؛ فإنهم يجحدون -أيضاً- أن يكون جاءهم رسول؛ كما قال البخاري[1]: عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ: «يجيء نوح -عليه السلام- وأمته؛ فيقول الله -عز وجل-: هل بلغت؟ فيقول نعم، أي رب! فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا؛ ما جاءنا من نبي؛ فيقول لنوح: من يشهد لك؟! فيقول: محمد وأمته؛ فنشهد أنه قد بلغ»، وهو قوله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣]؛ «والوسط: العدل».

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق؛ بأن الله قد بعث نوحاً بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئاً مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل.

حتى إنه حذر قومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم؛ حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم؛ كما قال البخاري[2]: قال ابن عمر: قام رسول الله ﷺ في الناس؛ فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال؛ فقال: «إني لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور».

---

(١) برقم(٣٣٣٩).

(٢) برقم (٣٣٣٧)، وأخرجه مسلم (١/ ١٥٤-١٥٦/ ١٦٩و٤/ ٢٢٤٧/ ١٦٩ -بنحوه).

وهذا الحديث في «الصحيحين» -أيضاً- عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثاً ما حدث نبي قومه ؟ إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار، والتي يقول عليها : الجنة؛ هي النار، وإني أنذركم؛ كما أنذر به نوح قومه».

لفظ البخاري(١).

وقد قال بعض علماء السلف: لما استجاب الله له؛ أمره أن يغرس شجراً؛ ليعمل منه السفينة؛ فغرسه، ثم نجره

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وكانت ثلاث طبقات، كل واحدة عشرة أذرع؛ فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

قال الله -تعالى-: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [المؤمنون:٢٦-٢٧]؛ أي: بأمرنا لك، بمرأى منا لصنعتك لها، ومشاهدتنا لذلك؛ لنرشدك إلى الصواب في صنعتها.

[نوح -عليه السلام- والطوفان]

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون:٢٧].

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي: أنه إذا جاء أمره وحلَّ بأسه؛ أن يحمل في هذه السفينة من كلٍّ زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله؛ أي: أهل بيته؛ إلا من سبق عليه القول منهم؛ أي: إلا من كان كافراً؛ فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد، وأُمِرَ أنه لا يراجعه فيهم إذا حلّ بهم ما يعاينه من العذاب العظيم، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد؛ كما قدمنا بيانه قبل.

---

(١) برقم (٣٣٣٨)، ومسلم (٢٩٣٦).

والمراد بالتنور -عند الجمهور-: وجه الأرض؛ أي: نبعت الأرض من سائر أرجائها، حتى نبعت التنانير التي هي محال النار.

وقوله- تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود:٤٠]؛ هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وقوله: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾ [هود:٤٠]؛ أي: من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر؛ فكان منهم ابنه يام الذي غرق كما سيأتي بيانه.

﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ ﴾ [هود:٤٠]؛ أي: واحمل فيها من آمن بك من أمتك، قال الله -تعالى-: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:٤٠]؛ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة والترغيب والوعد أخرى.

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة .

قال الله -تعالى-: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٨-٢٩]؛ أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة؛ فنجاه بها، وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه؛ كما قال- تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف:١٢-١٤].

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمر: أن يكون على الخير والبركة، وأن تكون عاقبتها محمودة؛ كما قال -تعالى- لرسوله ﷺ حين هاجر: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾ [الإسراء:٨٠]، وقد امتثل نوح -عليه السلام- هذه الوصية، وقال: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود:٤١]؛ أي. على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود:٤١]؛ أي: وذو عقاب أليم؛ مع كونه غفوراً رحيماً، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين؛ كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [هود:٤٢]؛ وذلك أن الله -تعالى- أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده؛ كان كأفواه القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها؛ كما قال -تعالى-: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر:١٠-١٣]؛ والدسر: المسامير، ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر:١٤]؛ أي: بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها؛ ﴿ جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر:١٤].

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ [الحاقة:١١]؛ أي: السفينة؛ ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحاقة:١٢].

قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض . وعمّ جميع الأرض؛ طولها والعرض، سهلها وحزنها، وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير.

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود:٤٢-٤٣]: وهذا الابن كان كافراً عمل عملاً غير صالح: فخالف أباه في دينه ومذهبه؛ فهلك مع من هلك. هذا؛ وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب؛ كما قال: ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١١٨].

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود:٤٤]؛ أي: لما فرغ من أهل الأرض، ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله -عز وجل-؛ أمر الله الأرض

أن تبتلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع؛ أي: تمسك عن المطر، ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾؛ أي: نقص عما كان، ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾؛ أي: وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حلّ بهم.

﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ أي: نودي عليهم بلسان القدرة: بعداً لهم من الرحمة والمغفرة.

كما قال- تعالى-: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف:٦٤]، وقال -تعالى:- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس:٧٣]، وقال-تعالى-: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٧]، وقال -تعالى-: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:١١٩-١٢١]، وقال -تعالى-: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٥]، وقال -تعالى:- ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾ [الصافات:٨٢]، وقال: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٥-١٧]؛ وقال -تعالى-: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ۝ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح:٢٥-٢٧].

وقد استجاب الله -تعالى، وله الحمد والمنة - دعوته، فلم يبق منهم عين تطرف.

والمقصود: أن الله لم يبق من الكافرين ديّاراً؛ فكيف يزعم بعض المفسرين: أن عوج بن عنق -ويقال: ابن عناق- كان موجوداً من قبل نوح إلى زمان موسى! ويقولون: كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً! ويقولون: كان لغير رشدة؛ بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنى! وأنه كان يأخذ -من طوله- السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس! وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة: ما هذه القُصَيْعَة

التي لك؟ ويستهزئ به! ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس؛ لما تعرضنا لحكايتها؛ لسقاطتها وركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول.

أما المعقول؛ فكيف يسوغ فيه أن يُهلك الله ولد نوح لكفره؛ وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان، ولا يهلك عوج بن عنق -ويقال: عناق-، وهو أظلم وأطغى على ماذكروا ؟!

وأما المنقول؛ فقد قال الله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الصافات:٨٢]، وقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [نوح:٢٦].

ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في «الصحيحين»[١] عن النبي ﷺ :أنه قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»؛ فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٤]: أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن؛ أي: لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك وهلم جرا إلى يوم القيامة، وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه.

فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب، الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ؟! فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه وهم الخونة والكذبة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة؟! وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن

---

(١) مضى تخريجه (٤٢).

عناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء، والله أعلم[١].

ثم ذكر الله -تعالى- مناشدة نوح ربه في ولده، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف. ووجه السؤال: أنك وعدتني بنجاة أهلي معي، وهو منهم؛ وقد غرق ؟!

فأجيب بأنه ليس من أهلك؛ أي: الذين وعدت بنجاتهم؛ أي: إنا قلنا لك: ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ [المؤمنون:٢٧]؛ فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره؛ ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان؛ فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان.

ثم قال- تعالى-: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود:٤٨]: هذا أمر لنوح -عليه السلام- لما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور. ﴿ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ ﴾ [هود:٤٨]؛ أي: اهبط سالماً مباركاً عليك، وعلى أمم ممن سيولد بعد؛ أي: من أولادك؛ فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح -عليه السلام-؛ قال -تعالى-: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات:٧٧]؛ فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم، ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: سام، وحام، ويافث.

---

(١) أحسن المصنف -رحمه الله- في تفنيد خبر عوج بن عنق، وقد زدت المسألة بسطة ونقلت اتفاق علماء الحديث على أنه حديث كذب موضوع في تعليقاتي على« تأويل مختلف الحديث»(ص٥٢٤-٥٢٦)؛ فانظره غير مأمور.

[الرد على منكري الطوفان]

وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان! واعترف بـه آخرون منهم.

وقالوا: إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينـا! قـالوا: ولم نـزل نتـوارث الملـك كابراً عن كابر، من لدن كيومرث - يعنون آدم - إلى زماننا هذا!

وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عبّاد النيران وأتباع الشيطان.

وهذه سفسطة منهم، وكفر فظيـع، وجـهل بليـغ، ومكـابرة للمحسوسـات، وتكذيب لرب الأرض والسماوات.

وقد أجمع أهل الأديان؛ الناقلون عن رسل الرحمن، مع ما تواتر عنـد النـاس في سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عمّ جميع البلاد، ولم يبق الله أحـداً مـن كفرة العباد، استجابة لدعوة نبيّه المؤيّد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم.

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه - عليه السلام-

قال الله -تعالى-: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ [الإسراء:٣].

قيل: إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة، فيحمده عليها، أو يشرب الشربة؛ فيحمده عليها»[1].

والظاهر: أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية؛ فإن الشكر يكون بهذا وبهذا؛ كما قال الشاعر:

أفادتكم النّعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

ذكر وصيته لولده -عليه السلام-

عن عبد الله بن عمرو قال: كنا عند رسول الله ﷺ ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان[2] مزرورة بالديباج ؛ فقال: «ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس -أو قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس- ورفع كل راع ابن راع».

قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته؛ وقال« ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟». ثم قال: «إن نبي الله نوحاً -عليه السلام- لما حضرته الوفاة ؛ قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله؛ فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن

---

(١) أخرجه أحمد(٣/ ١١٧) ، ومسلم(٢٧٣٤)، والترمذي(١٨١٦)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٢٠٢/ ٦٨٩٩).

(٢) طيلسان أخضر أو أسود.

حلقة مبهمة؛ قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر»..

قال: قلت - أو قيل -: يا رسول الله! هذا الشرك قد عرفناه؛ فما الكبر ؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟

قال: «لا » .

قال: هو أن يكون لأحدنا حلّة يلبسها؟

قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟

قال: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟

قال: «لا».

قلت - أو قيل - يا رسول الله! فما الكبر ؟ قال: «سفه الحق وغمط الناس»[1].

وهذا إسناد صحيح.

---

(١) صحيح -أخرجه أحمد(٢/ ١٦٩و٢٢٥)، والبخاري في«الأدب المفرد»(٥٤٨)، والبيهقي في«الأسماء والصفات »(ص ١٢٨) بإسناد صحيح، وصححه شيخنا العلامة الألباني -رحمه الله- في « الصحيحة »(١٣٤).

قصة هود -عليه السلام-

[قبيلة عاد ومساكنهم]

وكان من قبيلة يقال لهم: عاد، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف -وهي جبال الرمل-، وكانت باليمن بين عُمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر، يقال لها: الشَّحَر، واسم واديهم: مغيث.

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام؛ كما قال -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ﴾ [الفجر:٦-٧]؛ أي: عادِ إرمَ، وهم عادٌ الأولى. وأما عاد الثانية؛ فمتأخرة؛ كما سيأتي بيان ذلك في موضعه. وأمّا عاد الأولى؛ فهم عادُ؛ أي: مثل القبيلة، وقيل: مثل العمد.

والصحيح الأول كما بيناه في« التفسير».

ومن زعم: أن إرم مدينة تدور في الأرض؛ فتارة في الشام، وتارة في اليمن، وتارة في الحجاز، وتارة في غيرها؛ فقد أبعد النجعة، وقال ما لا دليل عليه، ولا برهان يُعوَّل عليه، ولا مستند يُركن إليه.

[العرب العاربة والمستعربة]

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل -عليه السلام-: العرب العاربة، وهم قبائل كثيرة: منهم عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وجاسم، وعبيل، وقحطان، وبنو يقطن... وغيرهم.

وأما العرب المستعربة؛ فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وكان إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- أول من تكلم العربية الفصيحة البليغة، وكان قد أخذ كلام العرب من جُرهُم الذي نزلوا عند أمه هاجر بالحرم؛ كما سيأتي بيانه في موضعه -إن شاء الله تعالى- ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ.

[قصة هود -عليه السلام- في القرآن الكريم]

والمقصود: أن عاداً - وهم عاد الأولى - كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان؛ فبعث الله فيهم أخاهم هوداً -عليه السلام-؛ فدعاهم إلى الله:

كما قال -تعالى- بعد ذكر قوم نوح، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف [٦٥-٧٢]: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

وقال -تعالى- بعد ذكر قصة نوح في سورة هود[٥٠-٦٠]: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ

بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة قد أفلح المؤمنون [٣١-٤٠] بعد قصة قوم نوح: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة الشعراء [١٢٣-١٤١] بعد قصة قوم نوح أيضاً: ﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة حم فصلت [١٥و١٦]: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة الأحقاف [٢١-٢٥]: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في الذاريات [٤١-٤٢]: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

وقال-تعالى- في النجم [٥٠-٥٥]: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة اقتربت [١٨-٢٢]: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

وقال في الحاقة [٦-٨]: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾.

وقال في سورة الفجر[٦-١٤]: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝ ﴾.

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أمكانها من كتابنا «التفسير»، ولله الحمد والمنة.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت، وفي سورة ص، وفي سورة ق.

[عاد أول من عبد الأصنام بعد الطوفان]

ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وذلك بَيِّنٌ في قوله لهم: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ [الأعراف: ٦٩]؛ أي: جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش.

وقال في المؤمنون [٣١]: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝ ﴾، وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون: أنهم ثمود؛ لقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ﴾ [المؤمنون:٤١]؛ قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة، ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ ﴾ [الحاقة:٦].

وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة، والريح العاتية عليهم؛ كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة؛ فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات.

ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود.

[هود -عليه السلام- ينذر قومه]

والمقصود: أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام؛ فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له؛ فكذبوه وخالفوه وتنقصوه؛ فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله، ورغبهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:٦٦]؛ أي: هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأعراف:٦٧]؛ أي: ليس الأمر كما تظنون ولا تعتقدون. ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف:٦٨]، والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه، والشفقة عليهم، والحرص على هدايتهم، ولا يبتغي منهم أجراً ولا يطلب منهم جُعْلاً، بل هو مخلص لله -عز وجل- في الدعوة إليه والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله؛ فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه؛ ولهذا قال: ﴿ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود:٥١]؛ أي: أما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين، الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع؛ ولهذا قال مؤمن يس: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يس:٢١-٢٢].

وقال قوم هود له فيما قالوا: ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [هود:٥٣و٥٤]، يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا لمجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه، وعندنا أنه إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك؛ فأصابك في عقلك؛ فاعتراك جنون بسبب ذلك، وهو قولهم: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾.

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ ﴾ [هود:٥٤و٥٥].

وهذا تحد منه لهم، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لهم، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله؛ فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر؛ فها أنا بريء منها، لاعنٌ لها؛ فكيدوني ثم لا تنظرون أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة، ولا طرفة عين؛ فإني لا أبالي بكم، ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم.

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [هود:٥٦]؛ أي: أنا متوكل على الله، ومتأيد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لاذ به واستند إليه، فلست أبالي مخلوقاً سواه، ولست أتوكل إلا عليه، ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبدُ الله ورسولُه، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء، ولا نالوا منه مكروهاً؛ فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح -عليه السلام- قبله في قوله: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس: ٧١].

وهكذا قال الخليل -عليه السلام-: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ ﴾ [الأنعام:٨٠-٨٣].

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولاً بشرياً! وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً؛ كما قال- تعالى-: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس:٢] ؛ وقال -تعالى-: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝ ﴾ [الإسراء:٩٤و٩٥].

ولهذا قال لهم هود -عليه السلام-: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف:٦٣]؛ أي: ليس هذا بعجيب؛ فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝ ﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٩] استبعدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً، وقالوا: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾؛ أي: بعيد بعيد هذا الوعد، ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝ ﴾؛ أي: يموت قوم ويحيا آخرون.

وهذا هو اعتقاد الدهرية؛ كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع!

وأما الدورية؛ فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذا الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة.

وهذا كله كذب، وكفر، وجهل، وضلال، وأقوال باطلة، وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم، الذين لا يعقلون ولا يهتدون؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام:١١٣]، وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٢٨و١٢٩] يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام؛ كما قال -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر:٦-٨]. فعاد إرم هم عاد الأولى الذين يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

ومن زعم أن إرم مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل في البلاد؛ فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه.

وقوله: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ [الشعراء:١٢٩]؛ قيل: هي القصور، وقيل: بروج الحمام، وقيل: مآخذ الماء. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء:١٢٩]، أي: رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة. ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الشعراء:١٣٠-١٣٤].

وقالوا له مما قالوا: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف:٧٠] أي: أجئتنا لنعبد الله وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه ؟! فإن كنت صادقاً فيما جئت به؛ فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال؛ فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨]؛ أما على قراءة فتح(الخاء) [1]؛ فالمراد به اختلاق الأولين؛ أي: إن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك، أخذته من كتب الأولين، هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين. وأما على قراءة ضم (الخاء واللام)؛ فالمراد به الدين؛ أي: إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين الآباء والأجداد من الأسلاف، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به. ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

قال: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف:٧١]؛ أي: قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام نحتُّموها وسمّيتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ﴿ مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾؛ أي: لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً؟! وإذ أبيتم قبول الحق، وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا؛ فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم، وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد.

وقال -تعالى-: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٣٩-٤٠].

وقال -تعالى-: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا

---

(١) قرأ ابن كثير المكي، وأبو عمرو ويعقوب البصريان، والكسائي الكوفي، وأبو جعفر المدني: ﴿خَلْقُ﴾ -بفتح الخاء وإسكان اللام-.

وقرأ الباقون بضم الخاء واللام.

انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٣٥-٣٣٦).

عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وقد ذكر الله -تعالى- خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً؛ كقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأعراف:٧٢]، وكقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ [هود:٥٨-٦٠]؛ وكقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [المؤمنون:٤١]، وقوله -تعالى-: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الشعراء:١٣٩و١٤٠].

[هلاك عاد ونزول نقمة الله بهم]

وأما تفصيل إهلاكهم؛ فكما قال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف:٢٤]؛ كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا ممحلين مُسْنِتِين[1]؛ فطلبوا السقيا؛ فرأوا عارضاً في السماء وظنوه سقيا رحمة؛ فإذا هو سقيا عذاب؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف:٢٤]؛ أي: من وقوع العذاب، وهو قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٢]، ومثلها في الأعراف.

---

(١) هم الذين أصابتهم السَّنة؛ أي: المحل والقحط.

عن الحارث البكري: قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت لي: يا عبد الله! إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة؛ فهل أنت مبلغي إليه ؟

قال: فحملتها؛ فأتيت المدينة؛ فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ؛ فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً.

قال: فجلست.

قال: فدخل منزله -أو قال رحله- فاستأذنت عليه؛ فأذن لي؛ فدخلت؛ فسلمت؛ فقال: «هل كان بينكم وبين بني تميم شيء؟» فقلت: نعم، وكانت لنا الدَّبرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وهاهي بالباب. فأذن لها؛ فدخلت؛ فقلت: يا رسول الله! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً؛ فاجعل الدهناء؛ فإنها كانت لنا. قال: فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله! فإلى أين تضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلي ما قال الأول: مِعْزى حَمَلت حتفها! حملت هذه الأمة ولا أشعرُ أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد! قال: «هيه! وما وافد عاد؟». وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطعمه.

قلت: إن عاداً قحطوا، فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر، خرج إلى جبال تهامة؛ فقال: اللهم! إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم! اسق عاداً ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود فنودي منها: اختر! فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي منها: خذها رماداً رمدداً لا تبقى من عاد أحداً، قال: فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا.

قال أبو وائل: وصدق، وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدا لهم؛ قالوا: لا تكن كوافد عاد[(١)].

وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين؛ كابن جرير وغيره.

[بين عاد الأولى والآخرة]

وقد يكون هذا السياق لإهلاك عاد الآخرة:

فإن فيما ذكره ابن إسحاق وغيره ذكر لمكة، ولم تبن إلا بعد إبراهيم الخليل حين أسكن فيها هاجر وابنه إسماعيل، فنزلت جرهم عندهم؛ كما سيأتي، وعاد الأولى قبل الخليل.

وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى، ولا يشبه كلام المتقدمين.

وفيه أن في تلك السحابة شرر نار، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر، وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة. والعاتية: الشديدة الهبوب.

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الحاقة:٧]؛ أي: كوامل متتابعات. ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧]؛ شبههم بأعجاز

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد(٣/ ٤٨٢)، والترمذي(٣٢٧٣و٣٢٧٤)، وابن ماجه(٢٨١٦)، والنسائي في« الكبرى»(٥/ ١٨١/ ٨٦٠٧)، وابن أبي شيبة(٦/ ٥٣٧/ ٣٣٥٩١)، وابن جرير الطبري في«جامع البيان»(٥/ ٥٢٧)، و« تاريخ الأمم والملوك»(١/ ١٣٣)، والطبراني في« المعجم الكبير»(٣/ ٢٥٤/ ٣٣٢٥-٣٣٢٩) من طريقين عن عاصم به. وهذا سند حسن؛ كما قال شيخنا -رحمه الله- في« الضعيفة » (٣/ ٣٧٣).

وذكر المزي في« تحفة الأشراف» (٣/ ٤) شاهدا له من حديث قيلة بنت مخرمة.

وبالجملة؛ فالحديث صحيح ، والله أعلم.

النخل التي لا رؤوس لها، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم؛ فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس؛ كما قال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ [القمر:١٩]؛ أي: في يوم نحس عليهم، مستمر عذابه عليهم، ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر:٢٠].

ومن قال: إن اليوم النحس المستمر يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم؛ فقد أخطأ وخالف القرآن؛ فإنه قال في الآية الأخرى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت:١٦]، ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات؛ فلو كانت نحسات في أنفسها؛ لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشئومة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾؛ أي: عليهم.

وقال -تعالى-: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الذاريات:٤١]؛ أي: التي لا تنتج خيراً؛ فإن الريح المفردة لا تثير سحاباً ولا تُلقح شجراً، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها؛ ولهذا قال: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات:٤٢]؛ أي: كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية.

وقد ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « نصرت بالصّبا، وأهلكت عاد بالدبور»[1].

وأما قوله -تعالى-: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحقاف:٢١]؛ فالظاهر أن عاداً هذه هي عاد الأولى؛ فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأول.

ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاداً الثانية، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة -رضي الله عنها-.

(١) أخرجه البخاري(١٠٣٥)، ومسلم(٩٠٠).

وأمـــا قولـــه: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف:٢٤]؛ فإن عادا لما رأوا هـذا العـارض وهـو الناشـىء في الجـو كالسحاب ظنوه سحاب مطر؛ فإذا هو سحاب عـذاب، اعتقـدوه رحمـة، فـإذا هـو نقمة، رجوا فيـه الخير؛ فنـالوا منـه غايـة الشـر. قـال الله - تعـالى-: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف:٢٤]؛ أي: من العذاب، ثم فسـره بقولـه: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف:٢٤] يحتمل أن ذلك العـذاب هـو مـا أصابـهم مـن الريـح الصرصر، العاتية، الباردة، الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً، بل تتبعهم حتى كانت تدخل عليـهم كـهوف الجبـال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكـهم، وتدمر عليـهم البيـوت المحكمـة والقصـور المشيدة؛ فكما منوا بشدتهم وبقوتهم وقالوا: مَنْ أشد منّا قوة ؟! سـلط الله عليـهم ما هو أشد منهم قوة، وأقدر عليهم، وهو الريح العقيم.

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، ظن من بقي منـهم أنـها سحابة فيها رحمة بهم، وغياث لمن بقي منهم، فأرسلها الله عليهم شررا ونارا؛ كمـا ذكره غير واحد. ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة والعذاب بالنار، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة، مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون. والله أعلم.

وظاهر الآية: أنهم رأوا عارضا، والمفهوم منه لغة: السحاب؛ كمـا دل عليـه حديث الحارث بن حسان البكري، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة.

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسـلم في «صحيحـه» عـن عائشـة -رضـي الله عنها-؛ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريـح قـال: «اللـهم! إنـي أسـألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيـها وشـر ما أرسلت به».

قالت: وإذا تخيلت السماء؛ تغير لونه، وخرج ودخـل، وأقبـل وأدبـر؛ فـإذا أمطرت؛ سري عنه، فعرفت ذلك عائشة؛ فسألته؛ فقال: «لعله يا عائشة؛ كمـا قـال

قوم عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[١].

طريق أخرى عن عائشة: أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. وقالت: كان إذا رأى غيما أو ريحا؛ عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله! إن الناس إذا رأوا الغيم ؛ فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته؛ عرف في وجهك الكراهية؛ فقال: «يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ ! قد عذب قوم[٢] بالريح، وقد رأى قوم العذاب؛ فقالوا: هذا عارض ممطرنا»[٣].

فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين؛ كما أشرنا إليه أولا؛ فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبرا عن قوم عاد الثانية، وتكون بقية السياقات في القرآن خبرا عن عاد الأولى، والله أعلم بالصواب.

---

(١) صحيح- أخرجه مسلم(٨٩٩/ ١٥)، والترمذي (٣٢٥٧)، وابن ماجه(٣٨٩١)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ رقم ١٠٧٧٦و١٠٧٧٧).

(٢) في بعض الأصول: «قوم نوح »، وهي مقحمة، والله أعلم.

(٣) صحيح- اخرجه أحمد (٦/ ٦٦)، والبخاري (٤٨٢٨و٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩/ ١٤و١٦).

قصة صالح - عليه السلام -

نبي ثمود

[قبيلة ثمود]

وهم قبيلة مشهورة، يقال لهم: ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وكانوا عرباً من العاربة، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مر بـه رسـول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه مـن المسلمين، وكـانوا بعـد قـوم عـاد، وكـانوا يعبدون الأصنام؛ كأولئك، فبعث الله فيهم رجلاً منـهم، وهـو عبـد الله ورسـوله: صالح ؛ فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلعوا الأصنـام والأنـداد ولا يشركوا به شيئاً؛ فآمنت به طائفة منهم، وكفـر جمـهورهم، ونـالوا منـه بالمقـال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم؛ فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

[قصة صالح -عليه السلام- في القرآن الكريم]

كمـا قـال -تعـالى- في سـورة الأعـراف [٧٣-٧٩]: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًاۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة هود [٦١-٦٨]: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة الحجر[٨٠-٨٤]: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة سبحان [٥٩]: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة الشعراء [١٤١-١٥٩]: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ

مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

وقال-تعالى- في سورة النمل [٤٥-٥٣]: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

وقال-تعالى- في سورة حم السجدة [١٧و١٨]: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة اقتربت [٢٣-٣٢]: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس:١١-١٥].

[أهل الكتاب لا يعرفون خبر عاد وثمود]

وكثيرا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود؛ كما في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، وسورة ص، وسورة ق، والنجم، والفجر.

ويقال: إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة، ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما؛ كما قال -تعالى- في سورة إبراهيم [إبراهيم:٨و٩]: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾.

الظاهر: أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كانت هاتان الأمتان من العرب؛ لم يضبطوا خبرهما جيدا، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهورا في زمان موسى -عليه السلام-.

وقد تكلمنا على هذا كله في «التفسير» مستقصى، ولله الحمد والمنة.

والمقصود- الآن- ذكر قصتهم وما كان من أمرهم، وكيف نجى الله نبيه صالحا -عليه السلام- ومن آمن به وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم -عليه السلام-؟

[صالح يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته]

وقد قدمنا أنهم كانوا عرباً، وكانوا بعد عاد، ولم يعتبروا بما كان من أمرهم؛ ولهذا قال لهم نبيهم -عليه السلام-: ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٧٣-٧٤]؛ أي: إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم،

وتعلموا بخلاف عملهم، وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء:١٤٩]؛ أي: حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها؛ فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته؛ فإن عاقبة ذلك وخيمة.

ولهذا وعظهم بقوله: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٨]؛ أي: متراكم كثير حسن بهي ناضج ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء:١٤٩-١٥٢].

وقال لهم- أيضا-: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود:٦١] ؛ أي: هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها؛ أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا ما سواه، ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هود:٦١]؛ أي: أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته؛ فإنه يقبل ويتجاوز عنكم؛ ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١].

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ [هود:٦٢]؛ أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد؛ ولهذا قالوا: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود:٦٢].

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾ [هود:٦٣] ؛ وهذا تلطف منه لهم في العبارة، ولين الجانب، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير؛ أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ؟! ماذا يكون عذركم عند الله ؟! وماذا يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته ؟! وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب علي، ولو تركته؛ لما قدر

أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني؛ فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وقالوا له -أيضا-: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أي: من المسحورين؛ يعنون: مسحورا، لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد، وهذا القول عليه الجمهور، وهو أن المراد بالمسحرين: المسحورين. وقيل من ﴿ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾؛ أي: ممن له سحر -وهو الرئة-؛ كأنهم يقولون: إنما أنت بشر له سحر. والأول أظهر؛ بقولهم بعد هذا: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [الشعراء:١٥٤]، وقولهم: ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء:١٥٤]: سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به.

[معجزة صالح -عليه السلام-]

﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٥-١٥٦]؛ كما قال: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف:٧٣]؛ وقال -تعالى-: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ [الإسراء:٥٩].

وقد ذكر المفسرون: أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم؛ فجاءهم رسول الله صالح؛ فدعاهم إلى الله، وذكرهم، وحذرهم، ووعظهم، وأمرهم؛ فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة، من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا؛ فقال لهم النبي صالح- عليه السلام-: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم؛ أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاه؛ فصلى لله -عز وجل- ما قدر له، ثم دعا ربه -عز وجل- أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله -عز وجل- تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا، وعلى الصفة التي نعتوا، فلما عاينوها كذلك؛ رأوا أمرا عظيما، ومنظرا هائلا، وقدرة باهرة، ودليلا قاطعا، وبرهانا ساطعا؛ فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [الإسراء:٥٩]؛ أي: جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها؛ أي: أكثرهم.

ولهذا قال لهم صالح -عليه السلام-: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ [هود:٦٤]: أضافها لله -سبحانه وتعالى- إضافة تشريف وتعظيم؛ كقوله: بيت الله وعبد الله ﴿ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود:٦٤]؛ أي: دليلا على صدق ما جئتكم به. ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود:٦٤].

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم؛ ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يوما بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء؛ تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم؛ ولهذا قال: ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء:١٥٥].

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ [القمر:٢٧]؛ أي: اختبارا لهم؛ أيؤمنون بها أم يكفرون ؟ والله أعلم بما يفعلون. -قال تعالى-: ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾ [القمر:٢٧]؛ أي : انتظر ما يكون من أمرهم . قال -تعالى-: ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ [القمر:٢٧]: على أذاهم؛ فسيأتيك الخبر على جلية. ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القمر:٢٨].

[ثمود عقرت ناقة الله]

فلما طال عليهم هذا الحال؛ اجتمع ملؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة؛ ليستريحوا منها، ويتوافر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم؛

قال الله -تعالى-: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأعراف:٧٧].

وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم: قدار وكان أحمر أزرق أصهب وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم؛ فلهذا نسب الفعل إليهم كلهم.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القمر:٢٩و٣٠]؛ وقال -تعالى-: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ ﴾ [الشمس:١٢و١٣]؛ أي: احذروها ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس:١٤-١٥].

عن عبد الله بن زمعة؛ قال: خطب رسول الله ﷺ ؛ فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها؛ فقال: « ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ [الشمس:١٢]: انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة»[1].

عارم؛ أي: شهم. عزيز؛ أي: رئيس. منيع؛ أي: مطاع في قومه.

عن عمار بن ياسر؛ قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «ألا أحدثك بأشقى الناس؟».

قال: بلى.

قال: «رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك ياعلي على هذا - يعني: قرنه - حتى تبتل منه هذه -يعني: لحيته-»[2].

---

(١) أخرجه أحمد(٤/ ١٧)، والبخاري(٤٩٤٢)، ومسلم(٢٨٥٥).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد(٤/ ٢٦٣)، وابن أبي حاتم في« التفسير» (١٠/ ٣٤٣٨/ ١٩٣٥٢)، والحاكم (٣/ ١٤٠).

وله شاهد من حديث علي عند أبي يعلى(٥٦٩)، والطبراني(١/ ١٠٦/ ١٧٣).

وآخر من حديث صهيب عند الطبراني(٨/ ٣٨/ ٧٣١١).

وهو صحيح بمجموع شواهده؛ كما في « الصحيحة »لشيخنا الإمام الألباني-رحمه الله- (١٧٤٣).

وقال -تعالى-: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف:٧٧]؛ فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم؛ فاستحقوه من وجهين:

أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود:٦٤]، وفي آية: ﴿ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٥٦]، وفي الأخرى﴿ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٧٣]، والكل حق.

والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علما جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

[هلاك ثمود ونزول عذاب الله بساحتهم]

قال الله -تعالى-: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود:٦٥].

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة؛ كان أول من سطا قدار بن سالف- لعنه الله-؛ فعرقبها؛ فسقطت إلى الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها؛ فلما عاين ذلك سقبها - وهو ولدها -؛ شرد عنهم، فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرات؛ فلهذا قال لهم صالح: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾؛ أي: غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد! بل لما أمسوا؛ هموا بقتله، وأرادوا - فيما يزعمون - أن يلحقوه بالناقة؛ ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ [النمل:٤٩]، أي: لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه، ثم نجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طلبنا أولياؤه بدمه؛ ولهذا قالوا: ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النمل:٤٩].

قال الله -تعالى-: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرًا وَمَكَرۡنَا مَكۡرًا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۞ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۞ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ ﴾ [النمل:٥٠-٥٣]: وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذي قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم.

وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوهم مصفرة؛ كما أنذرهم صالح-عليه السلام-، فلما أمسوا؛ نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل! ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل -وهو يوم الجمعة- ووجوهم محمرة، فلما أمسوا؛ نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل! ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع -وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة، فلما أمسوا؛ نادوا: ألا قد مضى الأجل!.

فلما كانت صبيحة يوم الأحد؛ تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب؟

فلما أشرقت الشمس؛ جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم؛ ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق؛ ﴿ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ جثثا لا أرواح فيها، ولا حراك بها[1].

قالوا : ولم يبق منهم أحد.

قال الله -تعالى-: ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ ﴾ [هود:٦٨]؛ أي: لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء. ﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴾ [هود:٦٨]؛ أي: نادى عليهم لسان القدر بهذا.

---

(١) ويدل على عمومه قوله تعالى: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ﴾ [هود:٦٥]؛ لأن التمتع هو البقاء على قيد الحياة لا اللهو والسرور.

[خبر أبي رغال]

عن جابر؛ قال: لما مر رسول الله ﷺ ؛ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات؛ فقد سألها قوم صالح؛ فكانت - يعني: الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم؛ فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً؛ فعقروها؛ فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم؛ إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» قالوا: من هو يا رسول الله ؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم؛ أصابه ما أصاب قومه»(١).

عن إسماعيل بن أمية: أن النبي ﷺ مَرَّ بقبر أبي رغال؛ فقال: «أتدرون من هذا» ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «هذا قبر أبي رغال، رجل من ثمود، كان في حرم الله؛ فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه؛ فدفن هاهنا، ودفن معه غصن من ذهب؛ فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم؛ فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن».

قال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف.

هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد جاء من وجه آخر متصلاً؛ كما ذكره محمد بن إسحاق في «السيرة» عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير، قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول:

---

(١) صحيح-أخرجه عبد الرزاق في «التفسير»(١/ ٢/ ٢٣١-٢٣٢)، وأحمد (٣/ ٢٩٦و٥/ ٥٥٥)، وابن جرير في «جامع البيان»(٨/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/ ١٥١٦/ ٨٦٨٥و٨٦٨٦)، والحاكم(٢/ ٣٢٠و٣٤٠-٣٤١) من طريق أبي الزبير به.

قلت: وقد صرح أبو الزبير بالتحديث عند الحاكم (٢/ ٥٦٧)، لكن لم يذكر فيه قصة أبي رغال.

ولها شاهد من حديث عبد الله بن عمرو: أخرجه أبو داود(٣٠٨٨)، والبيهقي(٤/ ١٥٦)، والمزي في «تهذيب الكمال»(٤/ ١١).

وإسناده ضعيف؛ لجهالة بجير بن أبي بجير؛ لكنه يعتبر به، وبذلك تثبت قصة أبي رغال.

وانظر -لزاماً-: كتابي «صحيح الأذكار وضعيفه»(١/ ٤٤٠/ ٤٨٥).

سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر؛ فقال: «إن هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان؛ فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، وإن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه»؛ فابتدره الناس؛ فاستخرجوا منه الغصن.

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي -رحمه الله-: هذا حديث حسن عزيز.

قلت: لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له، والله أعلم.

[هجرة صالح -عليه السلام- عن ديار العذاب]

وقوله -تعالى-: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩ ﴾ [الأعراف:٧٩]؛ إخبار عن صالح -عليه السلام- أنه خاطب قومه بعد هلاكهم، وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها؛ قائلاً لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف:٧٩]؛ أي: جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي.

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف:٧٩]؛ أي: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده؛ فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب علي من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال؛ وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل؛ فقال: « يا أهل القليب! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً »[1].

---

(١) أخرجه البخاري(٣٩٧٦)، ومسلم(٢٨٧٤) من حديث أنس- رضي الله عنه-.

ذكر مرور النبي ﷺ بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

عن ابن عمر؛ قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك؛ نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود؛ فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود؛ فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله؛ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا؛ فقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم؛ فلا تدخلوا عليهم»[1].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم؛ أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

وفي بعض الروايات: «أنه -عليه السلام- لما مر بمنازلهم؛ قنع رأسه؛ وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم؛ إلا أن يكونوا باكين».

وفي رواية: «فإن لم تبكوا؛ فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

عن محمد بن أبي كبشة الأنماري، عن أبيه -رضي الله عنه- قال: لما كان في غزوة تبوك؛ تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ؛ فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول: « ماتدخلون على قوم غضب الله عليهم »؛ فناداه رجل: نعجب منهم يا رسول الله؟ قال: « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما

(١)أخرجه أحمد(٢/ ٩،٥٨و٦٦و٧٢و٧٤و٩١و٩٦و١١٣و١١٧و١٣٧)، والبخاري (١٣٣)، ومسلم(٢٩٨٠و٢٩٨١).

كان قبلكم؛ فاستقيموا وسدودا؛ فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»[1].

(١) حسن- أخرجه أحمد(٤/ ٢٣١)، والطبراني في «الكبير»(٢٢/ ٣٤٠/ ٨٥١و٨٥٢) بإسناد حسن بشواهده.

وقد حسنه المصنف- رحمه الله-، والهيثمي في «مجمع الزوائد»(١٠/ ٢٩٣).

قصة إبراهيم الخليل -عليه السلام-

[مولده ونسبه وهجرته]

هو إبراهيم بن تارح، مولده بأرض الكلدانيين -وهي أرض بابل وما والاها- هذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر.

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين- وهي بلاد بيت المقدس- فأقاموا بحران- وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان، وكذلك أرض الجزيرة والشام- وكانوا يعبدون الكواكب السبعة.

والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين؛ يستقبلون القطب الشمالي، ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعياداً وقرابين.

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام. وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً؛ سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط -عليهم السلام-.

وكان الخليل -عليه السلام- هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال؛ فإن الله -سبحانه وتعالى- آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره.

قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١]؛ أي: كان أهلاً لذلك.

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟

كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت:١٦-٢٧].

[دعوة الخليل ﷺ لأبيه]

ثم ذكر -تعالى- مناظرته لأبيه وقومه؛ كما سنذكره إن شاء الله -تعالى-.

وكان أول دعوته لأبيه- وكان أبوه ممن يعبد الأصنام-؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم:٤١-٤٨].

فذكر -تعالى- ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة؛ بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه؛ فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ؟! ثم قال له منبها على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع، وإن كان أصغر سنا من أبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم:٤٣]؛ أي: مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك.

فلما عرض هذا الرشد عليه، وأهدى هذه النصيحة إليه؛ لم يقبلها منه، ولا أخذها عنه، بل تهدده وتوعده؛ قال: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾؛ قيل: بالمقال، وقيل: بالفعال. ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾؛ أي: واقطعني وأطل هجراني.

فعندها قال له إبراهيم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾؛ أي: لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيراً؛ فقال: ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾: قال ابن عباس وغيره: أي: لطيفاً؛ يعني: في أن هداني لعبادته والإخلاص له؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم:٤٨].

[تبرؤ الخليل ﷺ من أبيه عدو الله]

وقد استغفر له إبراهيم -عليه السلام- كما وعده في أدعيته، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة:١١٤].

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك! فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون؛ فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم

يقال: يا إبراهيم! ما تحت رجليك ؟ فينظر؛ فإذا هو بذيخ[١] متلطخ[٢]، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[٣].

[ذكر الخلاف في اسم أبي إبراهيم -عليه السلام-]

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام:٧٤]؛ هذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم آزر، وجمهور أهل النسب- منهم ابن عباس- على أن اسم أبيه تارح، وأهل الكتاب يقولون: تارخ بالخاء المعجمة؛ فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر.

وقال ابن جرير[٤]: والصواب: أن اسمه آزر[٥]، ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لقب والآخر علم. وهذا الذي قاله محتمل، والله أعلم.

[مناظرة الخليل لعباد الكواكب]

ثم قال- تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا

---

(١) ذكر الضباع ذو الشعر الكثيف.

(٢) متمرغ في النتن.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٣٥٠).

(٤) في «جامع البيان» (٧/ ١٥٩).

(٥) لقد صرح القرآن والسنة باسم أبي إبراهيم عليه السلام، فلماذا نترك ظاهرهما الصريح إلى غيره؟.

فما ذهب إليه شيخ المفسرين المحققين ابن جرير الطبري ومن وافقه هو الحق بلا مثنوية.

رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام:٧٥-٨٣].

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله -عز وجل-؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى؛ فتغيب عن هذا العالم، والرب -تعالى- لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب لذلك، قيل: هو الزهرة، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة[1] ضياء وسناء وبهاء، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت:٣٧].

ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ [الأنعام:٧٨]؛ أي: طالعة. ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

---

(١) هذا تقييد لطيف من الإمام ابن كثير -رحمه الله- يدل على أن هناك شموساً غير مرئية أشد ضياء من شمسنا... أكانوا يعرفون ذلك أم هو المنهج العلمي الرصين؟!.

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩].

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام:٨٠]؛ أي: لست أبالي هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله؛ فإنها لا تنفع شيئاً، ولا تسمع ولا تعقل، بل هي مربوبة مسخرة -كالكواكب ونحوها- أو مصنوعة منحوتة منجورة.

والظاهر: أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران؛ فإنهم كانوا يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً؛ كما ذكره ابن إسحاق وغيره، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها، ولا سيما إذا خالفت الحق.

[تكسير الأصنام ومناظرته عبادها]

وأما أهل بابل؛ فكانوا يعبدون الأصنام، وهم الذين ناظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم، وأهانها وبين بطلانها؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٥].

وقال في سورة الأنبياء [٥١-٧٠]: ﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ

هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

وقال في سورة الشعراء[٦٩-٨٣]: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

وقال في سورة الصافات [٨٣-٩٨]: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

يخبر الله -تعالى - عن إبراهيم خليله- عليه السلام-، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها؛ فقال: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾؛ أي: معتكفون عندها وخاضعون لها، قالوا: ﴿ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٣]؛ أي: ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء

والأجداد، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد، ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنبياء:٥٤].

كما قال -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات:٨٥-٨٧]؛ قال قتادة: فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟!

وقال لهم: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٤]؛ سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال؛ ولهذا قال لهم: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٧٥-٧٧].

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام؛ لأنه تبرأ منها وتنقص بها؛ فلو كانت تضر؛ لضرته، أو تؤثر؛ لأثرت فيه.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٥]؛ يقولون: هذا الكلام الذي تقوله لنا ، وتتنقص به آلهتنا، وتطعن بسببه في آبائنا؛ أتقوله محقاً جاداً فيه أم لاعباً؟!

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٦]؛ يعني: بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، ربكم ورب كل شيء، فاطر السماوات والأرض، الخالق لهما على غير مثال سبق؛ فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٧]: أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم.

وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام مرة إلى ظاهر البلد، فدعاه أبوه ليحضره؛ فقال: إني سقيم؛ كما قال -تعالى-: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٨-٨٩]: عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى

مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

فلما خرجوا إلى عيدهم، واستقر هو في بلدهم؛ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الصافات:٩١]؛ أي: ذهب إليها مسرعاً مستخفياً؛ فوجدها في بهو عظيم، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها؛ فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات:٩١-٩٣]؛ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدوم في يده؛ كما قال -تعالى-: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ [الأنبياء:٥٨]؛ أي: حطاماً، كسرها كلها. ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٨] قيل: إنه وضع القدوم في يد الكبير؛ إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار !

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم؛ ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٩].

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون، وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها؛ فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء:٥٩-٦٠]؛ أي: يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها؛ فهو المقيم عليها والكاسر لها. وعلى قول ابن مسعود؛ أي: يذكرها بقوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء:٥٧]. ﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ [الأنبياء:٦١]؛ أي: في الملأ الأكبر على رءوس الأشهاد؛ لعلهم يشهدون مقالته، ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه.

وكان هذا أكبر مقاصد الخليل -عليه السلام- أن يجتمع الناس كلهم؛ فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه؛ كما قال موسى -عليه السلام- لفرعون: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه:٥٩].

فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا؛ ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣]؛ قيل: معناه: هو الحامل لي على تكسيرها، وإنما عرض لهم في القول ﴿ فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٣]: وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق؛ فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات.

﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء:٦٤]؛ أي: فعادوا على أنفسهم بالملامة؛ فقالوا: إنكم أنتم الظالمون؛ أي: في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها.

﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ ﴾ [الأنبياء:٦٥]؛ أي: ثم رجعوا إلى الفتنة، فعلى هذا يكون قوله: ﴿ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنبياء:٦٤]؛ أي: في عبادتها.

وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء؛ أي: فأطرقوا، ثم قالوا: ﴿ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء:٦٥]؛ أي: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟!

فعند ذلك قال لهم الخليل- عليه السلام-: ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧].

كما قال: ﴿ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ۝ ﴾ [الصافات:٩٤]؛ قال مجاهد: يسرعون. ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝ ﴾ [الصافات:٩٥]؛ أي: كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون؟! ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝ ﴾ [الصافات:٩٦]: وسواء كانت: «ما» مصدرية أو بمعنى الذي؛ فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون، وهذه الأصنام مخلوقة؛ فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله؟! فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم، وهذا باطل؛ فالآخر باطل للتحكم؛ إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له.

[حادثة الإحراق ونجاة إبراهيم -عليه السلام- من النار]

﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات:٩٧-٩٨]: عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم؛ لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الرب -جل جلاله-، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه؛ كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٠].

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت؛ تنذر؛ لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم! ثم عمدوا إلى جوبة[1] عظيمة؛ فوضعوا فيها ذلك الحطب؛ وأطلقوا فيه النار؛ فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط.

ثم وضعوا إبراهيم -عليه السلام- في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد، وكان أول من صنع المجانيق.

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: لا إله إلا أنت، سبحانك، رب العالمين، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.

فلما وضع الخليل-عليه السلام- في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً، ثم ألقوه منه إلى النار؛ قال: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ كما روى البخاري[2] عن ابن عباس: أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ

---

(١) الساحة.

(٢) برقم (٤٥٦٣و٤٥٦٤).

سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤] الآية.

﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٦٩]؛ قال علي ابن أبي طالب: أي: لا تضريه.

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: ﴿ وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩]؛ لآذى إبراهيم بردها.

فأرادوا أن ينتصروا؛ فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا؛ فاتضعوا، وأرادوا أن يغلبوا؛ فغلبوا، قال الله -تعالى-: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴾ [الصافات:٩٨]؛ ففازوا بالخسارة والسفال؛ هذا في الدنيا، وأما في الآخرة؛ فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاماً، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هي كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان:٦٦].

عن أم شريك: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم»[١].

عن عائشة أخبرته: أن رسول الله ﷺ قال: «اقتلوا الوزغ؛ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم»[٢].

قال: فكانت عائشة تقتلهن.

عن نافع: أن امرأة دخلت على عائشة؛ فإذا رمح منصوب؛ فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول الله ﷺ: «أن إبراهيم لما ألقي في النار؛ جعلت الدواب كلها تطفئ عنه؛ إلا الوزغ؛ فإنه جعل ينفخها عليه»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم(٣٣٠٧و٣٣٥٩)، وأخرجه مسلم(٢٢٣٧)، والنسائي(٢٨٨٥)، وابن ماجه(٣٢٢٨).

(٢) في «المسند»(٦/ ٢٠٠).

(٣) في «المسند»(٦/ ٢٠٠).

عن سائبة مولاة الفاكه بن المغيرة؛ قالت: دخلت على عائشة؛ فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً، فقلت: يا أم المؤمنين! ما تصنعين بهذا الرمح ؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به؛ فإن رسول الله ﷺ حدثنا: «أن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفى عنه النار؛ غير الوزغ؛ كان ينفخ عليه»؛ فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله(١).

---

(١) صحيح لغيره- أخرجه أحمد (٦/ ٨٣و١٠٩)، وابن أبي شيبة (١٩٨٩١)، وابن ماجه (٣٢٣١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦/ ١٨٦)، وابن حبان (٥٦٣١) بإسناد ضعيف؛ لأن سائبة مجهولة؛ لكن للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة، وانظر- لزاماً-: «الصحيحة» (١٥٨١).

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الجليل في إزار العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله -تعالى-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

يذكر -تعالى- مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود : وكان أحد ملوك الدنيا؛ فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران؛ فالمؤمنان: ذو القرنين، وسليمان. والكافران: النمرود وبختنصر.

وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه ، وكان طغى وبغى، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا.

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع؛ فحاج إبراهيم الخليل في ذلك، وادعى لنفسه الربوبية.

فلما قال الخليل: ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ قال: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾؛ قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق: يعني: أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما؛ فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر؛ فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع في الحقيقة ؛ فإن الخليل

استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك، الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة؛ من خلقها وتسخيرها، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ثم إماتتها؛ ولهذا قال إبراهيم: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ فقول هذا الملك الجاهل: ﴿ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾: إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات؛ فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق؛ فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل؛ إذ لم يمنع مقدمة، ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم؛ ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهْره: ﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾؛ أي: هذه الشمس مسخرة، كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الله الذي لا إله إلا هو، خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت؛ فأت بهذه الشمس من المغرب؛ فإن الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء؛ فإن كنت كما تزعم؛ فافعل هذا، فإن لم تفعله؛ فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها؛ فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به، بل انقطع وسكت؛ ولهذا قال: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

ذكر هجرة الخليل - عليه السلام - إلى بلاد الشام
ودخوله الديار المصرية واستقراره بالأرض المقدسة

قال الله-تعالى-: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٦-٢٧].

وقال -تعالى-: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةًۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٧١-٧٣].

لما هجر قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم، وكانت امرأته عاقراً لا يولد لها، ولم يكن له من الولد أحد، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر، وهبه الله -تعالى - بعد ذلك الأولاد الصالحين، وجعل في ذريته النبوة والكتاب؛ فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده؛ فعلى أحد نسله وعقبه؛ خِلْعَة من الله وكرامة له، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه -عز وجل- ودعوة الخلق إليه.

والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام، وهي التي قال الله -عز وجل-: ﴿ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:٧١]؛ قاله أبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم.

والمشهور: أن سارة ابنة عمه هاران الذي تنسب إليه حران، ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط، كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش؛ فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم، ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذا ذاك مشروعاً؛ فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت -كما هو منقول عن الربانيين من اليهود -؛ فإن الأنبياء لا تتعاطاه. والله أعلم.

[قصة الجبار الذي أراد سارة زوجة الخليل بسوء وعصمة الله لها منه]

عن أبي هريرة قال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات[١]: اثنتان منهن في ذات الله؛ قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء:٦٣]. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة؛ فقيل له: إن هاهنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس؛ فأرسل إليه وسأله عنها؛ فقال: من هذه ؟ قال: أختي. فأتى سارة؛ فقال: يا سارة! ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني؛ فأخبرته أنك أختي؛ فلا تكذبيني! فأرسل إليها، فلما دخلت عليه؛ ذهب يتناولها بيده؛ فأُخِذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله؛ فأطلق، ثم تناولها الثانية؛ فأخذ مثلها أو أشد؛ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت؛ فأطلق. فدعا بعض حجبته؛ فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان! فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي؛ فأومأ بيده: مَهْيَمْ ؟ فقالت: رد الله كيد الكافر -أو الفاجر- في نحره، وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

تفرد به من هذا الوجه موقوفاً[٢].

وعنه، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ؛ قال: «إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات، كل ذلك في ذات الله؛ قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة؛ إذ نزل منزلاً، فأتي الجبار، فقيل له: إنه قد نزل ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها؛ فقال: إنها أختي؛ فلما

---

(١) هي من باب المعاريض، وذلك في حال خوف فطري وقع للخليل عليه السلام؛ فالضرورات تبيح المحضورات، والكذب إن كان قبيحاً مخلاً لكنه قد يحسن في مواضع، وهذا منها.

وإنما ذلك بالكذب؛ لكونه بصورته غير السامع، وفي حقيقته غير ذلك.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٨).

وأخرجه - أيضاً-(٢٢١٧)، ومسلم(٢١٧١) مرفوعاً.

رجع إليها؛ قال: إن هذا سألني عنك؛ فقلت: إنك أختي وإنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي في الدين؛ فلا تكذبيني عنده! فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها ؛ أخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك! فدعت له؛ فأرسل، فذهب يتناولها؛ فأخذ مثلها أو أشد منها؛ فقال: ادعي الله لي ولا أضرك؛ فدعت؛ فأرسل؛ ثلاث مرات، فدعا أدنى حشمه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكن أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فجاءت وإبراهيم قائم يصلي؛ فلما أحس بها؛ انصرف، فقال: مَهْيَمْ ؟ فقالت: كفى الله كيد الظالم وأخدمني هاجر.

وأخرجاه من [غير] [١] حديث هشام.

ثم قال البزار: لا نعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام، ورواه غيره موقوفاً[٢].

عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات؛ قوله حين دعي إلى آلهتهم؛ فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾، وقوله لسارة: إنها أختي ».

قال: «ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار: من هذه معك ؟ قال: أختي، قال: فأرسل بها، قال: فَأَرْسل بها إليه، وقال: لا تُكذّبي قولي؛ فإني قد أخبرته أنك أختي، إنه ما على الأرض مؤمن غيري وغيرك. فلما دخلت عليه قام؛ إليها، فأقبلت توضأ، وتصلي، وتقول: اللهم! إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي؛ فلا تسلط علي الكافر. قال: فغط حتى ركض برجله».

قال أبو الزناد: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة أنها قالت: اللهم! إن يمت، يقال: هي قتلته قال: فأُرسل. قال: « ثم قام إليها »، قال: فقامت

---

(١) زيادة يقتضيها السياق؛ فلم أجده في « الصحيحين »من رواية هشام، وانظر لزاماً «تحفة الأشراف » (١٠/ ٣٤٩-٣٥٩)، و «فتح الباري » (٦/ ٣٩١).

(٢) بل تابعه على الرفع أيوب عن محمد عن أبي هريرة، كما رواه البخاري (٥٠٨٤).

توضأ وتصلي وتقول: «اللهم! إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي؛ فلا تسلط علي الكافر». قال: «فغط حتى ركض برجله».

قال أبو الزناد: وقال أبو سلمة، عن أبي هريرة: أنها قالت: «اللهم! إن يمت؛ يقل: هي قتلته». قال: «فأرسل».

قال: فقال في الثالثة أو الرابعة: «ما أرسلتم إلي إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر».

قال: «فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافر وأخدم وليدة»؟!

تفرد به أحمد[1] من هذا الوجه، وهو على شرط الصحيح.

عن أبي سعيد؛ قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا ماحل[2] بها عن دين الله: فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:٨٩]، وقال: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء:٦٣]، وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي»[3].

فقوله في الحديث: «هي أختي»؛ أي: في دين الله؛ وقوله لها: «إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» ؛ يعني: زوجين مؤمنين غيري وغيرك، ويتعين حمله على هذا؛ لأن لوطاً كان معهم، وهو نبي- عليه السلام-.

وقوله لها لما رجعت إليه: «مهيم» ؟ معناه: ما الخبر؟ فقالت: « إن الله رد كيد الكافر- وفي رواية: الفاجر، وهو الملك-، وأخدم جارية».

وكان إبراهيم -عليه السلام- من وقت ذهب بها إلى الملك؛ قام يصلي لله -عز وجل- ويسأله أن يدفع عن أهله وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء،

---

(١) في «المسند» (٢/٤٠٣).

(٢) جادل وخاصم.

(٣) حسن لغيره- أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ؛ كما في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٢)، والترمذي (٥/٣٠٨-٣٠٩/٣١٤٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٠٤٠).

قلت: وسنده ضعيف؛ لأن علي بن زيد بن جدعان ضعيف، ولكن يشهد له حديث ابي هريرة المتقدم.

وهكذا فعلت هي أيضاً. فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً ؛ قامت إلى وضوئها وصلاتها، ودعت الله -عز وجل- بما تقدم من الدعاء العظيم؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:٤٥]؛ فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم -عليه السلام-.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة؛ سارة وأم موسى ومريم -عليهن السلام-[1].

والذي عليه الجمهور أنهن صديقات -رضي الله عنهن وأرضاهن-.

[رجوع الخليل -عليه السلام- إلى الأرض المقدسة]

ثم إن الخليل -عليه السلام- رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن- وهي الأرض المقدسة التي كان فيها- ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.

[هجرة لوط -عليه السلام- إلى غور الأردن]

ثم إن لوطاً -عليه السلام- نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور، والمعروف بغور زغر، فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً.

[بشارة الرب -تبارك وتعالى- لخليله إبراهيم -عليه السلام- بمحمد ﷺ وأمته]

وأوحى الله -تعالى- إلى إبراهيم الخليل، فأمر أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وستكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض.

---

(١) ولا يصح في ذلك شيء مرفوع.

وهذا البشارة اتصلت بهذه الأمة، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية، ويؤيد ذلك قول رسول اللهﷺ : «إن الله زوى لي الأرض؛ فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُويَ لي منها»[1].

---

(١) أخرجه مسلم(٢٨٨٩) من حديث ثوبان- رضي الله عنه-.

ذكر مولد إسماعيل - عليه السلام- من هاجر

قال أهل الكتاب[١]: إن إبراهيم -عليه السلام- سأل الله ذرية طيبة، وإن الله بشره بذلك، قالت سارة لإبراهيم -عليه السلام-: إن الرب قد أحرمني الولد؛ فادخل على أَمَتِي هذه؛ لعل الله يرزقك منها ولداً.

فلما وهبتها له؛ دخل بها إبراهيم -عليه السلام-، فحين دخل بها؛ حملت منه، ثم وضعت إسماعيل -عليه السلام-.

ولما ولد إسماعيل؛ أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة؛ فخر لله ساجداً، وقال له: قد استجبت لك في إسماعيل، وباركت عليه، وكثرته ونميته جداً كثيراً، ويولد له اثنا عشر عظيماً، وأجعله رئيساً لشعب عظيم.

وهذه- أيضاً- بشارة بهذه الأمة العظيمة، وهؤلاء الإثنا عشر عظيماً هم الخلفاء الراشدون الإثنا عشر، المبشر بهم في حديث جابر بن سمرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «يكون اثنا عشر أميراً». ثم قال كلمة لم أفهمها، فسألت أبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش». أخرجاه في «الصحيحين»[٢].

وفي رواية: «لا يزال هذا الأمر قائماً -وفي رواية: عزيزاً- حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش».

فهؤلاء؛ منهم الأئمة الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ومنهم عمر بن عبد العزيز -أيضاً-، ومنهم بعض بني العباس.

وليس المراد أنهم يكونوا اثني عشر نسقاً؛ بل لا بد من وجودهم.

وليس المراد الأئمة الإثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة، الذي أولهم علي بن أبي طالب، وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا - وهو محمد بن الحسن العسكري فيما يزعمون -؛ فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي، حين

---

(١) «العهد القديم» (سفر التكوين: الاصحاح ١٦).

(٢) البخاري(٧٢٢٢و٧٢٢٣)، ومسلم(١٨٢١).

ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية، وأخمد نار الفتنة وسكن رحى الحرب بين المسلمين، والباقون من جملة الرعايا، لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور.

وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا؛ فذاك هوس في الرؤوس، وهذيان في النفوس، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.

والمقصود : أن هاجر -عليها السلام -لما ولد لها إسماعيل؛ اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها، فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم.

ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً؛ فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما؛ قامت إليه هاجر، وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتدعنا هاهنا وليس معنا ما يكفينا ؟ فلم يجبها. فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها؛ قالت له: آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم. قالت: فإذن؛ لا يضيعنا!

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران - وهي أرض مكة - وبنائه البيت العتيق

قال البخاري[(١)]:عن ابن عباس؛ قال: أول ما اتخذ النساء المنطق[(٢)] من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة[(٣)]، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن؛ لا يضيعنا. ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه؛ استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه؛ فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء؛ عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى -أو قال يتلبط-، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت بطن الوادي؛ رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان

---

(١) في «صحيحه» (٣٣٦٤و٣٣٦٥).

(٢) هو ما يشد به الوسط.

(٣) تمحوه وتخفيه؛ فلا تتبعها.

الجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما»؛ فلما أشرفت على المروة؛ سمعت صوتاً، فقالت: صه، -تريد نفسها-، ثم تسمعت، فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث[١] بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه[٢] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « يرحم الله أم إسماعيل ! لو تركت زمزم -أو قال: لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عيناً مَعِيناً » قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة؛ فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول؛ فتأخذ عن يمينه وعن شماله.

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم- أو أهل بيت من جرهم- مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء! فأرسلوا جرياً أو جريين[٣]؛ فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت: نعم، ولكن لاحق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال عبد الله بن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس».

---

(١) ضرب الأرض.

(٢) تجعله مثل الحوض.

(٣) هو الرسول أو الأجير.

فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم. وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم[1] وأعجبهم حين شب، فلما أدرك؛ زوجوه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه؛ فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم؛ فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدّة، وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك؛ فاقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه. فلماء جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد ؟ فقالت: نعم؛ جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: هل أوصاك بشيء ؟ قالت: نعم؛ أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك! قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك؛ فالحقي بأهلك! فطلقها؛ وتزوج منهم أخرى.

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم ؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم ؟ قالت: الماء. قال: « اللهم بارك لهم في اللحم والماء». قال النبيﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب؛ ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه»، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك؛ فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل؛ قال: هل أتاكم من أحد ؟ قالت: نعم؛ أتانا شيخ حسن الهيئة، -وأثنت عليه-، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء ؟ قالت: نعم؛ هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

---

(١) رغبهم في مصاهرته؛ لنفاسته عندهم.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه؛ قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل! إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك به ربك! قال: وتعينني ؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن ابني هاهنا بيتاً- وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء؛ جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [البقرة:١٢٧]. قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

وهذا الحديث من كلام ابن عباس، وموشح برفع بعضه، وفي بعضه غرابة، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات، وفيه أن إسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك.

ولم يذكر في قدمات إبراهيم -عليه السلام- إلا ثلاث مرات؛ أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر، وكيف تركهم من حين صغر الولد - على ما ذكر - إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم؟ وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له، وقيل: إنه كان يركب البراق إذا سار إليهم؛ فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة ؟!

وكأن بعض هذا السياق متلقى من الإسرائيليات، ومطرز بشيء من المرفوعات، ولم يذكر فيه قصة الذبيح، وقد دللنا على أن الذبيح هو إسماعيل على الصحيح في سورة الصافات[1].

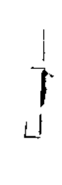
---

(١) ذكر المصنف - رحمه الله- أن هذا السياق من الإسرائيليات، وليس كذلك - عندي- للوجوه الآتية:

١- أن السياق ذكر تعليلاً للمرفوعات؛ كقوله: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

٢- أن السياق في بيان أسباب ورود بعض الآيات والحديث، وهذا من الحديث المسند المرفوع.

٣- الثابت عن ابن عباس - رضي الله عنهما- عدم أخذه من أهل الكتاب.



قصة الذبيح

قال الله -تعالى-: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات:٩٩-١١٣].

يذكر -تعالى- عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه؛ سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا، فبشره الله-تعالى- بغلام حليم، وهو إسماعيل -عليه السلام-؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل؛ لأنه أول ولده وبكره.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾؛ أي: شب وصار يسعى في مصالحه؛ كأبيه. قال مجاهد: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾؛ أي: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل. فلما كان هذا؛ رأى إبراهيم- عليه السلام- في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا، وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعا: «رؤيا الأنبياء وحي»[١].

---

(١) حسن- أخرجه أحمد بن منيع في «مسنده»؛ كما في «المطالب العالية» (٣١٢٩)، والطبري في «جامع البيان» (١٢/ ٩٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٦٣) والطبراني في «الكبير» (١٢٣٠٢)، والحاكم (٢/ ٤٣١و٤/ ٣٩٦) بسند حسن.

قاله عبيد بن عمير- أيضاً-[1].

وهذا اختبار من الله -عز وجل- لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر، وواد ليس به حسيس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع، فامتثل أمر الله في ذلك، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً، ورزقهما من حيث لا يحتسبان، ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمر ربه، وهو بكره ووحيده الذي ليس له غيره؛ أجاب ربه وامتثل أمره، وسارع إلى طاعته.

ثم عرض ذلك على ولده؛ ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً: ﴿ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾.

فبادر الغلام الحليم، سر والده الخليل إبراهيم، فقال: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾،وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾؛ قيل:﴿أسلما ﴾؛أي: استسلما لأمر الله وعزما على ذلك.

فعند ذلك نودي من الله -عز وجل-: ﴿ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾؛ أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلك ولدك للقربان، كما سمحت ببدنك للنيران، وكما مالك مبذول للضيفان؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾؛ أي: الاختبار الظاهر البين.

= وعزاه الحافظ في «فتح الباري» (١/ ٢٨٩) لمسلم وهو وهم، وانظر -لزاماً- تعليق شيخنا على «السنة».

(١) كما في البخاري (١٣٨).

وقوله: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾؛ أي: وجعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله -تعالى- له من العوض عنه.

والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن، رآه مربوطاً بسمرة في ثبير.

فأما ما روي عن ابن عباس أنه كان وعلاً! وعن الحسن أنه كان تيساً من الأروى ، واسمه جرير؛ فلا يكاد يصح عنهما.

ثم غالب ما هاهنا من الآثار مأخوذ من الإسرائيليات! وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم، والاختبار الباهر، وأنه فدي بذبح عظيم.

وقد ورد في الحديث[1] أنه كان كبشاً عن صفية بنت شيبة؛ قالت: أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا؛ قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة. وقالت مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ؟ قال: قال لي رسول الله: « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما؛ فخمرهما؛ فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي ».

قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا.

وكذا روي عن ابن عباس: أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس.

[الأدلة التي تثبت أن إسماعيل هو الذبيح]

وهذا وحده دليل على أن الذبيح إسماعيل؛ لأنه كان هو المقيم بمكة، وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره، والله أعلم.

وهذا هو الظاهر من القرآن؛ بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ

---

(١) في «المسند» (٤/ ٦٨و٥/ ٣٨٠) وسنده صحيح.

ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات:١١٢]، ومن جعله حالا؛ فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف، ولا سيما هاهنا قطعا لا محيد عنه؛ فإن عندهم[1] أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيده- وفي نسخة من المعربة: بكره- إسحاق؛ فلفظة (إسحاق) هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة؛ لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل، وإنما حملهم على هذا حسد العرب؛ فإن إسماعيل أبو العرب الذي يسكنون الحجاز، الذين منهم رسول اللهﷺ ، وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسبون إليه، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بهت، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم بل المنطوق بل النص- عند التأمل- على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١]؛ قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ؟!

هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة، والله أعلم.

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله: أن قوله: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ ﴾: جملة تامة، وقوله: ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾: جملة أخرى ليست في حيز البشارة؛ قال: لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر؛ فلا يجوز أن يقال: مررت بزيد ومن بعده عمرو، حتى يقال: ومن بعده بعمرو. وقال: فقوله: ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾: منصوب بفعل مضمر تقديره: ووهبنا لإسحاق يعقوب! وفي هذا الذي

---

(١) أهل الكتاب وهو في « العهد القديم » (سفر التكوين: الاصحاح ٢٢).

قاله نظر. ورجح أنه إسحاق، واحتج بقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾ [الصافات:١٠٢] قال: وإسماعيل لم يكن عنده، وإنما كان في حال صغره وهو وأمه بجبال مكة؛ فكيف يبلغ معه السعي؟ وهذا أيضاً فيه نظر؛ لأنه قد روي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة؛ يطلع على ولده وابنه ثم يرجع، والله -تعالى- أعلم.

فممن حكى القول عنه بأنه إسحاق: كعب الأحبار، وروى عن عمر والعباس وعلي وابن مسعود ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمير، وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم وابن أبي بردة ومكحول، وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبي الهذيل وابن سابط، وهو اختيار ابن جرير، وهذا عجب منه وهو أحدى الروايتين عن ابن عباس.

ولكن الصحيح عنه - وعن أكثر هؤلاء - أنه إسماعيل - عليه السلام- قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس: هو إسماعيل -عليه السلام-.

وقال ابن جرير[1]: عن ابن عباس: أنه قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه: هو إسماعيل.

وقال ابن أبي حاتم[2]: سألت أبي عن الذبيح؟ فقال: الصحيح أنه إسماعيل- عليه السلام-.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح هو إسماعيل- عليه السلام-. وحكاه البغوي أيضاً عن الربيع عن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء.

---

(١) في «جامع البيان»(١٠/ ٥١٣).

(٢) في « التفسير »(١٠/ ٣٢٢٣/ ١٨٢٣٨).

قلت: وروي عن معاوية، وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحاق بن يسار، وكان الحسن البصري يقول: لا شك في هذا.

عن محمد ابن كعب: أنه حدثهم: أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام - يعني: استدلاله بقوله بعد العصمة: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١]-؛ فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت.

ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين! وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به؛ فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم.

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا «التفسير»[١]، ولله الحمد والمنة[٢].

---

(١) (٧/ ٣٦-وما بعدها).

(٢) وممن حقق المسألة تحقيقاً علمياً عَزّ نظيره الإمام ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (١/ ٧١-٧٥).

وقد جمعت خلاصة أقوال أهل العلم في هذه المسألة في كتابي الكبير في السيرة النبوية المسمى: «الصحيح المستصفى من سيرة النبي المصطفى».

ذكر مولد إسحاق -عليه السلام-

قال الله -تعالى-: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ۝ ﴾ [الصافات:١١٢-١١٣].

وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط؛ ليدمروا عليهم؛ لكفرهم وفجورهم؛ كما سيأتي بيانه في موضعه -إن شاء الله تعالى-.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝ ﴾ [هود:٦٩-٧٣].

وقال-تعالى-: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝ ﴾ [الحجر:٥١-٥٦].

وقال-تعالى-: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝ ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠]

يذكر -تعالى-: أن الملائكة لما وردوا على الخليل؛ حسبهم أولا أضيافاً، فعاملهم معاملة الضيوف، وشوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره، فلما قربه إليهم وعرض عليهم؛ لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام، فنكر منهم أمرهم: ﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود:٧٠]؛ أي: لندمر عليهم، فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف، كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم، فلما ضحكت استبشاراً بذلك؛ قال الله -تعالى-: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١]؛ أي: بشرتها الملائكة بذلك ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات:٢٩]؛ أي: في صرخة: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ [الذاريات:٢٩]؛ أي: كما يفعل النساء عند التعجب، وقالت: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ [هود:٧٢]؛ أي: كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضا، وهذا بعلي؛ أي: زوجي، ﴿ شَيْخًا ﴾؟! تعجبت من وجود ولد والحالة هذه؛ ولهذا قالت: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود:٧٢-٧٣].

وكذلك تعجب إبراهيم -عليه السلام- استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً بها ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الحجر:٥٤-٥٥]: أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه.

فبشروهما ﴿ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾، وهو إسحاق، وأخوه إسماعيل، غلام حليم مناسب لمقامه وصبره، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر.

وقال في الآية الأخرى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١].

وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل، وأن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده.

فقوله -تعالى-: ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود:٧١]؛ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق، ثم من بعده يولد ولده يعقوب؛ أي: يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بوالده، ولو لم يرد هذا؛ لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عين بالذكر؛ دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سُرّا بمولد أبيه من قبله.

وقال -تعالى-: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ ﴾ [الأنعام:٨٤].

وقال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [مريم:٤٩].

وهذا -إن شاء الله- ظاهر قوي، ويؤيده ما ثبت في «الصحيحين»[١] من حديث: عن أبي ذر؛ قال: قلت: يا رسول الله! أي: مسجد وضع أول ؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما ؟ قال: «أربعون سنة»، قلت: ثم أي ؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة؛ فصل؛ فكلها مسجد».

وعند أهل الكتاب[٢]: أن يعقوب- عليه السلام- هو الذي أسس المسجد الأقصى، وهو مسجد إيليا ببيت المقدس شرفه الله.

وهذا متجه، ويشهد له ما ذكرناه من الحديث؛ فعلى هذا يكون بناء يعقوب- وهو إسرائيل -عليه السلام- بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق؛ لأن إبراهيم -عليه السلام - لما دعا؛ قال في دعائه؛ كما قال- تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).

(٢) (سفر التكوين: الاصحاح ٢٨و٣٥)، وانظر -لزاماً- «زاد المعاد»(١/ ٤٩).

رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٤١].

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود -عليهما السلام- لما بنى بيت المقدس؛ سأل الله خلالا ثلاثا؛ كما ذكرناه[١] عند قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ﴾ [ص:٣٥]، وكما سنورده في قصته[٢]؛ فالمراد من ذلك -والله أعلم-، أنه جدد بناءه لما تقدم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحد: إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة؛ سوى ابن حبان في «تقاسيمه وأنواعه»[٣]، وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه، والله -تعالى- أعلم بالصواب.

---

(١) في «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٤).

(٢) سيأتي -إن شاء الله- (ص ٤١٣).

(٣) (١٤/ ١٢٠-إحسان).

ذكر بناية البيت العتيق

قال الله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج:٢٦-٢٧].

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤-١٢٩].

يذكر- تعالى- عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم -عليه أفضل صلاة وتسليم- أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه؛ أي: أرشده إليه ودله عليه.

وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره: أنه أُرْشِدَ إليه بوحي من الله -عز وجل-.

وقد ذكرنا[1] في صفة خلق السماوات: أن الكعبة بحيال البيت المعمور؛ بحيث إنه لو سقط لسقط عليها؛ وكذلك معابد السماوات السبع؛ كما قال بعض السلف: إن في كل سماء بيتاً يعبُد اللهَ فيه أهلُ كلِّ سماء، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض.

فأمر الله -تعالى- إبراهيم -عليه السلام- أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السماوات، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السماوات والأرض؛ كما ثبت في «الصحيحين»[2]: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض؛ فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل- عليه السلام-، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [الحج:٢٦]؛ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدره، المعظم عند الأنبياء موضعُهُ، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقد قال الله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران:٩٦]؛ أي: أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيتُ الذي ببكة؛ وقيل مكة، وقيل: محل الكعبة. ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٩٧]؛ أي: على أنه بناء الخليل؛ والد الأنبياء من بعده، وإمام الحنفاء من ولده؛ الذين يقتدون به، ويتمسكون بسنته؛ ولهذا قال: ﴿ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران:٩٧]؛ أي: الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع عن قامته، فوضع

---

(١) في «البداية والنهاية» (١/ ٧٦).

(٢) أخرجه البخاري(١٨٣٤)، ومسلم(١٣٥٣) من حديث عبد الله بن عباس- رضي الله عنهما-.

له ولده هذا الحجر المشهور؛ ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء؛ كما ذكر في حديث ابن عباس الطويل[(١)]، وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، فأخره عن البيت قليلاً؛ لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت، واتبع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في هذا؛ فإنه قد وافقه ربه في أشياء، منها: قوله لرسوله ﷺ: لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؛ فأنزل الله: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة:١٢٥][(٢)].

وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام، وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراق لبرٍّ في حِراء ونازل

وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذ اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

يعني: أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة ؛ فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾ [البقرة:١٢٧]؛ أي: في حال قولهما: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧]؛ فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله -عز وجل-، وهما يسألان من الله -عز وجل- السميع العليم أن «يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً

---

(١) تقدم (ص ١٢٦).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٤٠٢).

مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٨].

والمقصود: أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في واد غير ذي زرع.

ودعا لأهلها بالبركة، وأن يُرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً.

فاستجاب الله - وله الحمد - له مسألته، ولبى دعوته؛ وآتاه طلبته؛ فقال -تعالى-: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وقال -تعالى-: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص:٥٧]، وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم؛ أي: من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة؛ لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية؛ سعادة الأولى والآخرة.

وقد استجاب الله له؛ فبعث فيهم رسولاً- وأيَّ رسول؟!- ختم به أنبياءه ورسله، وأكمل له من الدين مالم يؤت أحداً قبله، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، في سائر الأقصار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء؛ لشرفه في نفسه، وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته، وفصاحة لغته، وكمال شفقته على أمته، ولطفه ورحمته، وكريم محتده وعظيم مولده، وطيب مصدره ومورده.

ولهذا استحق إبراهيم الخليل -عليه السلام- إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض، أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السماوات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إلى يوم البعث والنشور.

وقد ذكرنا في «التفسير»[1] من سورة البقرة صفة بنائه للبيت، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية؛ فمن أراد؛فليراجعه؛ ثمّ، ولله الحمد.

وقد كانت الكعبة على بناء الخليل مدة طويلة، ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم »؟ فقلت: يا رسول الله! ألا تردها على قواعد إبراهيم . فقال: «لولا حدثان قومك بالكفر؛ لفعلت».

وفي رواية: « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال بكفر -؛ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحِجر»[2].

وقد بناها ابن الزبير -رضي الله عنه-في أيامه على ما أشار إليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين عنه، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين؛ كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه، فأمر بردها إلى ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامي، وأخرجوا منها الحِجْر، ثم سدّوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية؛ كما هو مشاهد إلى اليوم.

ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين؛ ندموا على ما فعلوا، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك.

ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور؛ استشار الإمام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير؛ فقال له: إني أخشى أن يتخذها الملوك

---

(١) (١/ ٢٤٧-وما بعدها).

(٢) أخرجه البخاري(١٥٨٣-١٥٨٦)، ومسلم(١٣٣٣).

لعبة؛ يعني : كلما جاء ملك؛ بناها على الصفة التي يريد، فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم[١].

(١) انظر -لزاماً-: «فتح الباري»(٣/ ٤٤٨)، و«السلسلة الصحيحة»(٤٣).

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم
على عبده وخليله إبراهيم

قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة:١٢٤]: لما وفَّى ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة؛ جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه وخالدة في عقبه؛ فأجيب إلى ما سأل ورام، وسلمت إليه الإمامة بزمام، واستُثني من نيلها الظالمون، واختُص بها من ذريته العلماء العاملون؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقال -تعالى-: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧]؛ فالضمير في قوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ [الأنعام:٨٤]: عائد إلى إبراهيم على المشهور، ولوط؛ وإن كان ابن أخيه؛ إلا أنه دخل في الذرية تغليباً، وهذا هو الحامل للقائل الآخر: إن الضمير عائد على نوح؛ كما قدمنا في قصته، والله أعلم.

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحديد:٢٦] الآية.

فكل كتاب أُنزِل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل؛ فمن ذريته وشيعته، وهذه خِلْعَة سَنية لا تضاهي، ومرتبه عَلِيَّه لا تباهي، وذلك أنه ولد

له لصلبه وَلَدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، وولد له يعقوب ، وهو إسرائيل الذي يُنسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة، وكثروا جداً بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل -عليه السلام-؛ فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها؛ ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكي ثم المدني -صلوات الله وسلامه عليه-.

فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة.

وقد ثبت عنه في «صحيح مسلم»[1] أنه قال: «سأقوم مقاماً يرغبُ إليّ الخلقُ كلُّهم حتى إبراهيم»؛ فمدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق، ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاّق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق.

عن ابن عباس؛ قال: كان رسول الله ﷺ يعوّذ الحسن والحسين، ويقول: «إن أباكما كان يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كلّ شيطان وهامة، ومن كلّ عين لامة».

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ

(١) برقم(٨٢٠) من حديث أبي بن كعب- رضي الله عنه-.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٠]؛ ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في «التفسير»[١]، وقررناها بأتم تقرير.

والحاصل: أن الله -عز وجل- أجابه إلى ما سأل، فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور- واختلفوا في تعيينها على أقوال، والمقصود حاصل على كل تقدير- فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن، ويخلط ذلك بعضه في بعض، ثم يقسمه قسماً، ويجعل على كل جبل منهم جزءاً، ففعل ما أمر به، ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن، فلما دعاهن؛ جعل كل عضو يطير إلى صاحبه، وكل ريشة تأتي إلى أختها، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه، وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء: كن؛ فيكون، فأتين إليه سعياً؛ ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً. ويقال: إنه أمر أن يأخذ رءوسهن في يده، فجعل كل طائر يأتي فيلقى رأسه فتركب على جثته كما كان؛ فلا إله إلا الله.

وقد كان إبراهيم- عليه السلام- يعلم قدرة الله -تعالى- على إحياء الموتى علماً يقيناً لا يحتمل النقيض، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً، ويترقي من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله.

وقال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران:٦٥-٦٨]؛ ينكر -تعالى- على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين، كون الخليل على ملتهم وطريقتهم، فبرّأه الله منهم، وبيّن كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله: ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾؛ أي:

---

(١) (١/ ٣٢٢-٣٢٣).

فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ؟ ولهذا قال: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، إلى أن قال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾؛ فبين أنه كان على دين الله الحنيف، وهو القصد إلى الإخلاص، والإنحراف عمداً عن الباطل إلى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية.

كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة:١٣٠-١٤١]؛ فنزه الله -عز وجل- خليله -عليه السلام- عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً، وبين أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عمران:٦٨]؛ يعني: الذين كانوا على ملته من أتباعه في زمانه، ومن تمسك بدينه من بعدهم: ﴿ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [آل عمران:٦٨]؛ يعني: محمداً ﷺ؛ فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل، وكمله الله -تعالى- له، وأعطاه ما لم يعط نبياً ولا رسولاً من قبله؛ كما قال -تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام:١٦١-١٦٣].

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٣].

وقال البخاري[(١)]:عن ابن عباس : أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت؛ لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام؛ فقال: «قاتلهم الله! والله؛ إن استقسما بالأزلام قط».

وفي بعض ألفاظ البخاري[(٢)]: « قاتلهم الله! لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط».

وقوله: ﴿ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠]؛ أي: قدوة، إماماً، مهتدياً، داعياً إلى الخير، يقتدى به فيه. ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾ [النحل:١٢٠]؛ أي: خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته. ﴿ حَنِيفًا ﴾ [النحل:١٢٠]؛ أي: مخلصاً على بصيرة. ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١]؛ أي: قائماً بشكر ربه بجميع

---

(١) في «صحيحه» برقم (٣٣٥٢).

(٢) برقم (١٦٠١و٤٢٨٨)، وليس عنده لفظ: «شيخنا».

جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله. ﴿ ٱجۡتَبَىٰهُ ﴾ [النحل:١٢١]؛ أي: اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته، واتخذه خليلاً، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة.

وقال -تعالى-: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ [النساء:١٢٥]: يرغب -تعالى- في اتباع إبراهيم -عليه السلام-؛ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم، وقد قام بجميع ما أمره به ربه، ومدحه -تعالى- بذلك؛ فقال: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم:٣٧]؛ ولهذا اتخذه الله خليلاً، والخلة هي غاية المحبة؛ كما قال بعضهم[١]:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلاً

وهكذا نال هذه المنزلة[٢] خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد -صلوات الله وسلامه عليه-؛ كما ثبت في «الصحيحين»[٣] وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس! إن الله اتخذني خليلاً؛ كما اتخذ إبراهيم خليلاً».

وقال -أيضاً- في آخر خطبة خطبها: «أيها الناس! لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله»[٤].

---

(١) منسوب إلى النظار الفقعسي. انظر «الدر الفريد» لابن أيدمر (٤/ ٣٠٠).

(٢) في نسخة: «المرتبة».

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه»(٥٣٢) من حديث جندب البجلي -رضي الله عنه-، وأخرجه ابن ماجه (١٤١) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-، وأخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٤) أخرجه البخاري(٣٦٥٤)، ومسلم(١٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه- ولكن ليس عندهما فيه: « ولكن صاحبكم خليل الله».

أخرجاه من حديث أبي سعيد.

وثبت -أيضاً- من حديث عبد الله بن الزبير[١] وابن عباس[٢] وابن مسعود[٣].

وروى البخاري في «صحيحه»[٤]: عن عمرو بن ميمون؛ قال: إن معاذاً لما قدم اليمن؛ صلى بهم الصبح، فقرأ: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥]، فقال رجل من القوم: لقد قرَّت عين أم إبراهيم!

وقد ذكره الله -تعالى- في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له، فقيل: إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً[٥]، منها خمسة عشر في البقرة وحدها.

وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى، وهما: قوله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧ ﴾ [الأحزاب:٧]، وقوله: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] الآية.

ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ.

وهو الذي وجده -عليه السلام- في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٦و٣٦٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

(٤) برقم (٤٣٤٨).

(٥) بل في تسع وستين موضعاً؛ كما في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن».

(٦) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٢).

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر عن أنس في حديث الإسراء من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة! فمما انتقد على شريك في هذا الحديث[١]. والصحيح الأول[٢].

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذي قال فيه: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم». رواه مسلم من حديث أبي بن كعب -رضي الله عنه-[٣].

وهذا هو المقام المحمود الذي أخبر عنه -صلوات الله وسلامه- عليه بقوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، ثم ذكر استشفاع الناس بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى؛ فكلهم يحيد عنها، حتى يأتوا محمداً ﷺ، فيقول: «أنا لها، أنا لها» الحديث بتمامه[٤].

عن أبي هريرة؛ قال: قيل: يا رسول الله! من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم أتقاهم»؛ فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «أفعن معادن العرب تسألونني ؟»، قالوا: نعم، قال: « فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ».

وقال البخاري[٥]:عن ابن عمر، عن النبي ﷺ؛ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٦]:عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «يحشر الناس عراة غرلاً؛ فأول من يكسى إبراهيم -عليه السلام-» ثم قرأ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء:١٠٤]؛ فأخرجاه في «الصحيحين».

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢).

(٢) وانظر -لزاماً-: «صحيح الإسراء والمعراج» لشيخنا الإمام الألباني -رحمه الله- (ص ٣١-وما بعدها).

(٣) مضى تخريجه (ص ١٤٨).

(٤) جزء من حديث أبي بن كعب -رضي الله عنه- في الشفاعة وقد مضى تخريجه (ص ١٤٨).

(٥) في «صحيحه» برقم (٣٣٨٢و٣٣٩٠).

(٦) في «المسند»(١/ ٢٢٣و٢٢٩)، والبخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

وأما الحديث الآخر الذي قال الإمام أحمد[١]:عن أنس بن مالك؛ قال: قال رجل للنبي: يا خير البرية! فقال: «ذاك إبراهيم»؛ فقد رواه مسلم[٢].

وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل -عليه السلام-؛ كما قال: «لا تفضلوني على الأنبياء»، وقال: «لا تفضلوني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش؛ فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟»[٣]

وهكذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه -صلوات الله وسلامه عليه- من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة، وكذلك حديث أبي بن كعب في «صحيح مسلم»: «وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى إبراهيم»[٤].

ولما كان إبراهيم- عليه السلام- أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-؛ أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في «الصحيحين»[٥] من حديث كعب بن عجرة وغيره؛ قال: قلنا: يا رسول الله! هذا السلام عليك قد عرفناه؛ فكيف الصلاة عليك ؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد».

وقال الله -تعالى-: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النجم:٣٧]؛ قالوا: وفى جميع ما أمر به، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر

---

(١) في «المسند» (٣/ ١٧٨و١٨٤).

(٢) برقم (٢٣٦٩).

(٣) سيأتي تخريجه (ص ٣٦٦).

(٤) مضى (ص ١٤٨).

(٥) أخرجه البخاري(٣٣٧٠)، ومسلم(٤٠٦).

الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار[١].

عن ابن عباس في قوله -تعالى-: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٢٤]؛ قال: ابتلاه الله بالطهارة؛ خمس في الرأس، وخمس في الجسد:

في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، وفرق الرأس.

وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء[٢].

قلت: وفي «الصحيحين»[٣] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان، والإستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط».

والمقصود: أنه -عليه الصلاة والسلام- كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله -عز وجل- وخضوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين، وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ.

فهذا من جملة قوله -تعالى- في حقه من المدح العظيم: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ ﴾ [النجم:٣٧].

---

(١) هذا الكلام المتين يدحض فرية كثير من الحركيين والحزبيين الذي قسموا الدين إلى قشر ولباب، فهاهم خيرة الخلق وصفوة العباد - صلى الله عليهم وسلم- لم تشغلهم المسائل الكبار عن الصغار وانظر -غير مأمور- كتابي: «دلائل الصواب في إبطال بدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب»؛ ففيه تفصيل وتأصيل.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير»(١/ ١/ ٥٧)، وابن جرير في «جامع البيان» (١/ ٥٧٢)، وابن أبي حاتم في «التفسير»(١/ ٢١٩/ ١١٦٥)، والحاكم(٢/ ٢٦٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري(٥٨٨٩)، ومسلم(٢٥٧).

ذكر صفة إبراهيم -عليه السلام-

قال الإمام أحمد[١]:عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عرض عليّ الأنبياء؛ فإذا موسى ضرب من الرجال؛ كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم؛ فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم -عليه السلام-؛ فإذا أقرب من رأيت به شبهاً صاحبكم -يعني: نفسه ﷺ-، ورأيت جبريل -عليه السلام-؛ فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية».

وقال أحمد[٢]:عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم: فأما عيسى؛ فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى؛ فآدم جسيم». قالوا له: فإبراهيم؟ قال: «انظروا إلى صاحبكم-يعني: نفسه-».

أول من ولد له:

إسماعيل، من هاجر القبطية المصرية.

ثم ولد له إسحاق من سارة بنت عم الخليل.

ثم تزوج بعدها قنطورا بنت يقطن الكنعانية؛ فولدت له ستة:

مديان.

وزمران.

وشوحا.

ويقشان.

---

(١) في «المسند» (٣/ ٣٣٤).

قلت: وأخرجه مسلم (١٦٧).

(٢) في «المسند» (١/ ٢٤٥و٢٥٩و٢٧٧و٢٩٦).

قلت: وأخرجه -أيضاً- البخاري(٣٣٥٥)، ومسلم(١٦٦)؛ كما أشار المصنف-رحمه الله-.

ويشباق.

ولم يسم السادس[١].

ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين؛ فولدت له خمسة:

كيسان.

وسورج.

وأميم.

ولوطان.

ونافس.

هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه «التعريف والإعلام»[٢].

---

(١) اسمه: «مدان».

(٢) (ص ١٣٩-١٤٠).

قصة لوط -عليه السلام-

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة: قصة قوم لوط -عليه السلام-، وما حلّ بهم من النقمة العميمة.

[نسبه عليه الصلاة والسلام]

وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح - وهو آزر - ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل، فإبراهيم وهاران وناحور أخوة.

[قومه الذين أرسل إليهم]

وكان لوط قد نزح عن مَحَلَة عمه الخليل -عليهما السلام- بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، وكانت أمَّ تلك المحلّة، ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية، وأردأهم سريرة وسيرة؛ يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط إلى عبادة الله -تعالى- وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات، والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات؛ فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم، وجعلهم مُثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين.

[قصة لوط في القرآن الكريم]

ولهذا ذكر الله -تعالى- قصتهم في غير ما موضع في كتابه المبين:

فقال -تعالى- في سورة الأعراف [٨٠-٨٤]: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

وقال -تعالى- في سورة هود [٦٩-٨٣]: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الحجر [٥١-٧٧]: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الشعراء[١٦٠-١٧٥]: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ

﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة النمل [٥٤-٥٨]: وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة العنكبوت [٢٨-٣٥]: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الصافات [١٣٣-١٣٨]: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الذاريات [٣١-٣٧] بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟

إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وقال في سورة القمر [٣٣-٤٠]: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور في «التفسير».

وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع أخر من القرآن، تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود.

والمقصود: الآن إيراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم، مجموعاً من الآيات والآثار، وبالله المستعان.

وذلك أن لوطاً -عليه السلام- لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش؛ لم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نُهوا، بل استمروا على حالهم، ولم يرعووا [1] عن غيهم وضلالهم، وهمّوا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم -إذ كانوا لا يعقلون- إلا أن قالوا: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النمل:٥٦]؛ فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الإخراج! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج؛ فطهره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلتهم خالدين لكن

---

(١) في نسخة: «يرتدعوا».

بعد ما صيرها عليهم بحيرةً منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج، وحر يتوهج وماؤها ملح أجاج. وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى، والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا؛ ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها.

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم - المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من مجالسهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل، ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل، وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلاً، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا في المستقبل تحويلاً؛ فأخذهم الله أخذاً وبيلاً.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٩]؛ فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم.

[دعاء لوط -عليه السلام- على قومه]

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين؛ فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته، واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم: ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ ﴾ [الذاريات:٣١-٣٤]، وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝

قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [العنكبوت:٣١و٣٢].

[مجادلة إبراهيم -عليه السلام- في قوم لوط]

وقال الله- تعالى-: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود:٧٤]؛ وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا وينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود:٧٥و٧٦]؛ أي: أعرض عن هذا وتكلم غيره؛ فإنه قد حتم أمرهم، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم؛ ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾؛ أي: قد أمر به من لا يرد أمره، ولا يرد بأسه، ولا معقب لحكمه. ﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود:٧٦].

[ضيف لوط -عليه السلام-]

قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود:٧٧]: قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل -؛ أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان؛ اختباراً من الله -تعالى- لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطاً -عليه السلام- وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من الناس، و ﴿ سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود:٧٧]: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحاق: شديد بلاؤه؛ وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم؛ كما كان يصنع بغيرهم معهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه.

وقوله: ﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:٧٨]؛ أي: هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة.

[دفاع لوط -عليه السلام- عن ضيفه]

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود:٧٨]: يرشدهم إلى غشيان نسائهم؛ وهن بناته شرعاً؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد؛ كما ورد في الحديث[١]، وكما قال -تعالى-: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب:٦]، وفي قول بعض الصحابة والسلف: وهو أب لهم، وهذا كقوله -تعالى-: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]، وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، وهو الصواب.

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب، وقد تصحف عليهم؛ كما أخطئوا في قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده! وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً[٢].

وقوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود:٧٨]: نهي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إنما أنا لكم مثل الوالد؛ أعلمكم...» الحديث أخرجه أبو داود (٨)، والنسائي (٤٠)، وابن ماجه (٣١٣)، وأحمد (٢/ ٢٤٧و٢٥٠) وغيرهم بإسناد صحيح.

(٢) كما في (سفر التكوين: الاصحاح١٩)؛ ففيه ما يندى له الجبين، ويستحيل في حق المرسلين.

فيهم رجل له مسكة[1] ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفرة أغبياء. وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه.

فقال قومه- عليهم لعنة الله الحميد المجيد- مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ [هود:٧٩]: يقولون - عليهم لعائن الله - لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا.

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة العظيم، ذي العذاب الأليم؛ ولهذا قال - عليه السلام-: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود:٨٠]؛ ودّ أن لو كان له بهم قوة، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم؛ ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

عن أبي هريرة مرفوعاً: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي »[2].

وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: « رحمة الله على لوط؛ إن كان ليأوي إلى ركن شديد - يعني: الله - عز وجل -؛ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه »[3].

وقال -تعالى-: ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الحجر:٦٧-٧١]؛ فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الإستمرار على طريقتهم وسيئآتهم.

---

(١) العقل.

(٢) أخرجه البخاري(٣٣٧٢و٣٣٧٥)، ومسلم(١٥١).

(٣) أخرجه أحمد(٢/ ٣٣٢) بسند حسن.

وهذا ؛ وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون، بل كلما نهاهم[١]؛ يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون، ولم يعلموا ما حم[٢] به القدر مما هم إليه صائرون، وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون؛ ولهذا قال - تعالى- مقسماً بحياة نبيه محمد -صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر:٧٢].

[هلاك قوم لوط ونزول العذاب بهم]

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القمر:٣٦و٣٨].

ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبي الله لوطاً -عليه السلام- جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، وكل ما لهم في إلحاح وإلعاج[٣]، فلما ضاق الأمر وعسر الحال؛ قال ما قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود:٨٠]؛ لأحللت بكم النكال.

قالت الملائكة: ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود:٨١]، وذكروا أن جبريل -عليه السلام- خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم، حتى قيل: إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن!

---

(١) في نسخه: «كل مالهم».

(٢) قضي وقدّر.

(٣) اتقاد الشهوة وثورانها.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ ﴾ [القمر:٣٧-٣٨]؛ فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط -عليه السلام- آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل، ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾؛ يعني: عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم.

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ [هود:٨١] على قراءة النصب: يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ [هود:٨١]؛ كأنه يقول: إلا امرأتك؛ فلا تسر بها، ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ [هود:٨١]؛ أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع، ولكن الأول أظهر في المعنى، والله أعلم.

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة، الملعونين النظراء والأشباه، الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود:٨١].

فلما خرج لوط -عليه السلام- بأهله، وهم ابنتاه؛ لم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال: إن امرأته خرجت معه، فالله أعلم.

فلما خلصوا من بلادهم، وطلعت الشمس، فكانت عند شروقها؛ جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣ ﴾ [هود:٨٢-٨٣]؛ قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن بمن فيهن من الأمم وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود:٨٢]؛ والسجيل فارسي معرب، وهو الشديد الصلب القوي، ﴿ مَّنضُودٍ ﴾؛ أي: يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء، ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾؛ أي: معلمة، مكتوب على كل حجر اسم

صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه؛ كما قال: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات:٣٤]؛ وكما قال -تعالى-: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النمل:٥٨]، وقال-تعالى-: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم:٥٣-٥٥]؛ يعني: قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مسومة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه؛ من الحاضرين منهم في بلدهم، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها.

[خبر زوجة لوط - عليه السلام - وما حل بها]

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة؛ التفتت إلى قومها، وخالفت أمر ربها قديما وحديثا، وقالت: واقوماه ! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم، وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان؛ كما قال -تعالى-: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم:١٠]؛ أي: خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة - حاشا وكلا ولما -؛ فإن الله لا يقدر على نبي قط أن تبغي امرأته؛ كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف: ما بغت امرأة نبي قط. ومن قال خلاف هذا؛ فقد أخطأ خطأ كبيرا؛ قال الله -تعالى- في قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر، ووعظ وحذر ، وقال فيما قال-تعالى-: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا

سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور:١٥-١٦]؛ أي: سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة.

[عقوبة من عمل قوم لوط]

وقوله هاهنا: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٣]؛ أي: وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم.

ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم؛ سواء أكان محصناً أو لا، ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة.

واحتجوا -أيضاً- بما رواه الإمام أحمد وأهل «السنن» من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به »[1].

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة؛ كما فعل بقوم لوط؛ لقوله -تعالى-: ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٣].

[وإنكم لتمرون عليها مصبحين]

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها[2]، ولا بما حولها من الأرض المتاخمة لفنائها؛ لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرةً ومثلةً وعظةً وآيةً على قدرة الله -تعالى- وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١)، والحاكم (٤/ ٣٥٥)، والبيهقي (٨/ ٢٣٢) بإسناد صححه شيخنا - رحمه الله- في «إرواء الغليل »(٢٣٥٠).

(٢) وهي المسماة: «البحر الميت »، وهي أخفض منطقة على سطح الأرض!

المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور؛ كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾ [الشعراء:٨-٩].

وقال الله -تعالى-: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الحجر:٧٣-٧٧]؛ أي: من نظر بعين الفراسة والتوسم؛ فَهِمَ كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة؟

وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ ﴾؛ أي: لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن؛ كما قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت:٣٥]، وقال -تعالى-: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝ ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٧]؛ أي: تركناها عبرةً وعظةً لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فانزجر من محارم الله وترك معاصيه، وخاف أن يشابه قوم لوط، ومن تشبه بقوم؛ فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه؛ فمن بعض الوجوه؛ كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم ... فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه؛ يمتثل ما أمره الله به -عز وجل-، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، والجواري من السراري ذوات الجمال، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله -تعالى-: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٣].

قصة مدين قوم شعيب - عليه السلام-

[قصة شعيب - عليه السلام- في القرآن الكريم]

قال الله -تعالى- في سورة الأعراف [٨٥-٩٣] بعد قصة قوم لوط: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وقال في سورة هود [٨٤-٩٥] بعد قصة قوم لوط -أيضاً-: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ

أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

وقال في سورة الحجر [٧٨-٧٩] بعد قصة قوم لوط -أيضاً-: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة الشعراء [١٧٦-١٩١] بعد قصتهم: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ

أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾.

[قوم شعيب -عليه السلام-]

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التي هي قريبة[1] من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ومدين قبيلة عرفت بها المدينة.

[دعوة شعيب قومه إلى التوحيد]

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة؛ يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيها؛ ويأخذون بالزائد و يدفعون بالناقص؛ فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو رسول الله شعيب -عليه السلام - فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد.

كما قال- تعالى-: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ ﴾ [الأعراف:٨٥]؛ أي: دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني، وهو

---

(١) في نسخة: «قرية».

ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلا، وإن كان هذا اللفظ قد دخل عليها إجمالا.

﴿ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ [الأعراف:٨٥]؛ أمرهم بالعدل، ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦]؛ أي: طريق ﴿ تُوعِدُونَ ﴾؛ أي: تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل. ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف:٨٦]؛ فنهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية والمعنوية الدينية.

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف:٨٦]؛ ذكرهم بنعمة الله -تعالى- عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه.

كما قال لهم في القصة الأخرى: ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود:٨٤]؛ أي: لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه؛ فيمحق الله بركة ما في أيديكم، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم. وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا؛ فقد باء بالصفقة الخاسرة!

فنهاهم أولا عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في أخراهم، وعنفهم أشد تعنيف.

ثم قال لهم آمرا، بعد ما كان عن ضده زاجرا: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝ ﴾ [هود:٨٥-٨٦].

قال ابن عباس والحسن البصري: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾؛ أي: رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس.

وقال ابن جرير[1]: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان: خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف. وهذا الذي قاله وحكاه حسن، وهو شبيه بقوله -تعالى-: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة:١٠٠]؛ يعني: أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام؛ فإن الحلال مبارك وإن قل، والحرام ممحوق وإن كثر؛ كما قال -تعالى-: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وقال رسول الله ﷺ: «إن الربا وإن كثر؛ فإن مصيره إلى قل»[2] ؛ أي: إلى قلة. وقال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا؛ فإن صدقا وبيَّنا؛ بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا؛ محقمت بركة بيعهما»[3].

والمقصود: أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام لا يجدي وإن كثر؛ ولهذا قال نبي الله شعيب: ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾؛ أي: افعلوا ما أمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيري.

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود:٨٧]؛ يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم! أصلاتك هذه التي تصليها هي الآمرة لك بأن تحجر علينا؛ فلا نعبد إلا إلهك ؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون ؟ أو ألا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها ؟! ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾؛

---

(١) «جامع البيان» (٧/ ٩٨).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥و٤٢٤)، وابن ماجه (٢٢٧٩)، والحاكم (٢/ ٣٧و٤/ ٣١٧) بإسناد صححه الحاكم ووافقه الذهبي والمنذري، وصححه البوصيري وشيخنا الإمام الألباني -رحمهم الله-.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام-رضي الله عنه-.

قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير[١]: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء.

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود:٨٨]؛ هذا تلطف معهم في العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة؛ يقول لهم: أرأيتم أيها المكذبون ﴿ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾؛ أي: على أمر بين من الله -تعالى- أنه أرسلني إليكم، ﴿ وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾؛ يعني: النبوة والرسالة؛ يعني: وعُمي عليكم معرفتها؛ فأيُّ حيلة لي فيكم ؟ وهذا كما تقدم عن نوح -عليه السلام- أنه قال لقومه سواء.

وقوله: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾؛ أي: لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء؛ فأنا أول من يتركه.

وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هي المردودة الذميمة؛ كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون؛ قال -تعالى-: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤].

وذكر عندها في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه -أي تخرج أمعاؤه من بطنه-، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجمع أهل النار فيقولون: يا فلان! مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[٢].

---

(١) في «جامع البيان» (١٢/ ٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد -رضي الله عنهما-.

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء.

فأما السادة من النجباء والألباء من العلماء الذين يخشون ربهم بالغيب؛ فحالهم؛ كما قال نبي الله شعيب: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾؛ أي: ما أريد في جميع أمرى إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ ﴾؛ أي: في جميع أحوالي ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾؛ أي: عليه أتوكل في سائر الأمور، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري، وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب، فقال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود:٨٩]؛ أي: لا يحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيُحلّ الله بكم من العذاب والنكال نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين، وقوله: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾؛ قيل: معناه: في الزمان؛ أي: ما بالعهد من قدم مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم، وقيل: معناه: وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان، وقيل: في الصفات والأفعال المستقبحات؛ من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات. والجمع بين هذه الأقوال ممكن؛ فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات.

ثم مزج الترهيب بالترغيب؛ فقال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود:٩٠]؛ أي: أقلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود؛ فإنه من تاب إليه؛ تاب عليه؛ فإنه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها ﴿ وَدُودٌ ﴾: وهو الحبيب، ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات العظام.

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ [هود:٩١]: روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا: كان ضرير البصر[1].

وقولهم: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ﴾ [هود:٩١]؛ هذا من كفرهم البليغ وعنادهم الشنيع؛ حيث قالوا: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾؛ أي: ما نفهمه ولا نعقله؛ لأنا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه ولا إقبال عليه، وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٞ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٞ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝ ﴾ [فصلت:٥].

وقولهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾؛ أي: مضطهداً مهجوراً، ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾؛ أي: قبيلتك وعشيرتك فينا؛ ﴿ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٖ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [هود:٩٢]؛ أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي وتراعوني بسببهم، ولا تخافون عذاب الله؟ ولا تراعوني لأني رسول الله؟ فصار رهطي أعز عليكم من الله، ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ [هود:٩٢]؛ أي: جانب الله وراء ظهوركم ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [هود:٩٢]؛ أي: هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

[إنذاره - عليه السلام - قومه عذاب الله]

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٞ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٞ ۝ ﴾ [هود:٩٣]؛ هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم؛ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ومن يحل عليه الهلاك

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٦٨)، وابن عساكر (٢٣/ ٧١).

والبوار. ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾؛ أي: في هذه الحياة الدنيا. ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾؛ أي: في الأخرى ﴿ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾؛ أي: مني ومنكم فيما أخبر وبشّر وحذّر.

﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾: هذا كقوله: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأعراف:٨٧].

[دعاؤه -عليه السلام- على قومه]

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩]؛ طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه، فقال: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾؛ أي: هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً، وإنما يعودون إليكم- إن عادوا- اضطراراً مكرهين؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب؛ لا يسخطه أحد، ولا يرتد أحد عنه، ولا محيد لأحد منه.

ولهذا قال: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ ﴾؛ أي: فهو كافينا، هو العاصم لنا، وإليه ملجأنا في جميع أمرنا. ثم استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم؛ فقال: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾؛ أي: الحاكمين. فدعا عليهم، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ورسوله خالفوه.

ومع هذا؛ صمموا على ما هم عليه مشتملون وبه متلبسون: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأعراف:٩٠].

[هلاك قوم شعيب - عليه السلام -]

قال الله - تعالى -: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأعراف:٩١]: ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة؛ أي: رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً، أزهقت أرواحهم من أجسادها، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية؛ لا أرواح فيها، ولا حركات بها، ولا حواس لها.

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات؛ سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات، ولكنه -تعالى- أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها.

في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودون في ملتهم راجعين؛ فقال - تعالى -: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأعراف:٩١]؛ فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

وأما في سورة هود؛ فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والإستهزاء والتنقص: ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود:٨٧]؛ فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأما في سورة الشعراء؛ فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، وتقريباً إلى ما إليه رغبوا؛ فإنهم قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٨].

قال الله -تعالى- وهو السميع العليم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء:١٨٩].

[أصحاب الأيكة هم قوم شعيب -عليه السلام-]

ومن زعم من المفسرين- كقتادة وغيره-: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين؛ فقوله ضعيف، وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما: أنه قال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧]، ولم يقل: أخوهم؛ كما قال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ ﴾ [الأعراف:٨٥].

والثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الشعراء:١٧٦]؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة؛ فلا يناسب ذكر الأخوة هاهنا، ولما نسبهم إلى القبيلة؛ ساغ ذكر شعيب بأنه أخوهم.

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة؛ فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى؛ فليكن تعداد الإنتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهم أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان؛ فدل على أنهم أمة واحدة، أهلكوا بأنواع من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب.

وقولــــه: ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء:١٨٩]: ذكروا أنهم أصابهم حر شـديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها؛ ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه؛ أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح وخربت الأشباح. ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٩١-٩٢].

[نجاة شعيب - عليه السلام - ومن معه من المؤمنين]

ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين؛ كما قال- تعالى- وهو أصدق القائلين-: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝ ﴾ [هود:٩٤-٩٥]، وقال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٩٠-٩٢]، وهذا في مقابلة قولهم: ﴿ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٠].

ثم ذكر -تعالى- عن نبيهم أنه نعاهم إلى أنفسهم موبّخاً ومؤنّباً ومقرّعاً، فقال -تعالى-: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:٩٣]؛ أي: أعرض عنهم مولياً عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾؛ أي: قد أديت ما كان واجباً علي من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم

ينفعكم ذلك؛ لأن الله لا يهدي من يضلّ وما لهم من ناصرين؛ فلست أتأسف هذا عليكم؛ لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ ﴾؛ أي: أحزن ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾؛ أي: لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه؛ فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدافع ولا يمانع، ولا محيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص منه.

باب ذكر ذرية إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-

قد قدمنا قصته مع قومه، وما كان من أمرهم، وما آل إليه أمره -عليه الصلاة والسلام- والتحية والإكرام، وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب -عليه السلام-؛ لأنها قرينتها في كتاب الله -عز وجل- في مواضع متعددة، فذكر -تعالى- بعد قصة قوم لوط قصة مدين، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا، فذكرناها تبعاً لها اقتداء بالقرآن العظيم.

ثم نشرع الآن في الكلام على تفضيل ذرية إبراهيم -عليه السلام-؛ لأن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب؛ فكل نبي أرسل بعده؛ فمن ولده.

ذكر إسماعيل -عليه السلام-

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان، أسنهما وأجلهما- الذي هو الذبيح على الصحيح-: إسماعيل -بكر إبراهيم الخليل -من هاجر القبطية المصرية- عليها السلام من العظيم الجليل-.

ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق؛ فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل، الذين بدّلوا وحرّفوا وأوّلوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل؛ فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر -وفي رواية: الوحيد-، وأياً ما كان؛ فهو إسماعيل بنص الدليل؛ ففي نص كتابهم[1] أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل؛ فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة: أما في الصورة؛ فلأنه كان ولده أزيد من ثلاث عشرة سنة. وأما أنه وحيد في المعنى؛ فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر -وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل-، فوضعهما في وهاد جبال فاران، وهي الجبال التي حول مكة نعم المقيل، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل، وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه،

---

(١) «العهد القديم»(سفر التكوين: الاصحاح:٢٢).

فحاطهما الله -تعالى- بعنايته وكفايته فنعم الحسيب والكافي والوكيل والكفيل؛ فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى، ولكن أين من يتفطن لهذا السر ؟! وأين من يحل هذا المحل ؟! والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل!

[ثناء الله على إسماعيل في القرآن]

وقد أثنى الله -تعالى- عليه ووصفه بالحلم، والصبر، وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة، والأمر بها لأهله؛ ليقيهم العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢ ﴾ [الصافات:١٠١و١٠٢]؛ فطاوع أباه على ما إليه دعاه، ووعده بأن سيصبر؛ فوفى بذلك، وصبر على ذلك.

وقال -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥ ﴾ [مريم:٥٤و٥٥].

وقال -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨ ﴾ [ص:٤٥و٤٨].

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦ ﴾ [الأنبياء:٨٥و٨٦].

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ ﴾ [النساء:١٦٣].

وقال -تعالى-: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ [البقرة:١٣٦].

وقال -تعالى-: ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [البقرة:١٤٠].

فذكر الله عنه كل صفة جميلة، وجعله نبيه ورسوله، وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون.

[ثناء الرسول ﷺ على إسماعيل -عليه السلام-]

وذكر علماء النسب وأيام الناس:

أنه أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشاً.

وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جُرهُم والعماليق وأهل اليمن ومن الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل.

عن النبي ﷺ : أنه قال: «أول من فُتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة»[1].

---

(١) صحيح لغيره- أخرجه الشيرازي في «الألقاب»، والزبير بن بكار من حديث علي -رضي الله عنه-، وحسنه الحافظ ابن حجر -رحمه الله-؛ كما في «فيض القدير»(٣/ ٩٣).

وأخرجه الطبراني والديلمي من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- بإسناد حسن قاله الحافظ ابن حجر- رحمه الله-؛ كما في «فيض القدير».

وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٥٣)، والبيهقي في « شعب الإيمان »(١٦٢٠) موقوفاً على ابن عباس -رضي الله عنهما- بإسناد ضعيف.

ويشهد له حديث حفر زمزم وبناء البيت.

وبالجملة؛ فالحديث بمجموع ذلك صحيح -إن شاء الله-، وصححه شيخنا الإمام الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢٥٧٨).

[أولاد إسماعيل -عليه السلام-]

وقد قدمنا أنه تزوج لما شب امـرأة مـن العمـاليق، وأن أبـاه أمـره بفراقـها، ففارقها. ثم نكح غيرها، فأمره أن يستمر بها، فاستمر بها، فولـدت لـه اثني عشـر ولداً ذكراً، وقد سماهم محمد بـن إسـحاق -رحمـه الله- وهـم: نبـايوت، وقيـدار، وأدئبيل، ومبسام، ومشـماع، ومسـا، وروميـة، وحـدار، ويطـور، ونـافيش، وتيمـا، وقدمة.

وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم[1]، وعندهم أنهم الإثنا عشر عظيمـاً المبشر بهم المتقدم ذكرهم، وكذبوا في تأويلهم ذلك.

وكان إسماعيل -عليه السلام- رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها، من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن صلوات الله وسلامه عليه.

ولما حضرته الوفاة؛ أوصى إلى أخيه إسحاق، ودفن نبي الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر.

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه: نبايوت، وقيدار.

---

(١) (سفر التكوين: الاصحاح: ٢٥).

ذكر إسحاق بن إبراهيم
الكريم ابن الكريم -عليهما الصلاة والسلام-

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مائة سنة بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة، وكان عمر أمه سارة حين بُشِّرت به تسعين سنة.

قال الله- تعالى-: ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات:١١٢-١١٣].

وقد ذكره الله -تعالى- بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز.

وقدمنا في حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[(١)].

[أولاد إسحاق -عليه السلام-]

وذكر أهل الكتاب[(٢)] أن إسحاق لما تزوج رفقة بنت بتوئيل في حياة أبيه؛ كان عمره أربعين سنة، وأنها كانت عاقراً، فدعا الله لها؛ فحملت؛ فولدت غلامين توأمين:

أولهما: اسمه[(٣)] عيصو، وهو الذي تسميه العرب العيص، وهو والد الروم.

والثاني: خَرَجَ وهو آخذ بعقب أخيه؛ فسموه يعقوب، وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل.

---

(١) مضى (ص ١٥٤).

(٢) (سفر التكوين: الاصحاح ٢٤-٣٥).

(٣) في نسخة: «سمّوه».

[قصة يوسف - عليه السلام -]

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة
في حياة إسرائيل -عليه السلام- فمن ذلك
قصة يوسف بن راحيل

[أهمية القرآن وإعجازه]

وقد أنزل الله -عز وجل- في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم؛ ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝ ﴾ [يوسف:١-٣].

قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة؛ فمن أراد تحقيقه؛ فلينظره ثمَّ.

وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من« التفسير»، ونحن نذكر هاهنا نبذاً مما هناك على وجه الإيجاز والنَّجاز.

وجملة القول في هذا المقام: إنه -تعالى- يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، بلسان عربي، فصيح بيّن واضح جلي، يفهمه كل عاقل ذكي زكي؛ فهو أشرف كتاب نزل من السماء، أنزله أشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان، بأفصح لغة وأظهر بيان: فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية؛ ذكر أحسنها وأبينها، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه، ودفع الباطل وزيفه ورده.

وإن كان في الأوامر والنواهي؛ فأعدل الشرائع؛ وأوضح المناهج، وأبين حُكْمَاً، وأعدل حَكَمَاً؛ فهو كما قال- تعالى-: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ ﴾ [الأنعام:١١٥]؛ يعني: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣]؛ أي: بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

وقال -تعالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾ [طه:٩٩-١٠١]؛ يعني: من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب؛ فإنه يناله هذا الوعيد.

عن جابر: أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ . قال: فغضب، وقال: «أمتهوكون[1] فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده؛ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء؛ فيخبروكم بحق فتصدقوا به، أو بباطل فتكذبوا به[2]، والذي نفسي بيده؛ لو أن موسى كان حياً ؛ ما وسعه إلا أن يتبعني»[3]. إسناد صحيح.

---

(١) جمع متهوِّك: وهو الذي يقع في الأمر بغير رؤية.

(٢) في الأصول: «بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه»، وهو خطأ من حيث اللغة والرواية.

(٣) حسن- أخرجه أحمد(٣/ ٣٨٧)، والدارمي(١/ ١١٥)، وابن أبي عاصم في« السنة» (٥٠) بإسناد ضعيف؛ لأن مجالداً ليس بالقوي.

ويشهد له الطريق الآخر الذي ذكره المصنف عند أحمد(١/ ٤٧٠) بإسناد فيه جابر الجعفي وهو ضعيف.

وله طرق أخرى يزداد بها قوة خرجها شيخنا -رحمه الله- في «إرواء الغليل»(١٥٨٩).

[رؤيا يوسف -عليه السلام-]

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [يوسف:٤-٦].

يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولدا ذكرا، وإليهم تنسب أسباط بني إسرائيل كلهم، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف -عليه السلام-.

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره، وباقي إخوته لم يوح إليهم.

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول.

ومن استدل على نبوتهم بقوله: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة:١٣٦]، وزعم أن هؤلاء هم الأسباط؛ فليس استدلاله بقوي؛ لأن المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء، والله أعلم.

ومما يؤيد أن يوسف -عليه السلام- هو المختص من بين إخوته بالرسالة والنبوة : أنه ما نص على واحد من إخوته سواه؛ فدل على ما ذكرناه.

ويستأنس لهذا بما قال الإمام أحمد: عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[١].

(١) مضى تخريجه (ص١٥٤).

قال المفسرون وغيرهم: رأى يوسف- عليه السلام- وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكباً -وهم إشارة إلى بقية إخوته- والشمس والقمر- وهما عبارة عن أبويه-، قد سجدوا له، فهاله ذلك، فلما استيقظ؛ قصها على أبيه، فعرف أبوه أن سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها، فأمره بكتمانها، وأن لا يقصها على إخوته؛ كيلا يحسدوه ويبغوا له الغوائل، ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر.

وهذا يدل على ما ذكرناه؛ ولهذا جاء في بعض الآثار: «استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها؛ فإن كل ذي نعمة محسود»[١].

وعند أهل الكتاب[٢] أنه قصها على أبيه وإخوته معاً! وهو غلط منهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾؛ أي: وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة؛ فإذا كتمتها؛ ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾؛ أي: يخصك بأنواع اللطف والرحمة. ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾؛ أي: يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك. ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾؛ أي: بالوحي إليك. ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾؛ أي: بسببك، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة. ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾؛ أي: ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة؛ كما أعطاها أباك يعقوب، وجدك إسحاق، ووالد جدك إبراهيم الخليل. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾؛ كما قال -تعالى-: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام:١٢٤]؛ لهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل: أي الناس أكرم ؟ قال: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله»[٣].

---

(١) حسن دون الجملة الأخيرة - أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (٣٥٦)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٨٧) من حديث أبي هريرة بإسناد جوّده شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (١٤٥٣)، وذكر له شواهد عن معاذ وعلي وابن عباس وغيرهم؛ لكن الجملة الأخيرة ليس لها ما يشد عضدها ؛ فهي ضعيفة، والله أعلم.

(٢) «العهد القديم» (سفر التكوين: الاصحاح ٣٧-٥٠).

(٣) مضى تخريجه (ص ١٥٤).

[إخوة يوسف يتآمرون عليه]

﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف:٧-٩].

ينبه -تعالى- على ما في هذه القصة من الآيات والحكم والدلالات المواعظ والبينات.

ثم ذكر حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه - يعنون شقيقه لأمه بنيامين - أكثر منهم، وهم عصبة؛ أي: جماعة؛ يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾؛ أي: بتقديمه حبهما علينا.

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا يرجع منها؛ ليخلوا لهم وجه أبيهم؛ أي: لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة بعد ذلك!

فلما تمالؤوا على ذلك وتوافقوا عليه؛ ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾؛ أي: المارة من المسافرين. ﴿ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾: ما تقولون لا محالة؛ فليكن هذا الذي أقول لكم؛ فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه. فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يوسف:١١-١٤] طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم.

فأجابهم الشيخ- عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم-: يا بني! يشق علي أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه، فيأتي الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه؛لصغره وغفلتكم عنه؛ ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ

أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾؛ أي: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا، ونحن جماعة؛ ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾؛ أي: عاجزون هالكون.

وعند أهل الكتاب: أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضل عن الطريق، حتى أرشده رجل إليهم! وهذا -أيضاً- من غلطهم وخطئهم في التعريب؛ فإن يعقوب -عليه السلام- كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم؛ فكيف يبعثه وحده؟!

[يوسف -عليه السلام- في الجب]

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف:١٥-١٨].

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم؛ فما كان إلا أن غابوا عن عينيه، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال، وأجمعوا على إلقائه في غيابة الجب؛ أي: في قعره، على راعونته، وهي: الصخرة التي تكون في وسطه، يقف عليها المائح، وهو: الذي ينزل؛ ليملأ الدلاء إذا قلّ الماء، والذي يرفعها بالحبل يسمى: الماتح.

فلما ألقوه فيه؛ أوحى الله إليه: إنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدّة التي أنت فيها، ولتخبرن إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وعن ابن عباس: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾؛ أي: لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها. رواه ابن جرير عنه[1].

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه؛ أخذوا قميصه؛ فلطخوه بشيء من دم، ورجعوا إلى أبيهم عشاء وهم يبكون؛ أي: على أخيهم؛ ولهذا قال بعض السلف: لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باك ! وذكر بكاء إخوة يوسف.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ أي: في ظلمة الليل؛ ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم. ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا ﴾؛ أي: ثيابنا ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾؛ أي: في غيبتنا عنه في استباقنا. وقولهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾؛ أي: وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في هذا ؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمنا لك ألا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مُصَدَّقين عندك؛ فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾؛ أي: مكذوب مفتعل؛ لأنهم عمدوا إلى سخلة ذبحوها، فأخذوا من دمها، فوضعوه على قميصه؛ ليوهموه أنه أكله الذئب. قالوا: ونسوا أن يخرقوه! وآفة الكذب النسيان ! ولما ظهرت عليهم علائم الريبة؛ لم يَرُجْ صنيعهم على أبيهم؛ فإنه كان يفهم عداوتهم له، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم؛ لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره؛ لما يريد الله أن يخصه به من نبوته، ولما راودوه عن أخذه، فبمجرد ما أخذوه أعدموه، وغيبوه عن عينيه، وجاءوا وهم يتباكون، وعلى ما تمالؤوا يتواطؤون؛ ولهذا: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وعند أهل الكتاب: أن روبين أشار بوضعه في الجب؛ ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة، فلما جاء روبين آخر النهار

---

(١) في «جامع البيان» (١٢/ ٩٦).

ليخرج يوسف لم يجده؛ فصاح وشق ثيابه، وعمد أولئك إلى جدي، فذبحوه، ولطخوا من دمه جبة يوسف، فلما علم يعقوب شق ثيابه ولبس مئزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة.

وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير.

[يوسف -عليه السلام- في بيت عزيز مصر]

وقال -تعالى-: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:١٩-٢٢].

يخبر الله -تعالى- عن قصة يوسف حين وُضع في الجبِّ أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به، و﴿ جَآءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾؛ أي: مسافرون، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر، فلما أدلى أحدهم دلوه؛ تعلق فيه يوسف، فلما رآه ذلك الرجل؛﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ ﴾؛ أي: يا بشارتي! ﴿ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾؛ أي: أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾؛ أي: هو عالم بما تمالأ عليه إخوته وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم، ومع هذا لا يغيره تعالى؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر؛ بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾؛ أي: أحسني إليه، ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾: وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به؛ مكنا له في أرض مصر. ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾؛ أي: فهمها، وتعبير الرؤيا من ذلك. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾؛ أي: إذا أراد شيئاً؛ فإنه يقيض له أسباباً وأموراً لا يهتدي إليها العباد؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد، وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه إلى عباده النبيين- عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين-.

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد، والصواب أنه أربعون سنة، ويشهد له قوله -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف:١٥].

[امرأة العزيز تراود يوسف - عليه السلام- عن نفسه]

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف:٢٣-٢٩].

يذكر -تعالى- ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف -عليه السلام- عن نفسه، وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه، وهي في غاية الجمال والمال والمنصب والشباب، وكيف غلّقت الأبواب عليها وعليه، وتهيأت له وتصنعت ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها، وهي مع هذا كله امرأة الوزير.

وهذا كله من أن يوسف - عليه السلام- شاب بديع الجمال والبهاء؛ إلا أنه نبي من سلالة الأنبياء؛ فعصمه ربه عن الفحشاء، وحماه عن مكر النساء؛ فهو سيد السادة النجباء، السبع الأتقياء، المذكورين في « الصحيحين»[1] عن خاتم الأنبياء، في قوله -عليه الصلاة والسلام- عن رب الأرض والسماء: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، ورجل ذكر الله خالياً؛ ففاضت عيناه، ورجل معلق قلبه بالمسجد؛ إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إني أخاف الله».

والمقصود: أنها دعته إليها، وحرصت على ذلك أشد الحرص؛ فقال: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾؛ يعني: زوجها صاحب المنزل؛ سيدي. ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾؛ أي: أحسن إلي وأكرم مقامي عنده. ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

وقد تكلمنا على قوله- تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾؛ بما فيه كفاية ومقنع في «التفسير»[2].

وأكثر أقوال المفسرين هاهنا متلقى من كتب أهل الكتاب؛ فالإعراض عنه أولى بنا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم(١٠٣١) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٢) (٤/٣٠٨-٣٠٩).

والذي يجب أن يعتقد: أن الله- تعالى- عصمه وبرأه ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾؛ أي: هرب منها طالباً الباب؛ ليخرج منه فراراً منها، فاتبعته في أثره. ﴿ وَأَلْفَيَا ﴾؛ أي: وجدا ﴿ سَيِّدَهَا ﴾؛ أي: زوجها ﴿ لَدَا ٱلْبَابِ ﴾؛ فبدرته بالكلام وحرضته عليه ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: اتهمته وهي المتهمة، وبرأت عرضها ونزهت ساحتها؛ فلهذا قال يوسف- عليه السلام-: ﴿ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾: احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة. ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ فقال: ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾؛ أي: لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه، ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾؛ أي: لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك.

وكذلك كان؛ ولهذا قال- تعالى-: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي: هذا الذي جرى من مكركن، أنت راودتيه عن نفسه، ثم اتهمتيه بالباطل.

ثم ضرب بعلها عن هذا صفحاً؛ فقال: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ ﴾؛ أي: لا تذكره لأحد؛ لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن، وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها، والتوبة إلى ربها؛ فإن العبد إذا تاب إلى الله؛ تاب الله عليه.

أهل مصر، وإن كانوا يعبدون الأصنام؛ إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك؛ ولهذا قال لها بعلها ما قال، وعذرها من بعض الوجوه؛ لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله؛ إلا أنه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية، فقال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾.

[اجتماع نساء مصر عند امرأة العزيز]

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٤].

يذكر -تعالى- ما كان من قبل نساء المدينة: من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها والتشنيع عليها في مراودتها فتاها، وحبها الشديد له، وهو لا يساوي هذا؛ لأنه مولى من الموالي، وليس مثله أهلاً لهذا؛ ولهذا قلن: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾؛ أي: في وضعها الشيء في غير محله.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾؛ أي: بتشنيعهن عليها والتنقص لها والإشارة إليها بالعيب والمذمّة بحب مولاها وعشق فتاها، فأظهرن ذماً وهي معذورة في نفس الأمر؛ فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ولا من قبيل ما لديهن، فأرسلت إليهن، فجمعتهن في منزلها، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن، وأحضرت من جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين؛ كالأترج ونحوه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وكانت قد هيأت يوسف -عليه السلام-، وألبسته أحسن الثياب، وهو في غاية طراوة الشباب، وأمرته بالخروج عليهن في هذا الحال، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة، ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾؛ أي: أعظمنه وأجللنه وهبنه، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم، وبهرهن حسنه، حتى اشتغلن عن أنفسهن وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح، ﴿ وَقُلْنَ

حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾، وقد جاء في حديث الإسراء: «فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن»[١].

قال السهيلي وغيره من الأئمة: معناه أنه كان على النصف من حسن آدم-عليه السلام-؛ لأن الله -تعالى- خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية نهايات الحسن البشري؛ ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما؛ كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل -عليه السلام-، ولهذا لما قام عذر امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور، وجرى لهن وعليهن ما جرى من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ ثم مدحته بالعفة[٢] التامة، فقالت: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾؛ أي: امتنع ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴾.

وكأن بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته، فأبى أشد الإباء، ونأى؛ لأنه من سلالة الأنبياء، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾؛ يعني: إن وكلتني إلى نفسي؛ فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله؛ فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني وأحطتني بحولك وقوتك.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾.

---

(١) مضى تخريجه (ص ٤١).

(٢) في نسخة: «بالعصمة».

[يوسف - عليه السلام - في السجن]

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف:٣٥-٤١].

يذكر -تعالى- عن العزيز وامرأته أنهم ﴿ بَدَا لَهُم ﴾؛ أي: ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية، وأحمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً.

وكان هذا مما قدر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم. ومن هنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي: أن من العصمة ألا تجد.

قال الله: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾؛ قيل: كان أحدهما ساقي الملك، والآخر خبازه؛ يعني: الذي يلي طعامه، وهو الذي يقول له الترك: (الجاشنكير) وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما، فلما رأيا يوسف في السجن، أعجبهما سمته وهديه، ودَلُّه وطريقته، وقوله وفعله، وكثرة عبادته ربه، وإحسانه إلى خلقه، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه.

قال أهل التفسير: رأيا في ليلة واحدة: أما الساقي؛ فرأى كأن ثلاث قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب؛ فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه. ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى، فقصاها عليه، وطلبا منه أن يعبرها لهما، وقالا: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾؛ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها، وقال: ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾؛ قيل: معناه: مهما رأيتما من حلم؛ فإني أعبره لكم قبل وقوعه، فيكون كما أقول. وقيل: معناه: أني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً أو حامضاً؛ كما قال عيسى: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران:٤٩]

وقال لهما: إن هذا من تعليم الله إياي؛ لأني مؤمن به، موحد له، متّبع ملّة آبائي الكرام: إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ﴿ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾؛ أي: أن هدانا لهذا، ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾؛ أي: بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه وهو في فطرهم مركوز، وفي جبلتهم مغروز ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

ثم دعاهم إلى التوحيد، وذمّ عبادة ما سوى الله -عز وجل-، وصغّر أمر الأوثان وحقّرها وضعّف أمرها، فقال: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾؛ أي: المتصرف في خلقه، الفعال لما يريد، الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾؛ أي: وحده لا شريك له. ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾؛ أي: المستقيم والصراط القويم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره.

وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال؛ لأن نفوسهما معظمة له، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه.

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد إليه، قال: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾: قالوا: وهو الساقي، ﴿ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾: قالوا: وهو الخباز. ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾؛ أي: وقع هذا لا محالة، ووجب كونه على كل حالة؛ ولهذا جاء في الحديث: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر؛ فإذا عبرت وقعت»[1].

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف:٤٢].

يخبر -تعالى- أن يوسف قال للذي ظنه ناجيا منهما -وهو الساقي-:﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ ؛ يعني: اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك.

وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب.

وقوله: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾؛ أي: فانسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف -عليه السلام-؛ قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد، وهو الصواب، وهو منصوص أهل الكتاب.

﴿ فَلَبِثَ ﴾: يوسف ﴿ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾: والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى السبع، وقيل: إلى الخمس، وقيل: ما دون العشرة؛ حكاها الثعلبي.

ويقال: بضع نسوة وبضعة رجال.

ومنع الفراء استعمال البضع فيما دون العشر؛ قال: وإنما يقال: نيف! وقال الله- تعالى-: ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

---

(١) صحيح- أخرجه أبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٢٢٧٩)، وابن ماجه (٣٩١٤)، وأحمد (٤/ ١٠و١٣)، والحاكم(٤/ ٣٩٠) من حديث أبي رزين العقيلي - رضي الله عنه- بإسناد ضعيف.

وله شاهد من حديث أنس -رضي الله عنه -: أخرجه الحاكم(٤/ ٣٩١) بإسناد صحيح.

وبالجملة؛ فالحديث صحيح، صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه شيخنا الألباني -رحمه الله-.

وقال -تعالى-: ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم:٤] وهذا رد لقوله[1].

قال الفراء: ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين، ولا يقال: بضع ومائة، وبضع وألف.

وخالف الجوهري[2] فيما زاد على بضعة عشر؛ فمنع أن يقال: بضعة وعشرون ...إلى تسعين.

وفي «الصحيح»: «الإيمان بضع وستون شعبة (وفي رواية: وسبعون شعبة)؛ أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »[3].

ومن قال: إن الضمير في قوله: ﴿ فَأَنسَٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾: عائد على يوسف؛ فقد ضعف ما قاله، وإن كان قد روي عن ابن عباس وعكرمة.والحديث الذي رواه ابن جرير[4] في هذا الموضع ضعيف من كل وجه، تفرد بإسناده إبراهيم بن يزيد الخوزي المكي، وهو متروك. ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل، ولا هاهنا بطريق الأولى والأحرى، والله أعلم.

فأما قول ابن حبان في «صحيحه»- عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث-: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها ﴿ ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾؛ ما لبث في السجن ما لبث، ورحم الله لوطا، إن كان ليأوي إلى ركن شديد إذ قال لقومه: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي

---

(١) ويؤيد رد المصنف -رحمه الله- على الفراء -رحمه الله- ما صح عن رسول الله ﷺ: «البضع ما بين الثلاث إلى التسع »، صححه شيخنا - رحمه الله- في « صحيح الجامع » (٢٨٨٧).

(٢) « الصحاح »(٣/ ١١٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

(٤) ضعيف جداً- أخرجه ابن جرير الطبري في « جامع البيان »(١٢/ ١٣٢)، والطبراني في « المعجم الكبير » (١١/ ١٩٩/ ١١٦٤٠) من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: « لو لم يقل يوسف الكلمة التي قالها؛ ما لبث في السجن طول ما لبث».

قلت: إسناده ضعيف جداً؛ كما قال المصنف -رحمه الله-، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٧/ ٤٢): «وفيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي، وهو متروك».

بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾. قال: «فما بعث الله نبيا بعده إلا في ثروة من قومه»[1].

فإنه حديث منكر من هذا الوجه، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء ينفرد بها وفيها نكارة، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها، والذي في «الصحيحين» يشهد بغلطها، والله أعلم.

[رؤيا الملك]

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۝٤٣ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٤٦ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩ ﴾ [يوسف:٤٣-٤٩].

---

(١) منكر- دون الشطر المتعلق بلوط -عليه السلام- أخرجه ابن حبان (١٨٦٧)، وضعفه بهذا اللفظ شيخنا في «الصحيحة» (٤/ ٤٨٣-٤٨٤)، وإن خالف ابن كثير في علة الحديث.

وأما الشواهد المرسلة؛ فلا تقوى هذا السند الواه.

وأما شطره المتعلق بلوط- عليه السلام-؛ فتشهد له الروايات الصحيحة المتقدم تخريجها (ص ١٦٧).

هذا كله[1] من جملة أسباب خروج يوسف -عليه السلام- من السجن على وجه الاحترام والإكرام، وذلك أن ملك مصر رأى هذه الرؤيا.

فلما قصها على ملئه وقومه؛ لم يكن فيهم من يحسن تعبيرها؛ بل ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ﴾؛ أي: أخلاط أحلام من الليل، لعلها لا تعبير لها، ومع هذا؛ فلا خبرة لنا بذلك؛ ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴾.

فعند ذلك تذكر الناجي منهما، الذي وصاه يوسف بأن يذكره عند ربه، فنسيه إلى حينه هذا، وذلك عن تقدير الله -عز وجل- وله الحكمة في ذلك فلما سمع رؤيا الملك، ورأى عجز الناس عن تعبيرها؛ تذكر أمر يوسف وما كان أوصاه به من التذكار؛ ولهذا قال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ ﴾؛ أي: تذكر ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾؛ أي: بعد مدة من الزمان، وهو بضع سنين .

فقال لقومه وللملك: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾؛ أي: فأرسلوني إلى يوسف، فجاءه، فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وعند أهل الكتاب: أن الملك لما ذكره له الساقي؛ استدعاه إلى حضرته، وقص عليه ما رآه، ففسره له! وهذا غلط، والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن، لا ما عرّبه هؤلاء الجهلة الثيران.

فبذل يوسف -عليه السلام- ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط، ولا طلب الخروج سريعاً، بل أجابهم إلى ما سألوه، وعبرّ لهم ما كان من منام الملك الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾؛ يعني: يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية. ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾؛ يعني: ما كانوا يعصرونه من الأقطاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها.

---

(١) في نسخة: «كان».

فعبّر لهم، وعلى الخير دلّهم، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم، وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأولى في سنبله؛ إلا ما يرصد بسبب الأكل، ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية؛ إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم.

[براءة يوسف الصديق]

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ [يوسف: ٥٠-٥٣].

لما أحاط الملك علما بكمال علم يوسف -عليه الصلاة والسلام-، وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه؛ أمر بإحضاره إلى حضرته؛ ليكون من جملة خاصته، فلما جاءه الرسول بذلك؛ أحب ألا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلما وعدوانا، وأنه بريء الساحة مما نسبوه إليه بهتانا؛ ﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾؛ يعني: الملك ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾؛ قيل: معناه: إن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إلي؛ أي: فمر الملك فليسألهن: كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهن إياي وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد؟

فلما سئلن عن ذلك، اعترفن بما وقع من الأمر وما كان منه من الأمر الحميد، و﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾؛ فعند ذلك ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ﴾: وهي زليخا: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾؛ أي: ظهر وتبين ووضح، والحق أحق أن يتبع: ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾؛

أي: فيما يقوله؛ ومن أنه بريء، وأنه لم يراودني، وأنه حبس ظلما وعدوانا وزورا وبهتانا.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾؛ قيل: إنه من كلام يوسف، أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب. وقيل: إنه من تمام كلام زليخا؛ أي: إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة.

وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول[1].

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾؛ قيل: إنه من كلام يوسف. وقيل: من كلام زليخا وهو مفرع على القولين الأولين. وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى، والله أعلم.

[يوسف الصديق في قصر الملك]

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف:٥٤-٥٧].

لما ظهر للملك براءة عرضه ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه؛ قال: ﴿ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ ﴾؛ أي: أجعله من خاصتي ومن

---

(١) انظر- غير مأمور-: «جامع البيان» (١٢/ ١٤١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢١٥٧).

أكابر دولتي، ومن أعيان حاشيتي. فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله؛ ﴿ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾؛ أي: ذو مكانة وأمانة.

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾: طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالأهراء[1]؛ لما يتوقع من حصول الخلل فيما بعد مضي سبع سني الخصب؛ لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم، وأخبر الملك أنه حفيظ؛ أي: قوي على حفظ ما لديه، أمين عليه، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء.

وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾؛ أي: بعد السجن والضيق والحصر، صار مطلق الركاب بديار مصر، ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾؛ أي: أين شاء حل منها مكرما محسودا معظما.

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾؛ أي: هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾، وقد قال بعضهم[2]:

وراء مضيق الخوف يتسع الأمن وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تيأسن فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن

[مجيء أخوة يوسف إلى مصر في طلب الميرة]

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۞ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ

---

(١) جمع هري، وهو بيت كبير يجمع فيه طعام البر ونحوه؛ ليوزعه السلطان، وتسمى في يومنا هذا «صوامع الحبوب».

(٢) نسبا إلى محمد بن الحسين؛ كما في «الدر الفريد» (٥/ ٢٨٠).

وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٨-٦٢].

يخبر -تعالى- عن قدوم إخوة يوسف -عليه السلام- إلى الديار المصرية يمتارون طعاماً، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد، وكان يوسف -عليه السلام- إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينا ودنيا، فلما دخلوا عليه؛ عرفهم ولم يعرفوه؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف -عليه السلام- من المكانة والعظمة؛ فلهذا عرفهم وهم له منكرون.

قال -تعالى-: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾؛ أي: أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾: وكان قد سألهم عن حالهم، وكم هم ؟ فقالوا: كنا اثني عشر رجلا، فذهب منا، واحد وبقي شقيقه عند أبينا. فقال: إذا قدمتم من العام المقبل؛ فأتوني به معكم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾؛ أي: قد أحسنت نزلكم وقراكم، فرغبهم؛ ليأتوه به. ثم رهبهم إن لم يأتوه به، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾؛ أي: فلست أعطيكم ميرة، ولا أقربكم بالكلية، عكس ما أسدي إليهم أولا، فاجتهد في إحضاره معهم؛ ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب.

﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾؛ أي: سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانه إليك بكل ممكن ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾؛ أي: وإنا لقادرون على تحصيله.

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضاعتهم -وهي: ما جاءوا به يتعوضون به عن الميرة - في أمتعتهم من حيث لا يشعرون بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾؛ قيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم. وقيل: خشي ألا يكون عندهم ما يرجعون به مرة ثانية، وقيل: تذمم أن يأخذ منهم عوضا عن الميرة.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف:٦٣-٦٨].

يذكر -تعالى- ما كان من أمرهم بعد رجوعهم إلى أبيهم وقولهم له: ﴿ مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾؛ أي: بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا؛ فإن أرسلته معنا؛ لم يمنع منا.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾؛ أي: شيء نريد وقد ردت إلينا بضاعتنا؟! ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾؛ أي: نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ ﴾: بسببه ﴿ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾. قال الله -تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾؛ أي: في مقابلة ذهاب ولده الآخر.

وكان يعقوب -عليه السلام- أضن شيء بولده بنيامين؛ لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه، ويتسلى به عنه، ويتعوض بسببه منه؛ فلهذا قال: ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾؛ أي: إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾: أكد المواثيق وقرر العهود، واحتاط لنفسه في ولده، ولن يغني حذر من قدر ، ولولا حاجته وحاجة

قومه إلى الميرة؛ لما بعث الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكام، والرب- تعالى- يقدر ما يشاء، ويختار ما يريد ويحكم ما يشاء، وهو الحكيم العليم.

ثم أمرهم ألا يدخلوا المدينة من باب واحد، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة. قيل: أراد ألا يصيبهم أحد بالعين؛ وذلك لأنهم كانوا أشكالا حسنة وصورا بديعة، ، وقيل: أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبرا ليوسف أو يحدثون عنه بأثر.

والأول أظهر؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

[يوسف الصديق وأخوه]

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ

مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف:٦٩-٧٩].

يذكر -تعالى- ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف، وإيوائه إليه، وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وسلّاه عما كان منهم من الإساءة إليه.

ثم احتال على أخذه منهم وتركه إياه عنده دونهم، فأمر فتيانه بوضع سقايته- وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام- عن غرّة في متاع بنيامين، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك، ووعدهم جعالة على رده حمل بعير، وضمنه المنادي لهم.

فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم؛ ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾؛ يقولون: أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة.

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾: وهذه كانت شريعتهم: أن السارق يدفع إلى المسروق منه؛ ولهذا قالوا: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾؛ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة، ثم قال الله -تعالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾؛ أي: لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه؛ لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر. ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ ﴾؛ أي: في العلم. ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾: وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم، وأتم رأياً، وأقوى عزماً وحزماً، وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك؛ من قدوم أبيه وقومه عليه ووفودهم إليه.

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين؛ ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ ﴾؛ يعنون يوسف. قيل: كما قد سرق صنم جده أبي أمه؛ فكسره. وقيل: كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت

لإسحاق، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له. وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء. وقيل: غير ذلك؛ فلهذا: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ ﴾: وهي كلمته بعدها وقوله: ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾: أجابهم سرا لا جهرا؛ حلما وكرما وصفحا وعفوا.

فدخلوا معه في الترفق والتعطف؛ فقالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾؛ أي: إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء، وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف تعرف إليهم حينئذ! وهذا مما غلطوا فيه، ولم يفهموه جيدا.

[وأعلم من الله ما لا تعلمون]

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف: ٨٠-٨٧].

يقول -تعالى- مخبرا عنهم أنهم لما استيأسوا من أخذه منه؛ خلصوا يتناجون فيما بينهم، قال كبيرهم -وهو روبين-: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾: لتأتنني به إلا أن يحاط بكم؟ لقد أخلفتم عهده، وفرطتم فيه؛ كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله، فلم يبق لي وجه أقابله به ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾؛ أي: لا أزال مقيما هاهنا ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾؛ في القدوم عليه، ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ﴾؛ بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾؛ أي: أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾؛ أي: فإن هذا الذي أخبرناك به - من أخذهم أخانا لأنه سرق - أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك. ﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، لم يسرق؛ فإنه ليس سجية له ولا خلقة، وإنما ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾؛ قال ابن إسحاق وغيره: لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتبا على صنيعهم في يوسف؛ قال لهم ما قال. وهذا كما قال بعض السلف: إن من جزاء السيئة السيئة بعدها.

ثم قال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾؛ يعني: يوسف وبنيامين وروبين ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾؛ أي: بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾؛ فيما يقدره ويفعله، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾؛ أي: أعرض عن بنيه ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾: ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم، وحرك ما كان كامنا؛ كما قال بعضهم[(١)]:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر[(٢)]:

---

(١) هو أبو تمام؛ كما في « شرح ديوانه » (٤/ ٢٥٣).

(٢) هو متمم بن نويرة؛ كما في « شرح ديوان الحماسة » (٢/ ٧٩٧).

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السوافك
فقال أتبكي كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى[١] فالدكادك[٢]
فقلت له إن الأسى يبعث الأسى دعني فهذا كله قبر مالك[٣]

وقوله: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾؛ أي: من كثرة البكاء؛ ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾؛ أي: مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف.

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق؛ ﴿ قَالُواْ ﴾ له على وجه الرحمة والرأفة والحرص عليه: ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾: يقولون: لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك؛ فلو رفقت بنفسك؛ كان أولى بك.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾؛ يقول لبنيه: لست أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه، إنما أشكوه إلى الله -عز وجل-، وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجا ومخرجا، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

ثم قال لهم محرضا على تطلب يوسف وأخيه وأن يبحثوا عن أمرهما: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾؛ أي: لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة؛ فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه وما يقدره من المخرج في المضايق إلا القوم الكافرون.

---

(١) ما التوى من الرمل.
(٢) جمع دكداك: وهو ما تكبس من الرمل واستوى.
(٣) هو مالك بن نويرة؛ قتله خالد بن الوليد -رضي الله عنه- خطأ، وهو أخو متمم بن نويرة، فكان يبكيه كما بكت الخنساء أخاها صخرا.

[المفاجاة]

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يوسف:٨٨-٩٣].

يخبر -تعالى- عن رجوع إخوة يوسف إليه وقدومهم عليه ورغبتهم فيها لديه من الميرة والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين إليهم ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾؛ أي: من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال. ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ ﴾؛ أي: ضعيفة لا يقبل مثلها منا؛ إلا أن تتجاوز عنا. فلما رأى ما هم فيه من الحال، وما جاءوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال؛ تعرف إليهم وعطف عليهم؛ قائلا لهم عن أمر ربه وربهم؛ وقد حسر لهم عن جبينه الشريف وما يحويه من الخال الذي يعرفون فيه: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾. ﴿ قَالُوٓا۟ ﴾: وتعجبوا كل العجب، وقد ترددوا إليه مرارا عديدة وهم لا يعرفون أنه هو: ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾؛ يعني: أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم، وقوله: ﴿ وَهَٰذَآ أَخِى ﴾؛ تأكيد لما قال، وتنبيه على ما كانوا أضمروا لهما من الحسد وعملوا في أمرهما من الاحتيال؛ ولهذا قال: ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾؛ أي: بإحسانه إلينا وصدقته علينا وإيوائه لنا وشده معاقد عزنا، وذلك بما أسلفنا من طاعة ربنا وصبرنا على ما كان منكم وطاعتنا وبرنا لأبينا ومحبته الشديدة لنا وشفقته علينا؛ ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾؛ أي: فضلك وأعطاك ما لم يعطنا. ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾؛ أي: فيما أسدينا إليك، وها نحن بين يديك ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾؛ أي: لست أعاتبكم[1] على ما كان منكم بعد يومكم هذا، ثم زادهم على ذلك فقال: ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾، ومن زعم أن الوقف على قوله: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ﴾، وابتدأ بقوله: ﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾؛ فقوله ضعيف، والصحيح الأول.

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه- وهو الذي يلي جسده-، فيضعوه على عيني أبيه؛ فإنه يرجع إليه بصره بعد ما كان ذهب بإذن الله، وهذا من خوارق العادات ودلائل النبوات وأكبر المعجزات.

ثم أمرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعين إلى ديار مصر إلى الخير والدّعة وجمع الشمل بعد الفرقة على أكمل الوجوه وأعلى الأمور.

[قميص يوسف الصديق]

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يوسف:٩٤-٩٨].

قال عبد الرزاق[2]:عن ابن عباس يقول: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾؛ قال: لما خرجت العير؛ هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف؛ فقال: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾. قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وقال الحسن البصري وابن جريج المكي: كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخا، وكان

---

(١) في نسخة: «أعاقبكم».

(٢) في «التفسير»(١/ ٢/ ٣٢٩).

له منذ فارقه ثمانون سنة، وقوله: ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾؛ أي: تقولون: إنما قلت هذا من الفند، وهو الخرف وكبر السن.

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : ﴿ تُفَنِّدُونِ ﴾: تسفهون، وقال مجاهد -أيضاً- والحسن: تهرمون.

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ ﴾؛ قال قتادة والسدي: قالوا له كلمة غليظة.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾؛ أي: بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب، فرجع من فوره بصيرا بعد ما كان ضريرا، وقال لبنيه عند ذلك: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف، وسيقر عيني به، وسيريني فيه ومنه ما يسرني.

فعند ذلك: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾: طلبوا منه أن يستغفر لهم الله -عز وجل- عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه، وما كانوا عزموا عليه، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل؛ وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم.

فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا وما عليه عولوا قائلا: ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾؛ قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو ابن قيس وابن جريج وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

وثبت في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ »[1].

---

(١) أخرجه البخاري(١١٤٥)، ومسلم(٧٥٨).

[اجتماع الشمل وتأويل الرؤيا]

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف:٩٩-١٠١].

هذا إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة.

وظاهر سياق القصة يرشد إلى تحديد المدة تقريباً؛ فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة- فيما قاله غير واحد- فامتنع. فكان في السجن بضع سنين، وهي سبع عند عكرمة وغيره، ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي؛ جاء إخوته يتمارون في السنة الأولى وحدهم، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين، وفي الثالثة تعرف إليهم وأمرهم بإحضار أهليهم أجمعين، فجاءوا كلهم.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾: واجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون إخوته، ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ ﴾ اسكنوا مصراً، أو أقيموا بها ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾؛ مكاناً صحيحاً مليحاً.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾: قيل: كانت أمه قد ماتت؛ كما هو عند علماء التوراة. وقال بعض المفسرين: أحياها الله -تعالى-. وقال آخرون: بل كانت خالته ليا، والخالة بمنزلة الأم.

وقال ابن جرير[1] وآخرون: بل ظاهر القرآن يقتضي بقاء حياة أمه إلى يومئذ؛ فلا يعول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه. وهذا قوي، والله أعلم.

---

(١) «جامع البيان» (١٣/ ٤٤).

ورفعهما على العرش، أي: أجلسهما معه على سريره: ﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾؛ أي: سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيما وتكريما، وكان هذا مشروعا لهم، ولم يزل معمولا به في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا. ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ ﴾؛ أي: هذا تعبير ماكنت قصصته عليك من رؤيتي الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر حين رأيتهم لي ساجدين، و أمرتني بكتمانها، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ ﴾؛ أي: بعد الهم والضيق جعلني حاكما نافذ الكلمة في الديار المصرية حيث شئت. ﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾؛ أي: البادية، وكانوا يسكنون أرض العربات[1] من بلاد الخليل ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾؛ أي: فيما كان منهم إلي من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره.

ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾؛ أي: إذا أراد شيئا؛ هيأ أسبابه ويسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي إليها العباد، بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته؛ أي: بالأمور. ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾؛ أي: بجميع الأمور ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾: في خلقه وشرعه وقدره.

[وتوفني مسلماً]

ثم لما رأى يوسف -عليه السلام- نعمته قد تمت وشمله قد اجتمع؛ وعرف أن هذه الدار لا يقر بها قرار، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان؛ فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه - وهو خير المسئولين - أن يتوفاه- أي: حين يتوفاه على الإسلام- وأن يلحقه بعباده الصالحين، وهكذا؛ كما يقال في الدعاء: اللهم! أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين، أي: حين تتوفانا.

---

(١) بلاد العرب؛ كما في «معجم البلدان» (٣/ ٦٣٢).

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره -عليه السلام-؛ كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه إلى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين؛ كما قال: « اللهم! في الرفيق الأعلى »؛ ثلاثا، ثم قضى[(١)].

ويحتمل أن يوسف -عليه السلام- سأل الوفاة على الإسلام منجزا في صحة بدنه وسلامته، وأن ذلك كان سائغا في ملتهم وشرعتهم؛ كما روي عن ابن عباس أنه قال: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف.

فأما في شريعتنا؛ فقد نهى عن الدعاء بالموت؛ إلا عند الفتن؛ كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفنا إليك غير مفتونين»[(٢)].

وفي الحديث الآخر: «ابن آدم! الموت خير لك من الفتنة»[(٣)].

وقالت مريم -عليها السلام-: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ [مريم:٢٣]، وتمنى الموت علي بن أبي طالب لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال وكثر القيل والقال، وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب «الصحيح» لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال.

فأما في حال الرفاهية؛ فقد روى البخاري و مسلم في «صحيحهما»[(٤)] من حديث أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٤)، ومسلم (٢٤٤٤) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

(٢) صحيح- أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٥/ ٢٤٣) من حديث معاذ بن جبل -رضي الله عنه- بإسناد حسن.

وله شاهد من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنه-: أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) وحسنه ووافقه المنذري وشيخنا الألباني.

وبالجملة؛ فالحديث بمجموع ذلك صحيح؛ فقد قال الترمذي: «حسن صحيح، سألت محمد بن اسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح ».

(٣) صحيح- أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧و٤٢٨)، والبغوي في «شرح السنة »(٤٠٦٦) من حديث محمود بن لبيد -رضي الله عنه-، وصححه شيخنا - رحمه الله- في « الصحيحة»(٨١٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

إما محسناً؛ فلعله يزداد، وإما مسيئاً ؛ فلعله يستعتب[١]، ولكن ليقل: اللهم! أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي »، والمراد بالضر هاهنا: ما يخص العبد في بدنه، من مرض ونحوه لا في دينه.

والظاهر: أن نبي الله يوسف -عليه السلام- سأل ذلك: إما عند احتضاره، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك.

[وفاة يعقوب - عليه السلام -]

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب: أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة، ثم توفي -عليه السلام-. وكان قد أوصى إلى يوسف -عليه السلام- أن يدفن عند أبويه إبراهيم وإسحاق. قال السدي: فصبره[٢] وسيّره إلى بلاد الشام، فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل -عليه السلام-.

وعند أهل الكتاب: أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة. وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة. ومع هذا قالوا: فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة!

هذا نص كتابهم! وهو غلط: إما في النسخة، أو منهم، أو قد أسقطوا الكسر، وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا؛ فكيف يستعملون الطريقة ها هنا؟!.

وقد قال -تعالى- في كتابه العزيز: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة:١٣٣]:

---

(١) يرجع عن الإساءة، ويطلب الرضا.

(٢) حنّطه، وقد اشتهر المصريون القدماء بتحنيط الموتى (!).

يوصي بنيه بالإخلاص، وهو دين الإسلام الذي بعث الله به الأنبياء -عليهم السلام-.

[وفاة يوسف - عليه السلام -]

ثم حضرت يوسف -عليه السلام- الوفاة؛ فأوصى أن يحمل معهم؛ إذا خرجوا من مصر؛ فيدفن عند آبائه، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى -عليه السلام-، فدفنه عند آبائه؛ كما سيأتي[1].

(١) قصة يوسف - عليه السلام- فيها عبر كثيرة وفكر مثيرة، وقد جمعناها بالاشتراك مع الأخ الشيخ الدكتور محمد موسى آل نصر - حفظه الله- في كتاب كبير وهو المسمى: «إتحاف الإلف بذكر الفوائد الألف والنيف من سورة يوسف».



قصة أيوب -عليه السلام-

والمشهور: أنه من ذرية إبراهيم؛ كما قررنا عند قوله -تعالى-: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ الآيات [الأنعام:٨٤]، من أن الصحيح: أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح -عليهما السلام-.

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في سورة النساء في قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ ﴾ [النساء:١٦٣] الآية.

فالصحيح: أنه من سلالة العيص بن إسحاق؛ فلهذا ذكرناه هاهنا، ثم نعطف بذكر أنبياء بني إسرائيل بعد ذكر قصته إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان.

[قصة أيوب في القرآن]

قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤]، وقال -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤١-٤٤].

[بلاء أيوب - عليه السلام - وصبره]

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه؛ من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض البثنة من أرض حوران، وحكى ابن عساكر[١]: أنها كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فسلب منه ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه؛ يذكر الله -عز وجل- بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكر الله -عز وجل- في ليله ونهاره وصباحه ومسائه.

وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته؛ كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها؛ فكانت تتردد إليه، فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته، وضعف حالها، وقل مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر؛ لتطعمه وتقوم بأوده -رضي الله عنها وأرضاها- وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!

وقد ثبت في الحديث[٢] أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابة؛ زيد في بلائه»[٣].

---

(١) في «تاريخ دمشق»(١٠/٥٨).

(٢) في « نسخة »: « في الصحيح »، والمعنى في الحديث الصحيح؛ كما لا يخفى.

(٣) صحيح- أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٤)، وأحمد (١/ ١٧٢و١٧٤ و١٨٠و١٨٥)، والدارمي (٢/ ٣٢٠)، وابن حبان (٢٩٠٠و٢٩٠١و٢٩٢١)، والحاكم (١/ ٤٠) بإسناد صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص.

ولم يزد هذا كله أيوب -عليه السلام- إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا، حتى إن المثل ليضرب بصبره -عليه السلام-، ويضرب المثل -أيضا- بما حصل له من أنواع البلايا.

وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال كثيرة، والصواب ما ورد في السنة الصحيحة.

عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد؛ إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم؟ والله؛ لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك ؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به. فلما راحا إليه؛ لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدري ما تقول ؛ غير أن الله -عز وجل- يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما؛ كراهية أن يذكر الله إلا في حق.

قال: وكان يخرج في حاجته؛ فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع؛ فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص:٤٢]، فاستبطأته فتلقته تنظر، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته؛ قالت: أي بارك الله فيك! هل رأيت نبي الله هذا المبتلي؛ فوالله القدير على ذلك؛ ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً؟! قال: فإني أنا هو».

= وله شواهد من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وأخت حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهم-.

قال: «وكان له أندران[1]: أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح؛ أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض»[2].

وهذا غريب رفعه جداً، والأشبه أن يكون موقوفاً[3].

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب -عليه السلام- أمطر عليه جرادا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل في ثوبه». قال: «فقيل له: يا أيوب! أما تشبع ؟ قال: يارب! ومن يشبع من رحمتك؟»[4].

عن أبي هريرة؛ عن رسول الله ﷺ: « بينما أيوب يغتسل عرياناً؛ خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثى في ثوبه، فناداه ربه -عز وجل-: يا أيوب! ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلي يارب! ولكن لا غنى لي عن بركتك»[5].

وقوله: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص:٤٢]؛ أي: اضرب الأرض برجلك. فامتثل ما أمر به، فأنبع الله عيناً باردة الماء، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذي والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطنا، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً حتى

---

(١) بيدران

(٢) صحيح- أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦٠/ ١٣٦٩٨)، وابن جرير في «جامع البيان» (٢٣/ ١٠٧-١٠٨)، وأبو يعلى (٨٦٢)، والبزار (١٨٤٩- «مختصر الزوائد»)، وابن حبان (٢٨٩٨)، والحاكم (٢/ ٥٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٧٤).

وهو حديث صحيح؛ صححه الحاكم والذهبي وأبو نعيم والهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١١)، وشيخنا الإمام الألباني في «الصحيحة» (١٧).

(٣) ولا وجه لاستغرابه، ولا دليل على وقفه(!).

(٤) صحيح- أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦١/ ١٣٧٠٠)، وأحمد (٢/ ٣٠٤ و٤٩٠و٥١١)، وابن حبان (٦٢٣٠)، والطيالسي (٢٤٥٥)، والحاكم (٢/ ٥٨٢) بإسناد صحيح على شرطهما.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٣٣٩١).

صبّ له من المال صباً مطراً عظيماً جراداً من ذهب، وأخلف الله له أهله؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ [الأنبياء:٨٤]؛ فقيل: أحياهم الله بأعيانهم، وقيل: آجره فيمن سلف، وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم، وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة. وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ [الأنبياء:٨٤]؛ أي: رفعنا عنه شدته، وكشفنا ما به من ضر؛ رحمة منا به ورأفة وإحساناً﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٤]؛ أي: تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده؛ فله أسوة بنبي الله أيوب؛ حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك، فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه.

ومن فهم من هذا اسم امرأته؛ فقال: هي رحمة! من هذه الآية؛ فقد أبعد النجعة وأغرق النزع!!

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية، ثم غيروا بعده دين إبراهيم.

[لو أقسم على الله لأبره]

وقوله: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤] هذه رخصة من الله -تعالى- لعبده ورسوله أيوب -عليه السلام-، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط.

فقيل: حلفه ذلك لبيعها ضفائرها، وقيل: لأنه عارضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب، فأتته فأخبرته، فعرف أنه الشيطان، فحلف ليضربنها مائة سوط.

فلما عافاه الله -عز وجل- أفتاه أن يأخذ ضغثاً[١] وهو كالعثكال[٢] الذي يجمع الشماريخ[٣]، فيجمعها كلها، ويضربها به ضربة واحدة، ويكون هذا منزلاً منزلة الضرب بمائة سوط، ويبر ولا يحنث.

---

(١) حزمة رطبة من عيدان الأعشاب.

(٢) في التمر كالعنقود في العنب.

(٣) العود الواحد من العثكال.

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة- رضي الله عنها-؛ ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤].

وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدروه بهذه الآية الكريمة، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب! وسنذكر طرفا من ذلك في كتاب «الأحكام» عند الوصول إليه إن شاء الله -تعالى-.

ولنذكر هاهنا قصة ذي الكفل إذ قال بعضهم: إنه ابن أيوب -عليهما السلام- وهذه هي:

قصة ذي الكفل

الذي زعم قوم أنه ابن أيوب - عليه السلام-

قال الله -تعالى- بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء[٨٥-٨٦]: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦].

وقال -تعالى- بعد قصة أيوب -أيضا- في سورة ص [٤٥-٤٨]: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص:٤٥-٤٨].

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي- عليه من ربه الصلاة والسلام- وهذا هو المشهور.

باب ذكر أمم أهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القصص:٤٣].

عن أبي سعيد الخدري؛ قال: ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء أو من الأرض بعدما أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخوا قردة، ألم تر أن الله - تعالى- يقول: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [القصص:٤٣]؟

ورفعه البزار[١] في رواية له، والأشبه- والله أعلم- وقفه.

فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى- عليه السلام-.

فمنهم:

---

(١) صحيح- أخرجه البزار (١٤٩٨- «مختصر الزوائد»)، وابن جرير الطبري في «جامع البيان»(٢٠/ ٥٠)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٨١/ ١٦٩٢٨) موقوفا بإسناد صحيح.

وأخرج -أيضاً- البزار (١٤٩٧- «مختصر الزوائد»)، والحاكم (٢/ ٤٠٨) مرفوعاً بإسناد صحيح.

ولا تعارض بين الوقف والرفع؛ لأنه لا يقال بالرأي والاجتهاد، وصححه مرفوعاً الحاكم والذهبي والهيثمي والحافظ ابن حجر -رحمهم الله-.

أصحاب الرس

قال الله -تعالى- في سورة الفرقان [٣٨-٣٩]: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة ق [١٢-١٤]: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وهذا السياق والذي قبله يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا- وهو الهلاك-.

عن ابن عباس؛ قال: الرس بئر بأذربيجان[١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨/ ٢٦٩٥/ ١٥١٧٣) بسند صحيح.

قصة قوم يس

[وهم أصحاب القرية أصحاب يس]

[قصة أصحاب القرية في القرآن]

قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس:٢٨-٢٩].

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية.

وهذا القول ضعيف جداً؛ لأن أهل أنطاكية لما بعث إليهم المسيح ثلاثة من الحواريين؛ كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت؛ ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكون فيها بطاركة النصارى، وهن: أنطاكية، والقدس، وإسكندرية، ورومية، ثم بعدها القسطنطينية، ولم يهلكوا، وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا؛ كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صدّيق المرسلين: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ولكن؛إن كان الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن بعثوا إلى أهل أنطاكية قديما، فكذبوهم وأهلكهم الله، ثم عمرت بعد ذلك، فلما كان في زمن المسيح؛ آمنوا برسله إليهم؛ فلا يمنع هذا، والله أعلم.

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح؛ فضعيف، لما تقدم؛ ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾؛ يعني: لقومك يا محمد. ﴿ أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾؛ يعني: المدينة. ﴿ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾؛ أي: أيدناهما بثالث في الرسالة. ﴿ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾. فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم؛ كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم؛ يستبعدون أن يبعث الله نبيا بشريا. فأجابو بأن الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبنا عليه؛ لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾؛ أي: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾؛ أي: تشاءمنا بما جئتمونا به. ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾: قيل: بالمقال، وقيل: بالفعال، ويؤيد الأول قوله: ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: توعدوهم بالقتل والإهانة. ﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾؛ أي: مردود عليكم. ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾؛ أي: بسبب أنا ذكرناهم بالهدى ودعوناكم إليه توعدتمونا بالقتل والإهانة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾؛ أي: لا تقبلون الحق ولا تريدونه.

[مؤمن أصحاب يس]

وقوله -تعالى-: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾؛ يعني: لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾؛ أي: يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئا لا في الدنيا ولا في الآخرة. ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ أي:

إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه. ثم قال مخاطبا للرسل: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾؛ قيل: فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم، وقيل معناه: فاستمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة.

فعند ذلك قتلوه.

قال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، وبعد مماته في قوله: ﴿ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقال قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحا، لا يلقى غاشا، لما عاين من عاين من كرامة الله؛ قال: ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾: تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه! قال قتادة: فلا والله؛ ما عاتب الله قومه بعد قتله؛ ﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

[هلاك أصحاب يس]

وقوله -تعالى-: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي: وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم.

﴿ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾؛ قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل -عليه السلام-؛ فأخذ بعضادتي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة؛ فإذا هم خامدون؛ أي : قد أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف.

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله إليهم، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين إليهم؛ فلهذا قيل: إن أنطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح.



قصة يونس -عليه السلام-

[يونس -عليه السلام- في القرآن]

قال الله -تعالى- في سورة يونس [٩٨] ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة الأنبياء [٨٧-٨٨] ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة الصافات [١٣٩-١٤٨] ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

وقال -تعالى- في سورة ن: [٤٨-٥٠] ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

[توبة قوم يونس -عليه السلام-]

قال أهل التفسير: بعث الله يونس -عليه السلام- إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله -عز وجل-، فكذبوه، وتمردوا على كفرهم وعنادهم،

فلما طال ذلك عليه من أمرهم؛ خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

فلما خرج من بين ظهرانيهم، وتحققوا نزول العذاب بهم؛ قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المسوح[1]، وفرّقوا بين كلّ بهيمة وولدها، ثم عجّوا[2] إلى الله -عز وجل-، وصرخوا، وتضرّعوا إليه، وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي؛ فَرَغَت الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة؛ فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه ودار على رءوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ ﴾ [يونس:٩٨]؛ أي: هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها! فدل على أنه لم يقع ذلك؛ بل كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ [سبأ:٣٤] وقوله: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس:٩٨]؛ أي: آمنوا بكمالهم.

وقد اختلف المفسرون: هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة؛ فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي ؟ على قولين:

الأظهر من السياق: نعم، والله أعلم.

كما قال -تعالى-: ﴿ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ ﴾ [يونس:٩٨]، وقال -تعالى-: ﴿ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(١) ثياب سوداء.

(٢) رفعوا أصواتهم بالدعاء.

[الصافات:١٤٧و١٤٨]، وهذا المتاع إلى حين لاينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي، والله أعلم.

وقد كانوا مائة ألف لا محالة، واختلفوا في الزيادة:

واختلفوا: هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟ أو هما أمتان ؟ على ثلاثة أقوال هي مبسوطة في «التفسير».

[يونس - عليه السلام - في بطن الحوت]

والمقصود: أنه- عليه السلام- لما ذهب مغاضبا بسبب قومه؛ ركب سفينة في البحر، فلجت بهم، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون. قالوا: فتشاوروا[١] فيما بينهم على أن يقترعوا؛ فمن وقعت عليه القرعة؛ ألقوه من السفينة؛ ليتخففوا منه.

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية، فوقعت عليه أيضاً، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة، فوقعت عليه -أيضاً-؛ لما يريده الله به من الأمر العظيم.

قال الله - تعالى-: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الصافات:١٣٩-١٤٢]. وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة؛ ألقي في البحر، وبعث الله -عز وجل- حوتاً عظيماً من البحر الأخضر! فالتقمه، وأمره الله -تعالى- ألا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً؛ فليس لك برزق! فأخذه فطاف به البحار كلها. وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه. قالوا: ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات، فحرك جوارحه، فتحركت؛ فإذا هو حي، فخر لله ساجداً، وقال: يارب! اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله.

---

(١) في نسخة: «فاشتوروا».

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه، والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه.

والمقصود: أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية، ويقتحم به لجج الموج الأجاجي[1]، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى، ورب السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى؛ فعند ذلك وهنالك، قال ما قال، بلسان الحال والمقال؛ كما أخبر عنه ذو العزة والجلال، الذي يعلم السّرَّ والنّجوى، ويكشف الضُّرَّ والبلوى، سامع الأصوات وإن ضعفت، وعالم الخفيات وإن دقت، ومجيب الدعوات وإن عظمت؛ حيث قال في كتابه المبين، المنزل على رسوله الأمين، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ ﴾ [الأنبياء:٨٧]؛ أي: إلى أهله ﴿ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨ ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]. ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾: أن نضيق عليه. وقيل: معناه: نقدر؛ من التقدير وهي لغة مشهورة. قدر وقدر كما قال الشاعر[2]:

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يكن فلك الأمر

﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾؛ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك: ظلمة الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

وقوله -تعالى-: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤ ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

قيل معناه: فلولا أنه سبح الله هنالك، وقال ما قال من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع، والتوبة إليه والرجوع إليه؛ للبث هنالك إلى يوم القيامة،

---

(١) المالح.

(٢) عزاه القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن »(١١/ ٣٣٢) قائلا: وأنشد ثعلب.

ولبعث من جوف ذلك الحوت؛ هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين عنه.وقيل: معناه: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ ﴾: من قبل أخذ الحوت له ﴿ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾؛ أي: المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيرا؛ قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير[١].

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد وبعض أهل «السنن» عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «يا غلام! إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[٢].

عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة؛ قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: « لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت: أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما. فلما انتهى به إلى أسفل البحر؛ سمع يونس حسا، فقال في نفسه: ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فسبح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا! إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة ! قال: ذلك عبدي يونس؛ عصاني، فحبسته في بطن الحوت في البحر. قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال: نعم. قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت؛ فقذفه في الساحل؛ كما قال الله: ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:١٤٥] »[٣].

---

(١) في « جامع البيان »(٢٣/ ٦٤).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣و٣٠٣و٣٠٧)، والترمذي(٢٥١٦)، وابن أبي عاصم في «السنة »(٣١٦-٣١٨)، والحاكم (٣/ ٥٤١و٥٤٢) وغيرهم من طرق عن ابن عباس.

قلت: وهو صحيح؛ صححه الترمذي، وابن رجب، وشيخنا -رحمهم الله-.

(٣) ضعيف- أخرجه ابن جرير في « جامع البيان »(١٧/ ٦٤-٦٥)، والبزار (٢/ ١٠٤/ ١٥٠٢- كشف) بإسناد ضعيف؛ ضعفه المصنف، والهيثمي في «المجمع »(٧/ ١١١). ويشهد له ما بعده.

عن يزيد الرقاشي قال: سمعت أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ يقول: «إن يونس النبي -عليه السلام- حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت؛ قال: اللهم! لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش، فقالت الملائكة: يارب! صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة. فقال: أما تعرفون ذاك ؟ فقالوا: لا يارب! ومن هو ؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ قالوا: يا ربنا! أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء»[١].

زاد ابن أبي حاتم: قال أبو صخر حميد بن زياد :فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة! وما اليقطينة ؟ قال: شجرة الدباء. قال أبو هريرة: وهيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض .قال: فتفشخ عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت.

وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره[٢]:

فأنبت يقطينا عليه برحمة من الله لولا الله أصبح ضاوياً

وهذا غريب -أيضاً- من هذا الوجه، ويزيد الرقاشي ضعيف، ولكن يتقوى بحديث أبي هريرة المتقدم، كما يتقوى ذاك بهذا، والله أعلم[٣].

وقد قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ ﴾ [الصافات:١٤٥]؛ أي: ألقيناه ﴿ بِٱلۡعَرَآءِ ﴾ [الصافات:١٤٥]: وهو المكان القفر الذي ليس فيه شيء من الأشجار،

---

(١) ضعيف- أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٢٨/ ١٨٢٨١)، وابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ ٥٢٨)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٢/ ١٥٦-١٥٧)، والطبراني في «الدعاء» (٤٧) بإسناد ضعيف.

(٢) ديوانه (ص٦٥).

(٣) وهو كما قال -رحمه الله-.

بل هو عار منها، ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ [الصافات:١٤٥]؛ أي: ضعيف البدن؛ قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال ابن عباس والسدي وابن زيد: كهيئة الصبي حين يولد، وهو المنفوس ليس عليه شيء. ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ [الصافات:١٤٦]؛ قال ابن مسعود وابن عباس وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاووس والسدي وقتادة والضحاك وعطاء الخرساني وغير واحد: هو القرع.

قال بعض العلماء: في إنبات القرع عليه حكم جمة؛ منها: أن ورقه في غاية النعومة، وكثير، وظليل، ولا يقربه ذباب، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره؛ نيا ومطبوخا، وبقشره وببزره أيضاً، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك.

وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله -تعالى- له تلك الأروية التي كانت ترضعه لبنها وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية. وهذا من رحمة الله به ونعمته عليه وإحسانه إليه؛ ولهذا قال الله - تعالى-: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ ﴾ [الأنبياء:٨٨]؛ أي: الكرب والضيق الذي كان فيه. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٨]؛ أي: وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا.

عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه - قال: مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يرد علي السلام، فأتيت عمر بن الخطاب، فقلت: يا أمير المؤمنين! هل حدث في الإسلام شيء؟ قال: لا؛ وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررت بعثمان -آنفا- في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يرد علي السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت:بلى. حتى حلف وحلفت.

قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه؛ إنك مررت بي -آنفا- وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ؛ لا والله ما ذكرتها قط؛ إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة.

قال سعد: فأنا أنبئك بها؛ إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، ثم جاء أعرابي فشغله، حتى قام رسول الله ، فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله؛

ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله ﷺ ، فقال: «من هذا ؟ أبو إسحاق ؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله! قال: «مه» ؟. قلت: لا والله؛ إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك. قال: «نعم؛ دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ فانه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط؛ إلا استجاب له»[1].

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (١/ ١٧٠)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في « عمل اليوم والليلة »(٦٦٠و٦٦١)، والحاكم (١/ ٥٠٥و٢/ ٣٨٢) من طريقين عن إبراهيم بن محمد بن سعد عنه به.

وهذا إسناد صحيح؛ صححه الحاكم والذهبي والمنذري في «االترغيب والترهيب» (٢/ ٤٨٤)، والهيثمي في «مجمع الزوائد»(١٠/ ١٦٢)، وشيخنا الإمام الألباني -رحمهم الله-.

ذكر فضل يونس -عليه السلام-

قال الله -تعالى-: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:١٣٩]. وذكره -تعالى- في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام- عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام-.

عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[(١)].

عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى»[(٢)] ونسبه إلى أبيه.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[(٣)].

عن أبي هريرة... في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال: لا والذي اصطفى موسى على العالمين...

قال البخاري في آخره: «... و لا أقول: إن أحدا أفضل من يونس بن متى»[(٤)].

وهذا اللفظ يقوي أحد القولين من المعنى: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»؛ أي: ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس.

---

(١) أخرجه أحمد(١/ ٣٩٠و٤٤٠و٤٤٣)، والبخاري(٣٤١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧)، وأحمد (١/ ٢٤٢و٢٥٤و٢٩٢ و٣٤٢ و٣٤٨)، وأبو داود (٤٦٦٩).

(٣) أخرجه البخاري(٣٤١٦)، ومسلم(٢٣٧٦)، وأحمد(٢/ ٤٠٥و٤٦٨و٥٣٩).

(٤) أخرجه البخاري(٣٤١٤و٣٤١٥)، ومسلم(٢٣٧٣).

والقول الآخر: لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى؛ كما قد ورد في بعض الأحاديث: «لا تفضلوني على الأنبياء، ولا على يونس بن متى»[١].

وهذا من باب الهضم والتواضع منه -صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين-.

(١) أورده القاضي عياض في «الشفا» (١/ ١٧٠) بنحوه.

ذكر قصة موسى الكليم -عليه الصلاة والتسليم-

وهو موسى بن عمران.

قال -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝ ﴾ [مريم:٥١-٥٣].

ذكر الله بالرسالة والنبوة والإخلاص والتقريب، ومنّ عليه بأن جعل أخاه هارون نبياً، وقد ذكره الله -تعالى- في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، وذكر قصّته في مواضع متعددة مبسوطة مطوّلة وغير مطولة، وقد تكلمنا على ذلك كلّه في مواضعه من «التفسير»، وسنورد سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار التي ذكرها السلف وغيرهم -إن شاء الله-، وبه الثقة وعليه التكلان.

[استعباد فرعون لبني اسرائيل]

قال الله -تعالى-: ﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝ ﴾ [القصص:١-٦].

يذكر-تعالى- ملخّص القصة، ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه يتلوعلى نبيّه خبر موسى وفرعون بالحق؛ أي: بالصدق الذي كأنّ سامعه مشاهد للأمر معاين له.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾؛ أي: تجبر وعتا، وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى. ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾؛ أي: قسم رعيَّته إلى أقسام وفرق وأنواع؛ يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم، الكافر الفاجر؛ يستعبدهم ويستخدمهم في أخسِّ الصنائع والحرف وأرداها وأدناها، ومع هذا ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم -عليه السلام-، من أنه سيخرج من ذُرِّيَّته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إيَّاها على السوء وعصمة الله لها، وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته[1] وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل؛ حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر!

ولهذا قال الله -تعالى-: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾: وهم بنو إسرائيل. ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾؛ أي: الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم. ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾؛ أي: سنجعل الضعيف قويّاً والمقهور قاهراً[2] والذليل عزيزاً، وقد جرى هذا كلُّه لبني إسرائيل؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي

---

(١) جمع أسوار: قائد العجم، وهو كالأمير في العرب.

(٢) في نسخته: «قادراً».

إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ الآية [الأعراف:١٧٧]، وقال -تعالى-: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩].

والمقصود: أن فرعون احترز كلَّ الاحتراز ألا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، ويعلمون ميقات وضعهنَّ، فلا تلد امرأة ذكراً؛ إلا ذبحه أولئك الذَّبَّاحون من ساعته.

وعند أهل الكتاب[١]: أنّه إنما كان يأمر بقتل الغلمان؛ لتضعف شوكة بني إسرائيل؛ فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم! وهذا فيه نظر، بل هو باطل، وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى؛ كما قال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ﴾ [غافر:٢٥]؛ ولهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف:١٢٩]؛ فالصحيح: أنّ فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً، حذراً من وجود موسى.

هذا؛ والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه! قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا تخالف أقداره؛ أنَّ هذا المولود الذي تحترز منه -وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى- لا يكون مَرْباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يُغذَّى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبنَّاه وتربيه وتتفدَّاه[٢]، ولا تطلع على سرِّ معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه؛ لمخالفتك ما جاءك به من الحقِّ المبين، وتكذيبك ما أوحي إليه؛ لتعلم أنت وسائر الخلق، أن ربَّ السماوات والأرض هو الفعَّال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها!

وقد ذكر غير واحد من المفسِّرين: أنَّ القبط شكوا إلى فرعون قلة بني

---

(١) «العهد القديم»(سفر الخروج: الاصحاح ١).
(٢) في نسخة: «تتعداه».

إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذُّكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون ، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يُتركوا عاماً ، فذكروا أنَّ هارون -عليه السلام- ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأنّ موسى -عليه السلام - ولد في عام قتلهم، فضاقت أمُّه به ذرعاً، واحترزت من أول ما حبلت، ولم يكن يظهر عليها مخايلُ الحَبَل، فلما وضعت؛ ألهمت أن اتَّخذت له تابوتاً، فربطته في حبل، وكانت دارها متاخمة للنيل، فكانت تُرضِعهُ، فإذا خشيت من أحد؛ وضعته في ذلك التابوت، فأرسلته في البحر، وأمسكت طرف الحبل عندها؛ فإذا ذهبوا؛ استرجعته إليها به.

[موسى -عليه السلام- من اليَمِّ إلى بيت فرعون]

قال الله -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ [القصص:٧-٩].

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩ ﴾ [النحل:٦٨-٦٩].
وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم(١) وغير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول؛ كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة.

المقصود: أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه، وألقي في خَلَدِها وروعها ألا

(١) في «الفصل بين الملل والنحل»(٥/ ١٧-١٨).

تخافي ولا تحزني، فإنه إن ذهب؛ فإن الله سيرده إليك، وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً؛ يعلي كلمته في الدنيا والآخرة.

فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل، فمرَّ على دار فرعون، ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ ﴾، قال الله- تعالى-: ﴿ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ ﴾؛ قال بعضهم: هذه (لام) العاقبة، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله: ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ﴾، وأما إن جعل متعلقاً بمضمون الكلام، وهو أن آل فرعون قيضوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً؛ وصارت اللام معللة كغيرها، والله أعلم. ويقوي هذا التقدير الثاني قوله: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ ﴾: وهو الوزير السوء ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾: التابعين لهما ﴿ كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾؛ أي: كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة.

وذكر المفسِّرون: أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعنه بين يدي امرأة فرعون، آسية بنت مزاحم فلما فتحت الباب وكشفت الحجاب؛ ورأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية، فلما رأته ووقع نظرها عليه؛ أحبته حباً شديداً جداً، فلما جاء فرعون؛ قال: ما هذا ؟ وأمر بذبحه! فاستوهبته منه، ودفعت عنه، وقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ ﴾. فقال لها فرعون: أمّا لك؛ فنعم، وأما لي؛ فلا! أي: لا حاجة لي به! والبلاء موكل بالمنطق!

وقولها: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾: قد أنالها الله ما رجت من النفع: أمّا في الدُّنيا؛ فهداها الله به، وأما في الآخرة؛ فأسكنها جنته بسببه. ﴿ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا ﴾: وذلك أنهما تبنياه؛ لأنه لم يكن يولد لهما ولد. قال الله - تعالى-: ﴿ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾؛ أي: لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيَّضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده؟

وعند أهل الكتاب[1] أنّ التي التقطت موسى وربّته ابنة فرعون، وليس لامرأته ذكر بالكلِّيَّة، وهذا من غلطهم على كتاب الله - عز وجل-.

---

(١) في (سفر الخروج: الأصحاح: ٢).

[رجوع موسى - عليه السلام - إلى حضن أمه]

وقال الله -تعالى-: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [القصص:١٠-١٣].

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحّاك وغيرهم: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾؛ أي: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى. ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ ﴾ ؛ أي: لَتُظهر أمره وتسأل عنه جهرة . ﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾؛ أي: صبّرناها وثبتناها؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ ﴾ وهي ابنتها الكبيرة. ﴿ قُصِّيهِ ﴾؛ أي: اتبعي أثره، واطلبي لي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ ﴾ عن بعد؛ جعلت تنظر إليه وكأنّها لا تريده؛ ولهذا قال: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وذلك لأن موسى -عليه السلام- لما استقر بدار فرعون؛ أرادوا أن يغذوه برضاعة، فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً، فحاروا في أمره، واجتهدوا على تغذيته بكلّ ممكن فلم يفعل؛ كما قال -تعالى-: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾؛ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق، لعلهم يجدون من يوافق رضاعته؛ فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه؛ إذ بصرت به أخته، فلم تظهر أنها تعرفه، بل قالت: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾؟ قال ابن عباس: لمّا قالت ذلك؛ قالوا لها: ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت: رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمُّه، فلمَّا أرضعته؛ التقم ثديها وأخذ يمتصّه ويرتضعه، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، وذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها، وعرضت عليها أن تكون عندها، وأن تحسن إليها، فأبت عليها وقالت: إن لي بعلاً وأولاداً، ولست أقدر على هذا إلا أن

ترسليه معي! فأرسلته معها، ورتبت لها رواتب، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾؛ أي: كما وعدناها برده ورسالته؛ فهذا ردُّه، وهو دليل على صدق البشارة برسالته. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون ﴾.

وقد امتنَّ الله على موسى بهذا ليلة كلَّمه، فقال له فيما قال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه:٣٧-٣٩]: وذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه. ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ قال غير واحد من السلف: أي: تطْعُم وتُرَفّه وتُغذّي بأطيب المآكل، وتُلْبَس أحسن الملابس بمرأى مني، وذلك كلُّه بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعت بك ولك، وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري. ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ ﴾ [طه:٤٠]: وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله -تعالى-، وبه الثقة وعليه التكلان.

[انتصار موسى -عليه السلام- للإسرائيلي وقتل القبطي]

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ

﴿ ﴾ [القصص:١٤-١٧].

لما ذكر -تعالى- أنه أنعم على أمهِ بردّه لها وإحسانه بذلك وامتنانه عليها؛ شرع في ذكر أنّه ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾ وهو احتكام الخَلقِ والُخلُق، وهو سنُّ الأربعين في قول الأكثرين؛ آتاه الله حكماً وعلماً، وهو النبوة والرسالة التي كان بشّر بها أمّه حين قال: ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧].

ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر، وذهابه إلى أرض مدين وإقامته هنالك، حتى كمل الأجل وانقضى الأمد وكان ما كان من كلام الله له، وإكرامه بما أكرمه به:

قال -تعالى-: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾: قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسُّديُّ: -وذلك- نصف النهار. وعن ابن عباس: بين العشاءين.

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾؛ أي: يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ ﴾؛ أي: إسرائيلي ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾؛ أي: قبطي؛ ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾: وذلك أن موسى -عليه السلام- كانت له بديار مصر صولة بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته في بيته، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه وهم أخواله؛ أي: من الرضاعة . فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى -عليه السلام- على ذلك القبطي أقبل إليه موسى، ﴿ فَوَكَزَهُۥ ﴾: قال مجاهد: أي: طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: بعصا كانت معه. ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾؛ أي: فمات منها.

وقد كان ذلك القبطي كافرا مشركا بالله العظيم، ولم يرد موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره وردعه، ومع هذا قال موسى: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ ﴾؛ أي: من العز والجاه. ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾.

[تآمر القبط على موسى -عليه السلام-]

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص:١٨-٢١].

يخبر -تعالى- أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً؛ أي: من فرعون وملئه؛ أن يعلموا أنّ هذا القتيل الذي رُفِعَ إليه أمرُه، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل، فتقوى ظنونهم أنَّ موسى منهم، ويترتّب على ذلك أمر عظيم، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾؛ أي: يتلفت، فبينما هو كذلك؛ إذ ذلك الرجل الإسرائيليُّ الذي استنصره بالأمس يستصرخه؛ أي: يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنَّفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته، قال له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾.

ثم أراد أن يبطش بذلك القبطيِّ الذي هو عدوّ لموسى وللإسرائيليِّ، فيردعه عنه ويخلّصه منه، فلمَّا عزم على ذلك وأقبل على القبطيِّ؛ ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾: قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيليُّ الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، وكأنّه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطيِّ؛ اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾، فقال ما قال لموسى، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس، فذهب القبطيُّ فاستعدى فرعون على موسى، وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه. ويحتمل أن قائل هذه هو القبطيُّ، وأنّه لّما رآه مقبلاً إليه؛ خافه، ورأى من سجيَّته انتصاراً جيداً للإسرائيليِّ؛ فقال ما قال من باب الظَّنِّ والفِراسَةِ: إن هذا لعلّه قاتل ذاك

القتيل بالأمس، أو لعلَّه فهم من كلام الإسرائيليّ حين استصرخه عليه ما دلّه على هذا، والله أعلم.

والمقصود: أنّ فرعون بلغه أنّ موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل في طلبه، وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾: ساعياً إليه مشفقاً عليه؛ فقال: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾؛ أي: من هذه البلدة. ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾؛ أي: فيما أقوله لك.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾؛ أي: فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه لا يهتدي إلى طريق ولا يعرفه؛ قائلاً: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

[موسى -عليه السلام- في مدين]

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يخبر -تعالى- عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفاً يترقَّب؛ أي: يتلفَّت، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا إلى أين يذهب، وذلك لأنّه لم يخرج من مصر قبلها.

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ ؛ أي: اتجه له طريق يذهب فيه؛ ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ؛ أي: عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود، وكذا وقع؛ فقد أوصلته إلى المقصود، وأي مقصود!

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾: وكانت بئراً يستقون منها، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب -عليه السلام-، وقد كان

هلاكهم قبل زمن موسى -عليه السلام- في أحد قولي العلماء.

ولمّا ورد الماء المذكور؛ ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾؛ أي: تُكَفْكِفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس.

وعند أهل الكتاب[١] أنهنّ كنّ[٢] سبع بنات، وهذا -أيضاً- من الغلط، ولعلهنّ كن سبعاً، ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن. وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً، وإلا؛ فالظاهر أنّه لم يكن له سوى بنتين. ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾؛ أي: لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء؛ لضعفنا، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكِبَرُهُ.

قال الله- تعالى-: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾: قال المفسرون: وذلك أن الرِّعاء كانوا إذا فرغوا من وِرْدِهِم[٣]؛ وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجيء هاتان المرأتان فيُشْرِعان[٤] غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم؛ جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم ردَّ الحجر كما كان، قال أمير المؤمنين عمر[٥]: وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذنوباً[٦] واحداً فكفاهما، ثم تولى إلى الظّلّ، قالوا: وكان ظل شجرة من السَّمُر[٧]، وروى ابن جرير[٨] عن ابن مسعود: أنّه رآها خضراء ترفّ؛ ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾: قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل

---

(١) (سفر الخروج: الاصحاح ٢).

(٢) في نسخة: « وكأنه كن ».

(٣) الأشراف على الماء.

(٤) يسقيان.

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف»(١١/ ٥٣٠)، وصححه المصنف -رحمه الله- في «تفسير القرآن العظيم»(٦/ ٢٣٧).

(٦)دلو.

(٧) شجر الطلح.

(٨) في « جامع البيان » (١٠/ ٥٦).

وورق الشجر، وكان حافياً ، فسقطت نعلا[1] قدميه من الحفاء، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه -؛ وإنّ بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإنّ خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شقّ تمرة، قال عطاء بن السائب: لما قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾؛ أسمع المرأة.

[رعيه الغنم وزواجه]

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص:٢٥-٢٨].

لما جلس موسى -عليه السلام- في الظّل، وقال: ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾؛ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنّه استنكر سرعة رجوعهما، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى- عليه السلام-؛ فأمر إحداهما أن تذهب إليه، فتدعوه. ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾؛ أي: مشي الحرائر ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾: صرّحت له بهذا؛ لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها. ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ ﴾: وأخبره خبره وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها؛ قال له ذلك الشيخ: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾؛ أي: خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم.

---

(١) أي : جلد أخمص قدميه.

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو ؟

فقيل: هو شعيب - عليه السلام-، وهذا هو المشهور عند كثيرين، وممَّن نصّ عليه الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرِّحاً به في حديث، ولكن في إسناده نظر.

والمقصود: أنّه لما أضافه وأكرم مثواه، وقصّ عليه ما كان من أمره؛ بشَّره بأنّه قد نجا؛ فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾؛ أي: لرعي غنمك، ثم مدحته: ﴿ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾.

قال عمر وابن عباس وشُرَيح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد: لّما قالت ذلك؛ قال لها أبوها: وما علمك بهذا ؟ فقالت: إنّه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وإنّه لما جئت معه؛ تقدمتُ أمامه، فقال: كوني من ورائي؛ فإذا اختلف الطريق؛ فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق!

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾: استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة -رحمه الله- على صحَّة ما إذا باعه أحد هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك؛ أنه يصح؛ لقوله: ﴿ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ ﴾.

وفي هذا نظر؛ لأن هذه مراوضة لا معاقدة، والله أعلم.

واستدل أصحاب أحمد على صحة الاستئجار[1] بالطُّعمة والكسوة كما جرت به العادة، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في «سننه» مترجماً عليه في كتابه: باب استئجار الأجير على طعام بطنه .

عن عتبة بن النُّدَّر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿ طسٓمٓ ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى؛ قال: «إن موسى - عليه السلام- آجر نفسه ثماني سنين - أو عشر سنين - على عفَّةِ فرجه وطعام بطنه»[2].

---

(١) في نسخة: « الإيجار ».

(٢) ضعيف- أخرجه ابن ماجه(٢٤٤٤)، والطبراني في « المعجم الكبير » =

وهذا الحديث من هذا الوجه لا يصحُّ؛ ولكن قد روي من وجه آخر.

ثم قال- تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾: يقول: إن موسى قال لصهره: الأمرُ على ما قلت؛ فأيّهما قضيت فلا عدوان عليَّ، والله على مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل عليَّ وعليك.

ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما، وهو العشرُ سنين كوامل تامة.

قال البخاري[1]: عن سعيد بن جبير؛ قال: سألني يهوديٌّ من أهل الحيرة: أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حَبْر العرب فأسأله. فقدمت، فسألت ابن عباس؛ فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل.

[وجئت على قدر يا موسى]

قال الله-تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ

= (١٧/ ١٣٥/ ٣٣٣) بإسناد ضعيف جداً؛ كما قال شيخنا الألباني في «إرواء الغليل» (١٤٨٨).

(١) أخرجه البخاري(٢٦٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٤٣٨/ ٥٥٩٨- تحفة الأشراف» موقوفاً على ابن عباس -رضي الله عنهما-.

قال الحافظ في «فتح الباري» (٥/ ٢٨٩): «وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب».

يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص:٢٩-٣٢].

تقدَّم أنّ موسى قضى أتم الأجلين وأكملهما، وقد يؤخذ هذا من قوله: ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ﴾؛ أي: من عند صهره؛ زاعماً [١]- فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم - أنّه اشتاق إلى أهله، فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختف، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدَّة مقامه. قالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السُّلوك في الدَّرب المألوف، وجعل يُوري زنادَهُ[٢] فلا يوري شيئاً، واشتد الظَّلام والبرد؛ فبينما هو كذلك؛ إذ أبصر عن بعد ناراً تأجَّج في جانب الطور - وهو الجبل الغربي منه عن يمينه-، فـ ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾ وكأنه -والله أعلم -رآها دونهم؛ لأن هذه النار هي نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد: ﴿ لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾؛ أي: لعلي أستعلم من عندها عن الطريق. ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾: فدلَّ على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة؛ لقوله في الآية الأخرى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ ﴾ [طه:٩-١٠]؛ فدل على وجود الظّلام وكونهم تاهوا عن الطريق، وجمع الكلَّ في سورة النمل في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [النمل:٧] وقد أتاهم بخبر وأي خبر! ووجد عندها هدى وأيَّ هدى، واقتبس منها نوراً وأيَّ نور !

قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ

---

(١) في نسخة: « ذاهباً ».

(٢) يقدح زناده؛ لإشعال النار.

﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص:٣٠].

وقال في النمل [٩]: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل:٨]؛ أي: سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وقال في سورة طه [١١-١٦]: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

قال غير واحد من المفسِّرين من السَّلف والخلف: لّما قصد موسى إلى تلك النّار التي رآها فانتهى إليها؛ وجدها تأجَّج في شجرة خضراء من العوسج[1]، وكلُّ ما لتلك النّار في اضطرام، وكلُّ ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد، فوقف متعجباً، وكانت تلك الشجرة في لحف[2] جبل غربيٍّ منه عن يمينه؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص:٤٤]، وكان موسى في واد اسمه طوى، فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالواد المقدَّس طوى.

فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيّما في تلك الليلة المباركة.

ثم خاطبه -تعالى- كما يشاء قائلاً له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠]، ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤]؛ أي: أنا ربُّ العالمين، الذي لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

---

(١) نبات شوكي معروف.

(٢) أصل الجبل.

ثم أخبره أنّ هذه الدُّنيا ليست بدار قرار، و إنما الدّار الباقية يوم القيامة، التي لا بد من كونها ووجودها؛ ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طـه:١٥]؛ أي: من خير وشرٍّ، وحضَّه وحثَّه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بـها مِّمن عصى مولاه واتبع هواه. ثم قال له مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء، والذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طـه:١٧]؛ أي: أما هـذه عصاك الـتي تعرفـها منـذ صحبتـها؟ ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طـه:١٨]؛أي: بلى هذه عصاي الـتي أعرفـها وأتحققـها. ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه:١٩-٢٠]:

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلّمه هو الذي يقول لشيء كن فيكون، وأنّه الفعّال بالاختيار.

وقد قال الله -تعالى- في الآية الآخرى: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ [القصص:٣١]؛ أي: قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصكُّ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجانّ، وهو ضرب من الحيات يقال له: الجانُّ والجِنَّانُ، وهو لطيف، ولكن سريع الاضطراب والحركة جدّاً؛ فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة، فلمّا عاينها موسى -عليه السلام-: ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ [القصص:٣١]؛ أي: هارباً منها؛ لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك. ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ [القصص:٣١]؛ أي: ولم يلتفت. فناداه ربُّه قائلاً له: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ [القصص:٣١]، فلمَّا رجع؛ أمره الله- تعالى- أن يمسكها؛ ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه:٢١]؛ يقال: إنّه هابها شديداً، فوضع يده في كمِّ مِدْرَعَته[1]. ثم وضع يده في وسط فمها- وعند أهل الكتاب: أمسك بذنبها-، فلما استمكن منها! إذ هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين! فسبحان القدير العظيم رب المشرقين والمغربين!

ثم أمره -تعالى- بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها؛ فإذا هي تتلألأ

---

(١) ثوب من الصوف.

كالقمر بياضاً من غير سوء؛ أي: من غير برص[١] ولا بهق[٢]؛ولهذا قال: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص:٣٢]؛ قيل:معناه: إذا خفت؛ فضع يدك على فؤادك؛ يسكن جأشك.

وهذا وإن كان خاصاً به، إلا أنّ بركة الإيمان به حقٌّ بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء.

وقال في سورة النمل [١٢]: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾؛ أي: هاتان الآيتان، وهما: العصا واليد، وهما : البرهانان المشار إليهما في قوله: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص:٣٢]؛ ومع ذلك سبع آيات أخرى؛ فذلك تسع آيات بينات، وهي المذكورة في آخر سورة سبحان؛ حيث يقول -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء:١٠١و١٠٢].

وهي المبسوطة في سورة الأعراف [١٣٠-١٣١] في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾؛ كما سيأتي الكلام على ذلك في موضعه. وهذه التسع الآيات

---

(١) مرض جلدي يعم الجلد يشبه البهاق المتعمم.

(٢) مرض جلدي يظهر ببقع بيضاء.

غير العشر الكلمات؛ فإن التسع من كلمات الله القدريَّة[١]، والعشر من كلماته الشرعية، وإنما نبّهنا على هذا؛ لأنّه قد اشتبه أمرها على بعض الرُّواة، فظنّ أن هذه هي هذه؛ كما قرّرنا ذلك في تفسير آخر سورة بني إسرائيل.

[نبوة هارون -عليه السلام-]

والمقصود: أنّ الله سبحانه لـمّا أمر موسى -عليه السلام- بالذهاب إلى فرعون؛ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص:٣٣-٣٥].

يقول -تعالى- مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى -عليه السلام- في جوابه لربّه -عز وجل- حين أمره بالذّهاب إلى عدوّه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطيّ؛ ولهذا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص:٣٣-٣٤]؛ أي: اجعله معي معيناً ورداءً ووزيراً يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم؛ فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً. قال الله -تعالى- مجيباً له إلى سؤاله: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾؛ أي: برهاناً ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾؛ أي: فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا، وقيل: ببركة آياتنا ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص:٣٥].

وقال في سورة طه [٢٤-٢٨]: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ ﴾ قيل: إنه أصابه في لسانه لُثْغةٌ، بسبب تلك الجمرة التي

(١) معجزات خوارق.

وضعها على لسانه، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير، فهمَّ بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنّه طفل! فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه فهمَّ بأخذ التمرة ، فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها، فوضعها على لسانه، فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسل إنّما يسألون بحسب الحاجة؛ ولهذا بقيت في لسانه بقية.

ولهذا قال فرعون -قبحه الله-، فيما زعم أنّه يعيب به الكليم: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف:٥٢]؛ أي: يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره وفؤاده.

ثم قال موسى -عليه السلام-: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ [طه:٢٩-٣٦].

أي: قد أجبناك إلى جميع ما سألت، وأعطيناك الذي طلبت. وهذا من وجاهته عند ربّه -عز وجل- حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه، وهذا جاه عظيم؛ قال الله- تعالى-: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب:٦٩] وقال -تعالى-: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ [مريم:٥٣].

وقد سمعت أمّ المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحجّ: أيُّ أخ أمنُّ على أخيه ؟ فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحي إليه. قال الله -تعالى-: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ [مريم:٥٣].

[دعوة موسى وهارون - عليهما السلام - لفرعون]

وقال- تعالى- في سورة الشعراء [١٠-٢٢]: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن

يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

تقدير الكلام: فأتياه، فقالا له ذلك، وبلّغاه ما أرسلا به من: دعوته إلى عبادة الله -تعالى- وحده لا شريك له، وأن يفكَّ أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسطوته، ويتركهم يعبدون ربّهم حيث شاؤوا، ويتفرّغون لتوحيده ودعائه والتضرّع لديه.

فتكبّر فرعون في نفسه وعتا وطغى، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقُّص قائلاً له: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: أما أنت الذي ربّيناه في منزلنا وأحسنا إليه وأنعمنا عليه مدة من الدهر ؟!

وهذا يدلّ على أنّ فرعون الذي بُعِثَ إليه هو الذي فرّ منه؛ خلافاً لما عند أهل الكتاب[1]: من أنّ فرعون الذي فر منه مات في مدة مقامه بمدين، وأنّ الذي بُعِثَ إليه فرعون آخر.

وقوله: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾؛ أي: وقتلت الرجل القبطيَّ، وفررت منا وجحدت نعمتنا ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: قبل أن يوحى إليَّ وينزل عليَّ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾.

ثم قال مجيباً لفرعون عمّا امتنّ به من التربية والإحسان إليه: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾؛ أي: وهذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إليّ وأنا رجل واحد من بني إسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب

(١) (سفر الخروج: الاصحاح ٢).

العظيم بكماله واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك!

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ ﴾ [الشعراء:٢٣-٢٧].

يذكر -تعالى- ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجّة والمناظرة وما أقامه الكليمُ على فرعون اللئيم، من الحجّة العقليّة المعنوية ثم الحسيّة:

وذلك أنّ فرعون - قبحه الله - أظهر جحد الصانع -تبارك وتعالى- وزعم أنّه الإله،﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ ﴾ [النازعات:٢٣و٢٤]، وهو في هذه المقالة معاند؛ يعلم أنّه عبد مربوب، وأنّ الله هو الخالق البارئ المصوِّر الإله الحق؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤ ﴾ [النمل:١٤]؛ ولهذا قال لموسى - عليه السلام- على سبيل الإنكار لرسالته والإظهار أنه ما ثم ربّ أرسله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لأنهما قالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ فكأنّه يقول لهما: ومن رب العالمين ؟ الذي تزعمان أنه أرسلكما وابتعثكما ؟

فأجابه موسى قائلاً: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾؛ يعني: ربُّ العالمين خالق هذه السماوات والأرض المشاهدة وما بينهما من المخلوقات المتعددة، من السَّحاب والرِّياح والمطر والنَّبات والحيوانات، التي يعلم كلُّ موقن أنّها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق؛ وهو الله الذي لا إله إلا هو ربُّ العالمين.

﴿ قَالَ ﴾؛ أي: فرعون ﴿ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ ﴾: من أمرائه ومرازبته[١] ووزرائه على سبيل التهكُّم والتنقُّص لمّا قرره موسى -عليه السلام-: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾؛ يعني: كلامه هذا!

﴿ قَالَ ﴾ موسى مخاطباً له ولهم: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾؛ أي:

---

(١) جمع مرزبان، وهو الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك.

هو الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة في الآباد؛ فإنّ كلّ أحد يعلم أنّه لم يخلق نفسه، ولا أبوه ولا أمُّه، ولم يحدث من غير محدث، وإنّما أوجده وخلقه ربُّ العالمين.

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله- تعالى-: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

ومع هذا كلّه؛ لم يستفق فرعون من رقدته، ولا نزع عن ضلالته، بل استمر على طغيانه وعناده وكفرانه: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾؛ أي: هو المسخِّر لهذه الكواكب الزاهرة المسيّرة للأفلاك الدائرة، خالق الظلام والضياء، وربُّ الأرض والسماء، ورب الأولين والآخرين، خالق الشمس والقمر، والكواكب السائرة، والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفي فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون؛ فهو -تعالى- الخالق المالك المتصرّف في خلقه بما يشاء.

فلمّا قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهه، ولم يبق له قول سوى العناد؛ عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته؛ ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢٩-٣٣].

وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما، وهما: العصا واليد. وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم الذي بهر به العقول والأبصار، حين ألقى عصاه؛ فإذا هي ثعبان مبين؛ أي: عظيم الشكل، بديع في الضَّخامة والهول، والمنظر العظيم الفظيع الباهر.

وهكذا لمّا أدخل موسى -عليه السلام- يده في جيبه واستخرجها؛ أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار؛ فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها؛ رجعت إلى صفتها الأولى.

ومع هذا كلّه؛ لم ينتفع فرعون – لعنه الله – بشيء من ذلك، بل استمر على

ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته؛ كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه من إظهار الله الحقَّ المبين، والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه، وأهل دولته وملّته، ولله الحمد والمنة.

وقال -تعالى- في سورة طه [٤٠-٤٦]: ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

يقول -تعالى- مخاطباً لموسى فيما كلَّمه به ليلة أوحى إليه وأنعم بالنبوة عليه، وكلّمه منه إليه: قد كنت مشاهداً لك وأنت في دار فرعون، وأنت تحت كَنَفي وحفظي ولُطفي، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري، فلبثت فيها سنين، ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾؛ أي: مني لذلك، فوافق ذلك تقديري وتسييري ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾؛ أَي: اصطفيتك لنفسي؛ برسالتي وبكلامي.

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾؛ يعني: ولا تفترا في ذكري إذا قدمتما عليه ووفدتما إليه؛ فإنَّ ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجَّة عليه.

وقال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥].

ثم قال -تعالى-: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾: وهذا من حلمه -تعالى- وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون وعتوِّه وتجّبره، وهو إذ ذاك أردى خلقه، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن

يدعوا إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى؛ كما قال لرسوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قال الحسن البصري: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾؛ أعذرا إليه، قولا له: إنّ لك رباً، ولك معاداً، وإنّ بين يديك جنة وناراً.

وقال وهب بن منبّه: قولا له: إنّي إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة.

قال يزيد الرقاشيُّ عند هذه الآية: يا من يتحبّب إلى من يعاديه؛ فكيف بمن يتولاه ويناديه!

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾: وذلك أنّ فرعون كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض، وجاه وجنود، وعساكر وسطوة، فهاباه من حيث البشرية، وخافا أنا يسطو عليهما في بادئ الأمر، فثبّتهما -تعالى- وهو العليُّ الأعلى، فقال: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء:١٥].

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه:٤٧-٤٨]: يذكر -تعالى- أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه إلى الله -تعالى- أن يعبده وحده لا شريك له، وأن يرسل معهما بني إسرائيل ويطلقهم من أسره وقهره ولا يعذّبهم، ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾: وهو البرهان العظيم في العصا واليد، ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾: تقييد مفيد بليغ عظيم. ثم تهدّداه وتوعّداه على التكذيب، فقالا: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾؛ أي: كذّب بالحق بقلبه، وتولى عن العمل بقالبه.

وقال الله مخبراً عن فرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا

ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝ ﴾ [طه:٤٩-٥٥].

يقول -تعالى- مخبراً عن فرعون: أنّه أنكر إثبات الصانع -تعالى- قائلاً: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ ﴾؛ أي: هو الذي خلق الخلق، وقدر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثمّ هدى كلّ مخلوق إلى ما قدَّره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذي قدَّره وعَلِمَه؛ لكمال علمه وقدرته وقدره، وهذه الآية كقوله -تعالى-: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى:١-٣]؛ أي: قدر قدراً وهدى الخلائق إليه.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝ ﴾: يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربُّك هو الخالق المقدِّر الهادي الخلائق لما قدَّره، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحقُّ العبادة سواه؛ فلم عبد الأولون غيره وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ؟! فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى! ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝ ﴾؛ أي: هم وإن عبدوا غيره؛ فليس ذلك بحجة لك، ولا يدلُّ على خلاف ما أقول؛ لأنهم جهلة مثلك، وكل شيء فعلوه مستطر عليهم في الزُّبر، من صغير وكبير، وسيجزيهم على ذلك ربِّي -عزَّ وجل-، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضلّ عنه شيء ولا ينسى ربِّي شيئاً.

ثمَّ ذكر له عظمة الرَّب وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً، وتسخيره السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابِّهم وأنعامهم؛ كما قال: ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝ ﴾؛ أي: لذوي العقول الصحيحة المستقيمة، والفطر القويمة غير

السقيمة؛ فهو -تعالى- الخالق الرّازق؛ وكما قال -تعالى-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

ولمّا ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه؛ نبَّه به على المعاد، فقال: ﴿ مِنْهَا ﴾؛ أي: من الأرض ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾؛ كما قال -تعالى-: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم:٢٧].

[يوم الزينة]

ثم قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ [طه:٥٦-٥٩].

يخبر -تعالى- عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله؛ في تكذيبه بآيات الله، واستكباره عن اتّباعها، وقوله لموسى: إنَّ هذا الذي جئت به سحر! ونحن نعارضك بمثله! ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى- عليه السلام-: أن يُظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة بحضرة الناس؛ ولهذا قال: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾؛ أي: من أول النّهار في وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحقُّ أظهر وأجلى، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام، كَيْما يروج عليهم محالاً وباطلاً، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة؛ لأنه على بصيرة من ربّه، ويقين بأنّ الله سيظهر كلمته ودينه، وإن رغمت أنوف القبط!

قال الله -تعالى-: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝ ﴾ [طه:٦٠-٦٤].

يخبر -تعالى- عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر في ذلك الزّمان مملوءة سحرة فضلاء في فنهم غاية، فجمعوا له من كلّ بلد ومن كلّ مكان، فاجتمع منهم خلق كثير وجمّ غفير، وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بَكْرَة أبيهم، وذلك أنّ فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا وهم يقولون: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ ﴾ [الشعراء:٤٠].

وتقدم موسى- عليه السلام- إلى السَّحرة فوعظهم، وزجرهم عن تعاطي السِّحر الباطل، الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه، فقال: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝ ﴾

﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾: قيل: معناه: أنهم اختلفوا فيما بينهم؛ فقائل يقول: هذا كلام نبيّ وليس بساحر، وقائل منهم يقول: بل هو ساحر! فالله أعلم. وأسرّوا التناجي بهذا وغيره: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝ ﴾ يقولون: إنّ هذا وأخاه هارون، ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة، ومرادهما أن يجتمع النّاس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته، ويستأصلاكم عن آخركم، ويستأمرا عليكم بهذه الصناعة؛ ﴿ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝ ﴾: وإنّما قالوا الكلام الأوّل ليتدبروا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسِّحر والبهتان.

وهيهات ! كذبت والله الظنون، وأخطأت الآراء، أنّى يعارض البهتان والسحر والهذيان خوارق العادات التي أجراها الدَّيَّان على يدي عبده الكليم

ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان، الذي يبهرُ الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان؟!
وقولهم: ﴿ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ﴾؛ أي: جميع ما عندكم. ﴿ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ﴾؛ أي: جملة واحدة، ثم حضُّوا بعضهم بعضاً على التَّقدم في هذا المقام؛ لأن فرعون كان قد وعدهم ومنَّاهم، وما يعدهم الشَّيطان إلا غروراً.

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه:٦٥-٦٩].

لما اصطفّ السحرة ووقف موسى وهارون -عليهما السلام- تجاههم؛ قالوا له: إما أن تلقي قبلنا، وإمّا أن نلقي قبلك. ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ﴾: أنتم.

وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصيٍّ، فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصيُّ اضطراباً يخيّل للرائي أنّها تسعى باختيارها، وإنّما تتحرَّك بسبب ذلك؛ فعند ذلك سحروا أعين النّاس واسترهبوهم، وألقوا حبالهم وعصيَّهم، وهم يقولون: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾.

قال الله- تعالى-: ﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٦]، وقال الله -تعالى-: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾؛ أي: خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ومُحالهم، قبل أن يُلقي ما في يده؛ فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر.

فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة: ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه وقال: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس:٨١-٨٢].

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ

مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢].

وذلك أن موسى -عليه السلام- لما ألقاها؛ صارت حيّة عظيمة ذات قوائم - فيما ذكره غير واحد من علماء السلف- وعنق عظيم وشكل هائل مزعج؛ بحيث إنّ النّاس انحازوا منها وهربوا سراعاً وتأخّروا عن مكانها، وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصيّ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة، والنّاس ينظرون إليها ويتعجّبون منها!

وأما السحرة؛ فإنهم رأوا ما هالهم وحيّرهم في أمرهم، واطّلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم؛ فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أنّ هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لايقدر عليه الا الحقُّ، الذي ابتعث هذا المؤيّد به الحقّ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربّهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ، ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [طه:٧٠].

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه:٧١-٧٦].

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بزة والأوزاعيُّ وغيرهم: لّما سجد السحرة؛ رأوا منازلهم وقصورهم في الجنّة تُهيَّأ لهم، وتزخرف لقدومهم؛

ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

وذلك؛ لأن فرعون لما رأى هؤلاء السّحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في النّاس على هذه الصفة الجميلة؛ أفزعه ذلك، ورأى أمراً بهره، وأعمى بصيرته وبصره، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصَّدّ عن سبيل الله، فقال مخاطباً السحرة بحضرة الناس: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾؛ أي: هلاّ شاورتموني فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيّتي؟! ثم تهدّد وتوعد وأبرق وأرعد، وكذّب فأبعد؛ قائلاً: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾؛ وقال في الآية أخرى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:١٢٣].

وهذا الذي قاله من البهتان، الذي يعلم كلُّ فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان، بل لا يروج مثله على الصّبيان؛ فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدّهر؛ فكيف يكون كبيرهم الذي علّمهم السِّحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق وواد سحيق، من حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف.

قال الله -تعالى- في سورة الأعراف [١٠٣-١٢٦]: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟

سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة يونس [٧٥-٨٢]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقال -تعالى- في سورة الشعراء [٢٩-٥١]: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ

لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

والمقصود: أنّ فرعون كذّب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه:٧١]، وأتى ببهتان يعلمه العالمون في قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٣]، وقوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم ﴾[الشعراء:٤٩]؛ يعني: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾؛ أي: ليجعلنهم مُثلة ونكالاً؛ لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه:٧١]؛ أي: على جذوع النخل؛ لأنها أعلى وأشهر ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾؛ يعني: في الدنيا.

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه:٧٢] ؛ أي: لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البينات والدّلائل القاطعات ﴿ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾ [طه:٧٢]؛ قيل: معطوف، وقيل: قسم. ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾؛ أي: فافعل ما قدرت عليه ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾؛ أي: إنّما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا؛ فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة؛ صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتّبعنا رسله. ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه:٧٣]؛ أي: ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب والترغيب، ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾؛ أي: وأدوم من هذه الدار الفانية. وفي الآية الأخرى: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء:٥٠-٥١]؛ أي: ما اجترمناه من

المـآثم والمحـارم ﴿ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشـعراء:٥١] أي: مـن القبـط، بموسـى وهارون -عليهما السلام-.

وقـالوا لـه -أيضـا-: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ [الأعراف:١٢٦]؛ أي: ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسـولنا، واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ [الأعراف:١٢٦]؛ أي: ثبتنـا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيـد، والسـلطان الشـديد، بـل الشـيطان المريد ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦].

وقالوا -أيضا- يعظونه ويخوفونه بـأس ربـه العظيـم: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه:٧٤] يقولون له: فإياك أن تكـون منـهم؛ فكـان منـهم ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه:٧٥] أي: المنـازل العاليـة. ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طـه:٧٦]؛ فاحرص أن تكون منهم. فحالت بينه وبين ذالك الأقدارالـتي لا تغـالب ولاتمـانع، وحكم العلي العظيم؛ بأن فرعون - لعنه الله - من أهل الجحيـم؛ ليباشـر العـذاب الأليم ؛ يصب مـن فـوق رأسـه الحميم ، ويقـال لـه علـى وجـه التقريـع والتوبيـخ ، وهـو المقبـوح المنبـوح والذميـم اللئيـم : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان:٤٩].

والظاهر من هذه السياقات أن فرعون - لعنه الله - صلبهم وعذبهم -رضي الله عنهم-.

قال عبد الله بن عبـاس وعبيـد بـن عمـير: كـانوا مـن أول النـهار سـحرة؛ فصاروا من آخره شهداء بررة !

ويؤيــد هــذا قولهـــم: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٦].

فصل

[في تحريض كبراء القبط على إيذاء موسى وبني إسرائيل]

ولّما وقع ما وقع من الأمر العظيم، وهو الغُلب الذي غلبته القِبطُ في ذلك الموقف الهائل، وأسلم السّحرة الذين استنصروا بهم؛ لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبعداً عن الحق.

قال الله -تعالى- بعد قص ما تقدم في سورة الأعراف: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٧-١٢٩].

يخبر -تعالى- عن الملأ من قوم فرعون- وهم الأمراء والكبراء- أنهم حرّضوا ملكهم فرعون على أذيّة نبي الله موسى -عليه السلام-، ومقابلته -بدل التصديق بما جاء به- بالكفر والرد والأذى.

قالوا: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾؛ يعنون - قبحهم الله-: أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ما سواه، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط- لعنهم الله- وقرأ بعضهم:﴿ وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتك ﴾؛ أي: وعبادتك، ويحتمل شيئين:

أحدهما: ويذر دينك، وتقوّيه القراءة الأخرى.

والثاني: ويذر أن يعبدك؛ فإنّه كان يزعم أنّه إله- لعنه الله-.

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ ﴾؛ أي: لئلا يكثر مقاتلتهم ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾؛ أي: غالبون.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾؛ أي: إذا هُمْ همّوا بأذيّتكم

والفتك بكم؛ فاستعينوا أنتم بربّكم واصبروا على بليّتكم ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾؛ أي: فكونوا أنتم المتّقين لتكون لكم العاقبة؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس:٨٤-٨٦].

وقولهم: ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٩]؛ أي: قد كانت الأبناء تقتّل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

وقال الله -تعالى- في سورة حم المؤمن [٢٣و٢٤]: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى؛ إلا أنه كان على دين فرعون وملئه، وكان ذا مال جزيل جداً؛ كما ستأتي قصّته فيما بعد -إن شاء الله تعالى-.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [غافر:٢٥]: وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنّما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملأ بني إسرائيل؛ لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، ويصولون على القبط بسببها، وكانت القِبْطُ منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك، ولم يردّ عنهم قدر الذي يقول للشيء: كن! فيكون.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [غافر:٢٦] ؛ ولهذا يقول النّاس على سبيل التهكم: صار فرعون مذكّراً! وهذا منه؛ فإن فرعون في زعمه خاف على النّاس أن يضلهم موسى -عليه السلام-!

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر:٢٧]؛ أي: عذت بالله ولجأت إليه واستجرت بجنابه من أن

يسطو فرعون وغيره عليَّ بسوء. وقوله: ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾؛ أي: جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي، ولا يخاف عذاب الله وعقابه؛ لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاءً؛ ولهذا قال: ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾.

[مؤمن آل فرعون]

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [غافر:٢٨-٢٩].

وهذا الرجل هو ابن عمّ فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه، وزعم بعض النّاس أنّه كان إسرائيلياً ! وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى! والله أعلم.

والمقصود: أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما همَّ فرعونُ -لعنه الله- بقتل موسى -عليه السلام-، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه؛ خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطَّف في ردِّ فرعون بكلام جَمَعَ فيه الترغيب والترهيب؛ فقال كلمة حق على وجه المشورة والرأي.

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[1]، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام؛ فإنّ فرعون لا أشدّ جوراً

(١) صحيح- أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، وأحمد(٣/ ١٩و٦١)، والحاكم(٤/ ٥٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-.

وله شواهد بسطها شيخنا في « الصحيحة» (٤٩١).

وليس في هذا الحديث ما يدل على جواز التشهير بولاة الأمور على المنابر وفي المجالس وفي =

منه، وهذا الكلام لا أعدل منه؛لأن فيه عصمة نبيٍّ ويحتمل أنّه كاشفهم بإظهار إيمانه، وصرّح لهم بما كان يكتمه، والأول أظهر، والله أعلم.

قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: من أجل أنّه قال: ربّي الله ! فمثل هذا لا يقابل بهذا، بل بالإكرام والإحترام و الموادعة وترك الانتقام؛ يعني: لأنه: ﴿ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾؛ أي: بالخوارق التي دلّت على صدقه فيما جاء به عمّن أرسله؛ فهذا إن وادعتموه؛ كنتم في سلامة؛ لأنه: ﴿ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ﴾: ولا يضركم ذلك. ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقًا ﴾ وقد تعرضتم له ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾؛ أي: وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء ممّا يتوعّدكم به، فكيف بكم إن حلَّ جميعه عليكم؟ وهذا الكلام في هذا المقام، من أعلى مقامات التلطّف والاحتراز والعقل التام.

وقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: يحذّرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز؛ فإنّه ما تعرّضت الدول للدِّين إلا سُلبوا مُلكهم وذلوا بعد عزهم. وكذا وقع لآل فرعون؛ ما زالوا في شكٍّ وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به؛ حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك، والدور والقصور، والنعمة والحبور، ثم حولوا إلى البحر مهانين، ونُقِلَتْ أرواحهم بعد العلوّ والرِّفعة إلى أسفل السافلين؛ ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدّق، البارّ الرّاشد، التابع للحق، النّاصح لقومه، الكامل العقل: ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ ﴾؛ أي: عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾؛ أي: لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعُدَّة، والقوة والشدّة لما نفعنا ذلك، ولا ردّ عنا بأس مالك الممالك.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾؛ أي: في جوابه هذا كله: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾؛ أي: ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾: وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين.

= المواعظ وعلى صحفحات المجلات والجرائد؛ إذ هذا منهج الخوارج قديماً وحديثاً؛ ففقه الحديث أن تنصح عنده وأمامه، والله أعلم.

فإنه قد كان يتحقَّق في باطنه وفي نفسه أنّ هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً وعتواً وكفراناً:

قال الله -تعالى- إخباراً عن موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٢-١٠٤].

وقال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل:١٣-١٤].

وأما قوله: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾؛ فقد كذب -أيضاً-؛ فإنّه لم يكن على رشاد من الأمر، بل كان على سفه وضلال، وخبل وخيال، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضُّلال أن اتبعوه وطاوعوه وصدَّقوه فيما زعم من الكفر والمحال، في دعواه: أنه ربٌّ تعالى الله ذو الجلال.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف:٥١-٥٥].

وقال -تعالى-: ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات:٢٠-٢٦].

وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [هود:٩٦-٩٩].

والمقصود بيان كذبه في قوله: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ﴾، وفي قوله: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝ ﴾ [غافر: ٣٠-٣٥].

يحذّرهم ولُي الله إن كذّبوا برسول الله موسى أن يَحِل بهم ما حلّ بالأمم من قبلهم من النّقمات والمُثلات، مما تواتر عندهم وعند غيرهم، مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك، مما أقام الله به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء، لما أنزل من النقمة بمكذّبيهم من الأعداء، وما أنجى الله من اتّبعهم من الأولياء. وخوفهم يوم القيامة، وهو يوم التّناد؛ أي: حين ينادي الناس بعضهم بعضاً، حين يُولون إن قدروا على ذلك، ولا إلى ذلك سبيلاً: ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝ ﴾ [القيامة: ١٠-١٢]، وقال -تعالى-: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٦].

وقرأ بعضهم: ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾؛ بتشديد الدّال؛ أي: يوم الفرار، ويحتمل أن يكون يوم القيامة، ويحتمل أن يكون يوم يُحِلُّ الله بهم البأس؛ فيودُّون الفرار، ولات حين مناص؛ ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣].

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم، وهذا من سلالته وذريّته، ويدعو النّاس إلى توحيد الله وعبادته، وألا يشركوا به أحداً من بريّته، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان، وأنّ من سجيّتهم التكذيب بالحقّ ومخالفة الرسل؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾؛ أي: وكذبتم في هذا؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾؛ أي: يردّون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله؛ فإنّ هذا أمر يمقته الله غاية المقت؛ أي: يبغض من تلبس به من الناس، ومن اتصف به من الخلق، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ قرئ بالإضافة وبالنعت[1]، وكلاهما متلازم؛ أي: هكذا؛إذا خالفت القلوب الحقّ -ولا تخالفه إلا بلا برهان-؛ فإنّ الله يطبع عليها؛ أي: يختم عليها بما فيها.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

كذّب فرعون موسى -عليه السلام- في دعواه أنّ الله أرسله، وزعم فرعون لقومه ما كذّبه وافتراه في قوله لهم: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص:٣٨]، وقال هاهنا: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾؛ أي: طرقها ومسالكها ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ

---

(١) قراءة النعت: (قلبٍ متكبر)، قرأ بها أبو عمرو البصري، وقرأ الباقون بالإضافة: (قلبِ متكبر).

انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٦٥).

كَذِبًاۚ ﴾: ويحتمل هذا معنيين:

أحدهما: وإني لأظنّه كاذباً في قوله: أنّ للعالم ربًّاً غيري.

والثاني: في دعواه أنّ الله أرسله.

والأولُ أشبه بظاهر حال فرعون؛ فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع.

والثاني: أقرب إلى اللفظ؛ حيث قال: ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾؛ أي: فأسأله هل أرسله أم لا؟ ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾؛ أي: في دعواه ذلك.

وإنما كان مقصود فرعون أن يصدّ النّاس عن تصديق موسى -عليه السلام-، وأن يحثهم على تكذيبه قال الله- تعالى-: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾. وقرئ: ﴿ وَصَدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ ﴾[1].

﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾: قال ابن عباس ومجاهد[2]: يقول: إلاّ في خسار؛ أي: باطل، لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه؛ فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصّلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً -أعني السماء الدنيا-؛ فكيف بما بعدها من السماوات العلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله -عز وجل-!.

وذكر غير واحد من المفسرين: أن هذا الصّرح- وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له- لم ير بناء أعلى منه، وأنّه كان مبنياً من الآجرّ المشويّ بالنار؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا ﴾ [القصص:٣٨].

﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٩]؛ فوعدهم بأنّ العاقبة لهم على القِبْطِ، وكذلك وقع، وهذا من دلائل النبوّة.

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه:

قال الله -تعالى-: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ

---

(١) قرأ يعقوب والكوفيون(صُد) بالضم، وقرأ الباقون (صَد) بالفتح انظر: « النشر في القراءات العشر » (٢/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه عنهما الطبري في « جامع البيان » (٢٤/ ٤٣).

ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ [غافر:٣٨-٤٠].

يدعوهم -رضي الله عنه- إلى طريق الرشاد الحق، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه، ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة، ورغبهم في طلب الثواب عند الله، الذي لا يضيع عمل عامل لديه، القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه، الذي يعطي على القليل كثيراً، ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار، التي من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات ؛ فله الجنات العاليات، والغرف الآمنات، والخيرات الكثيرة الفائقات، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد، والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد.

ثم شرع في إبطال ما هم عليه، وتخويفهم مما يصيرون إليه؛ فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٠-٤٦].

كان يدعوهم إلى عبادة ربِّ السماوات والأرض، الذي يقول للشيء: كن؛ فيكون، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضالِّ الملعون؛ ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار: ﴿ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى

ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

ثمّ بيّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان، وأنها لا تملك من نفع ولا إضرار، فقال: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ ﴾؛ أي: لا تملك تصرُّفاً ولا حكماً في هذه الدار؛ فكيف تملكه يوم القرار؟ وأمّا الله -عز وجل-؛ فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجّار، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النّار.

ثم توعّدهم إن هم استمرُّوا على العناد بقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾. قال الله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾؛ أي: بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة؛ على كفرهم بالله، ومكرهم في صدّهم على سبيل الله، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات، التي لَبَّسوا بها على عوامّهم وطغامهم، ولهذا قال: ﴿ وَحَاقَ ﴾؛ أي: أحاط ﴿ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾؛ أي: تعرض أرواحهم في برزخهم صباحاً ومساء على النار. ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾: وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في « التفسير »، ولله الحمد.

[الآيات البينات في عذاب آل فرعون]

والمقصود: أن الله- تعالى- لم يهلكهم إلاّ بعد إقامة الحجج عليهم، وإرساله الرسول إليهم، وإزاحة الشُّبه عنهم، وأخذ الحُجَّة عليهم منهم؛ بالترهيب تارة والترغيب أخرى؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ

وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

يخبر -تعالى- أنّه ابتلى آل فرعون -وهم قومه من القبط- بالسنين- وهي أعوام الجَدب التي لا يُسْتَغلُّ فيها زرع ولا يُنْتَفع فيها بضرع- وقوله: ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾: وهي قلّة الثّمار من الأشجار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾؛ أي: فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا، بل تمرَّدوا واستمرُّوا على كفرهم وعنادهم ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾: والخصب ونحوه ﴿ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ ﴾؛ أي: هذا الذي نستحقه، وهذا الذي يليق بنا ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾؛ أي: يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا؛ ولا يقولون في الأول: إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم! ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحقّ، إذا جاء الشَّرُّ؛ أسندوه إليه، وإن رأوا خيراً؛ ادَّعوه لأنفسهم. قال الله- تعالى-: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾؛ أي: مهما جئتنا به من الآيات - وهي الخوارق للعادات - ؛ فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا بكلِّ آية، وهكذا أخبر الله عنهم في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

قال الله -تعالى-: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾:

أما الطوفان؛ فعن ابن عباس: هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزُّروع والثّمار[1].

وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسُّدِّيّ والضَّحاك.

وأمّا الجراد؛ فمعروف مشهور، وهو مأكول؛ لما ثبت في « الصحيحين » عن أبي يعفور؛ قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد؟ فقال: غزونا مع رسول

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان» (٩/ ٢٤).

اللهﷺ سبع غزوات نأكل الجراد[١]، وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في «التفسير»، وترك النبي ﷺ أكله إنما هو على وجه التقذُّر له؛ كما ترك أكل الضبّ[٢]، وتنزّه عن أكل البصل والثُّوم والكُراث[٣].

والمقصود: أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً[٤].

وأما القُمَّلُ. حكى ابن جرير[٥] عن أهل العربية: أنّها الحمنان، وهو صغار القردان فوق القمقامة[٦]، فدخل معهم البيوت والفرش، فلم يقرَّ لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش. وفسّره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف. وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف.

وأما الضفادع؛ فمعروفة. لبستهم حتّى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم، حتى إنّ أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب؛ سقطت فيه ضفدعة من تلك الضّفادع.

وأمّا الدَّم؛ فكان قد مزج ماؤهم كلُّه به فلا يستقون من النيل شيئاً إلاّ وجدوه دماً عبيطاً[٧]، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء؛ إلا كان دماً في الساعة الراهنة.

هذا كلُّه؛ ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكُلِّية ! وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة؛ أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى -عليه السلام-،

---

(١) أخرجه البخاري(٥٤٩٥)، ومسلم(١٩٥٢).

(٢) أخرجه البخاري(٥٥٣٧) ، ومسلم (١٩٤٥و١٩٤٦) من حديث عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-.

(٣) أخرجه البخاري (٨٥٤و٨٥٥)، ومسلم (٥٦٤) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنه-.

(٤) لم يترك قليلاً ولا كثيراً.

(٥) في «جامع البيان» (٦/ ٣٤).

(٦) من صغار القراد.

(٧) طري حديث السيلان.

فينالهم عن آخرهم، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل، وفي هذا أدلّ دليل.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٤-١٣٦].

يخبر -تعالى-عن كفرهم وعتوّهم واستمرارهم على الضَّلال والجهل، والاستكبار عن اتِّباع آيات الله وتصديق رسوله؛ مع ما أيّده به من الآيات العظيمة الباهرة، والحُجج البليغة القاهرة، التي أراهم الله إياها عياناً، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً، وكلّما شاهدوا آية وعاينوها؛ وجهدهم وأضنكهم؛ حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه؛ ليؤمُنُنَّ به، وليُرسلَنَّ معه من هو من حزبه، فكلَّما رفعت عنهم تلك الآية؛ عادوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه، وأعرضوا عمّا جاءهم به من الحقّ ولم يلتفتوا إليه، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشدّ ممّا كانت قبلها وأقوى، فيقولون ويكذبون، ويعدون ولا يفون: ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف:١٣٤]، فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل.

هذا؛ والعظيم الحليم القدير؛ ينظرهم ولا يُعَجِّل عليهم، ويؤخِّرهم ويتقدَّم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والاعذار إليهم أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين، ومثلاً لمن اتعظ من عباده المؤمنين !

كما قال -تبارك وتعالى- وهو أصدق القائلين، في سورة حم والكتاب المبين: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ

يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف:٤٦-٥٦].

يذكر -تعالى- إرساله عبده الكليم الكريم، إلى فرعون الخسيس اللئيم، وأنّه -تعالى- آيّد رسوله بآيات بينات واضحات تستحقُّ أن تُقابل بالتعظيم والتصديق وأن يرتدعوا عمّا هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحقِّ والصِّراط المستقيم؛ فإذا هم منها يضحكون، وبها يستهزئون، وعن سبيل الله يصُدُّون، وعن الحقِّ ينصرفون، فأرسل الله عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضاً، وكل آية أكبر من التي تتلوها؛ لأنّ التوكيد أبلغ مما قبله، ﴿ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾: لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً؛ لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة؛ ولهذا خاطبوه به في حين احتياجهم إليه، وضراعتهم لديه. قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ثم أخبر -تعالى- عن تبجُّح فرعون بمُلكه، وعظمة بلده وحسنها، وتخرُّق الأنهار فيها، وهي الخلجانات التي يكسرونها أيام زيادة النيل، ثم تبجح بنفسه وحليته، وأخذ يتنقص رسول الله موسى -عليه السلام- ويزدريه بكونه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾؛ يعني: كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقيَّة تلك اللثغة، التي هي شرف له وكمال وجمال، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله -تعالى- وأوحى إليه، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه. وتَنقُّصَه فرعون - لعنه الله - بكونه لا أساور في يديه ولا زينة عليه ! وإنما ذلك من حلية النساء، لا يليق بشهامة الرجال؛ فكيف بالرُّسل الذين هم أكمل عقلاً وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد في الدنيا، وأعلم بما أعدَّ الله لأوليائه في الأخرى؟!

وقوله: ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾؛ لا يحتاج الأمر إلى ذلك: فإن كان المراد أن تعظِّمه الملائكة؛ فالملائكة يعظِّمون ويتواضعون لمن هو دون

موسى -عليه السلام- بكثير؛ كما جاء في الحديث:«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع »[1]، فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم -عليه الصلاة والتسليم والتكريم-؟ !

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة؛ فقد أيّدَ من المعجزات بما يدلُّ قطعاً لذوي الألباب، ولمن قصد إلى الحقّ والصواب، ويعمى عمّا جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لُبَّ اللّباب، وطبع على قلبه ربُّ الأرباب، وختم عليه بما فيه من الشكّ والارتياب؛ كما هو حال فرعون القبطيِّ العميِّ الكذاب.

قال الله- تعالى-: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾؛ أي: استخفَّ عقولهم ودرَّجهم من حال إلى حال إلى أن صدّقوه في دعواه الرُّبوبيَّة -لعنه الله وقبحهم- ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾؛ أي: أغضبونا ﴿ ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾؛ أي: بالغرق، والإهانة، وسلب العزّ، والتبدُّل بالذُّلّ، وبالعذاب بعد النعمة، والهوان بعد الرَّفاهية، والنَّار بعد طيب العيش؛ عياذاً بالله العظيم وسلطانه القديم من ذلك؛ ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾؛ أي: لمن اتّبعهم في الصفات. ﴿ وَمَثَلًا ﴾؛ أي: لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ممن بلغه جليَّة خبرهم وما كان من أمرهم!

كما قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى

---

(١) صحيح- أخرجه الترمذي (٣٥٣٥و٣٥٣٦)، وأحمد (٣/ ٢٣٩و٢٤٠)، والطيالسي (١١٦٥)، وابن حبان (١٣١٩)، والحاكم (١/ ١٠٠)، وابن خزيمة (١٧) من حديث صفوان بن عسال بإسناد صحيح، صححه الحاكم والذهبي وشيخنا.

وله شاهد من حديث أبي الدرداء بإسناد حسن.

وبالجملة ؛ فالحديث ثابت صحيح، والله أعلم.

فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٣٦-٤٢].

يخبر -تعالى- أنهم لّما استكبروا عن اتّباع الحقّ، وادَّعى ملكهم الباطل، ووافقوه عليه، وأطاعوه فيه؛ اشتد غضب الربِّ القدير العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم، فانتقم منهم أشدّ الانتقام، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة، فلم يفلت منهم أحد، ولم يبق منهم ديَّار، بل كلٌّ قد غرق فدخل النّار، وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود، و يوم القيامة هم من المقبوحين.

ذكر هلاك فرعون وجنوده

لمّا تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوّهم وعنادهم؛ متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبّي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران -عليه السلام-؛ أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون، ولا ينزعون ولا يرجعون، ولم يؤمن منهم إلاّ القليل؛ قيل: ثلاثة، وهم امرأة فرعون - ولا علم لأهل الكتاب بخبرها -، ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجّته عليهم، والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصا المدينة؛ فقال: ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القصص:٢٠] ؛ قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم[١] عنه.

ومراده غير السحرة؛ فإنهم كانوا من القِبْطِ. وقيل: بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون، والسَّحرة كلّهم، وجميع شعب بني إسرائيل.

ويدلُّ على هذا قوله -تعالى-: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس:٨٣]؛ فالضمير في قوله: ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾: عائد على فرعون؛ لأنّ السياق يدلُّ عليه، وقيل: على موسى لقربه، والأول أظهر؛ كما هو مقرر في «التفسير».

وإيمانهم كان خفياً؛ لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته، ومن ملئهم أن ينمّوا عليهم إليه؛ فيفتنهم عن دينهم.

قال الله -تعالى- مخبراً عن فرعون -وكفى بالله شهيداً-: ﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾؛ أي: جبّار عنيد مُستعْلٍ بغير الحقّ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾؛

---

(١) في «التفسير» (١٠/ ٣٢٦٦/ ١٨٤٣١).

أي: في جميع أموره وشؤونه وأحواله. ولكنه جرثومة[١] قد حان انجعافها[٢]، وثمرة خبيثة قد آن قطافها، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها.

وعند ذلك قال موسى: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾ [يونس:٨٤-٨٦]؛ فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [يونس:٨٧].

أوحى الله -تعالى- إلى موسى وأخيه هارون -عليهما السلام- أن يتّخذا لقومهما بيوتاً متميِّزة فيما بينهم عن بيوت القبط؛ ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به؛ ليعرف بعضهم بيوت بعض، وقوله: ﴿ وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾؛ قيل: مساجد، وقيل: معناه كثرة الصلاة فيها؛ ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضرّ والشدّة والضيق بكثرة الصلاة؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾ [البقرة:٤٥]، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلّى[٣].

وقيل معناه: أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم؛ فأمروا أن يُصلُّوا في بيوتهم عوضاً عمّا فاتهم من إظهار شعائر الدين الحقّ في ذلك الزّمان الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملئه، والمعنى الأول أقوى؛ لقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وإن كان لا ينافي الثاني -أيضاً-، والله أعلم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ

---

(١) أصل.

(٢) استئصالها.

(٣) حسن- أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد(٥/٣٨٨) وغيرهما بإسناد حسن، وقد حسنه شيخنا - رحمه الله-.

قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون؛ غضبا لله عليه؛ لتكبره عن اتباع الحق، وصده عن سبيل الله، ومعاندته وعتوه وتمرده، واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسي والمعنوي والبرهان القطعي؛ فقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ ﴾؛ يعني: قومه من القبط ومن كان على ملته ودان بدينه ﴿ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾؛ أي: وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا، فيحسب الجاهل أنهم على شيء، ولكن هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهنية، والدور الأنيقة والقصور المبنية، والمآكل الشهية والمناظر البهية، والملك العزيز والتمكين، والجاه العريض؛ في الدنيا لا الدين. ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾؛ قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلكها[1].

وقوله: ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾؛ وهذه دعوة غضب لله -تعالى- ولدينه ولبراهينه، فاستجاب الله -تعالى- لها، وحققها وتقبلها؛ كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح:٢٦-٢٧]؛ ولهذا قال -تعالى- مخاطبا لموسى حين دعا على فرعون وملئه وأمن أخوه هارون على دعائه، فنزل ذلك منزلة الداعي أيضا؛ ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب[2]: استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم،

---

(١) انظر: « جامع البيان » (١١/ ١٠٩)، و« تفسير ابن أبي حاتم » (٦/ ١٩٧٨).

(٢) (سفر الخروج: الإصحاح: ١١-١٣).

وأمرهم الله -تعالى- فيما ذكره أهل الكتاب - أن يستعيروا حُلياً منهم، فأعاروهم شيئاً كثيراً، فخرجوا بليل، فساروا مستمرّين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام، فلمّا علم بذهابهم فرعون؛ حنق عليهم كلّ الحنق، واشتدّ غضبه عليهم، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم!

قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:٥٢-٦٨].

قال علماء التفسير: لمّا ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل يقفو أثرهم؛ كان في جيش كثيف عرمرم[1]، لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشّمس، وتراءى الجمعان، ولم يبق ثم ريبٌ ولا لَبْسٌ، وعاين كلٌّ من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة؛ فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾! وذلك لأنّهم اضطرُّوا في طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق ولا محيد إلاّ سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم، وهي شاهقة منيفة، وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه في جنوده وجيوشه وعدده وعُدَدِه، وهم منه في غاية الخوف والذُّعر؛ لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر، فشكوا إلى نبّي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه؛ فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ

(١) كثير.

رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾، وكان في الساقة[1]، فتقدّم إلى المقدّمة، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ويتزايد زبد أجاجه، وهو يقول: هاهنا أمرت! ومعه أخوه هارون، ويوشع بن نون، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبّادهم الكبار، وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون -عليهما السلام-؛ كما سنذكره فيما بعد -إن شاء الله-، ومعهم -أيضاً- مؤمن آل فرعون وهم وقوف، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف.

فلمّا تفاقم الأمر وضاق الحال واشتدّ الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جدّهم وحدّهم وحديدهم، وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر؛ عند ذلك أوحى الحليم العظيم، القدير ربُّ العرش الكريم، إلى موسى الكليم: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾! فلمّا ضربه؛ انفلق بإذن الله!

قال الله -تعالى-: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾؛ وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء: كن! فيكون، وأمر الله ريح الدَّبور[2] فلفحت[3] حال البحر[4] فأذهبته حتّى صار يابساً لا يَعْلَقُ في سنابك[5] الخيول والدّوابّ؛ قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ ﴾ [طه:٧٧-٧٩].

والمقصود: أنّه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الربّ العظيم الشديد المحال؛ أمِرَ موسى - عليه السلام- أن يجوزه ببني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين

---

(١) مؤخر الجيش.

(٢) ريح قوية مؤذية.

(٣) ضربت.

(٤) طين البحر الأسود.

(٥) حوافر.

مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحيِّر الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين! فلما جازوه وجاوزوه، وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه، فأراد موسى - عليه السلام- أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه؛ لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال؛ كما قال وهو الصادق في المقال: فقوله- تعالى-: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾؛ أي: ساكناً على هيئته، لا تغيِّره عن هذه الصفة.

فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين؛ فبادر مسرعاً، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرّاً ولا نفعاً، فلمّا رأته الجنود قد سلك البحر؛ اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين[1]، حتى همَّ أولهم بالخروج منه؛ فعند ذلك أمر الله -تعالى- كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان.

قال -تعالى-: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء:٦٥-٦٨]؛ أي: في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد؛ آيه عظيمة وبرهان قاطع على قدرته -تعالى- العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشّريعة الكريمه والمناهج المستقيمة.

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

---

(١) توكيد لفظي.

يخبر -تعالى- عن كيفيّة غرق فرعون زعيم كفرة القبط، وأنّه لمّا جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده؛ ماذا أحلّ الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم؟! ليكون أقرّ لأعين بني إسرائيل وأشفى لنفوسهم.

فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت ؛ أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝ ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وقال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ ﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ أي: حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم، وقد قال -تعالى- لهما؛ -أي: لموسى وهارون -حين دعوا بهذا: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس:٨٩]؛ فهذا من إجابة الله -تعالى- دعوة كليمه وأخيه هارون -عليهما السلام-.

عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر؛ فأدسه في فم فرعون؛ مخافة أن تناله الرحمة»(١).

وقوله- تعالى-: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ ﴾ [يونس:٩١] استفهام إنكار، ونصّ على عدم قبوله -تعالى- منه ذلك؛ لأنه - والله أعلم - لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان؛ لعاد إلى ما كان عليه؛ كما أخبر -تعالى- عن الكفار إذا عاينوا النّار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ

---

(١) صحيح- أخرجه الطيالسي (٢٦١٨)، والترمذي (٣١٠٨)، والطبري (١١/ ١١٢)، وأحمد (١/ ٢٤٠و٣٤٠)، والحاكم (١/ ٥٧و٢/ ٣٤٠و٤/ ٢٤٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٨٢) وغيرهم بسند صحيح. وصححه شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (٢٠١٥).

بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧]؛ قال الله: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام:٢٨] وقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس:٩٢].

قال ابن عباس وغير واحد[1]: شكَّ بعضُ بني إسرائيل في موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع؛ قيل: على وجه الماء، وقيل: على نجوة[2] من الأرض، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه؛ ليتحققوا بذلك هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه؛ ولهذا قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾؛ أي: مصاحباً درعك المعروفة بك ﴿ لِتَكُونَ ﴾؛ أي: أنت آية ﴿ لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ودليلاً على قدرة الله الذي أهلكك؛ ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً ﴾[3]. ويحتمل أن يكون المراد: ننجيّك بجسدك مصاحباً درعك؛ لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت، والله أعلم.

وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء.

عن ابن عباس؛ قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء؛ فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم؛ فصوموا »[4].

---

(١) انظر « جامع البيان »(١١/ ١١٤)، و«تفسير القرآن العظيم » للمصنف(٤/ ٣٧٤).
(٢) مرتفع.
(٣) انظر « الجامع لأحكام القرآن »(٨/ ٣٨١).
(٤) أخرجه البخاري (٢٠٠٤و٣٣٧٩و٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠)، والنسائي في «الكبرى »(٢٨٣٤و٢٨٣٥)، وابن ماجه (١٧٣٤) وغيرهم.

فصل فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله -تعالى-: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٦-١٤١].

يذكر -تعالى- ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم، وكيف سلبهم عزّهم ومالهم وأنفسهم، وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم؛ كما قال: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الشعراء:٥٩]، وقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص:٥]، وقال هاهنا: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٧]؛ أي: أهلك ذلك جميعه، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدّنيا، وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده، ولم يبق ببلد مصر سوى العامّة والرّعايا.

ذكر ابن عبد الحكم في « تاريخ مصر »[1]: أنه من ذلك الزمان تسلّط نساء مصر على رجالها؛ بسبب أنّ نساء الأمراء والكبراء تزوّجن بمن دونهنّ من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم؛ واستمرّت هذه سُنَّةُ نساء مصر إلى يومنا هذا !

وقد قال الله -تعالى- في كتابه العزيز المهيمن على ماعداه من الكتب: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٨-١٣٩].

قالوا هذا الجهل والضلال، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ما دلّهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام! وذلك أنّهم مرّوا على قوم يعبدون أصناماً، قيل: كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم: لِمَ يعبدونها ؟ فزعموا لهم: أنّها تنفعهم وتضرُّهم ويسترزقون بها عند الضروريات ! فكأنّ بعض الجهَّال منهم صدَّقوهم في ذلك، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة؛ فقال لهم مبيناً لهم إنّهم لا يعقلون ولا يهتدون: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾، ثم ذكّرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إيّاهم على عالمي زمانهم؛ بالعلم، والشّرع، والرسول الذي بين أظهرهم، وما أحسن به إليهم، وما امتن به عليهم؛ من إنجائهم من قبضة فرعون الجبّار العنيد، وإهلاكه إياه وهم ينظرون، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال والسّعادة، وما كانوا يعرشون، وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلاّ لله وحده لا شريك له؛ لأنه الخالق الرازق القهّار.

وليس كلُّ بني إسرائيل سأل هذا السؤال، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾؛ أي: قال بعضهم؛ كما في قوله: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾

---

(١) (ص ٢٨).

[الكهف:٤٧-٤٨]؛ فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلُّهم.

عن أبي واقد الليثي؛ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حنين، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله ! اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط! وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها؛ فقال النبي ﷺ: « الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم »[1].

[نكول بني اسرائيل عن قتال الجبارين]

والمقصود: أن موسى -عليه السلام-؛ لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس؛ وجد فيها قوماً من الجبّارين، من الحثيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم، فأمرهم موسى -عليه السلام- بالدّخول عليهم ومقاتلتهم، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس؛ فإن الله كتبه لهم، ووعدهم إيّاه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم الجليل، فأبوا ونكلوا عن الجهاد، فسلّط الله عليهم الخوف، وألقاهم في التّيه يسيرون ويحلُّون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون، في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٧٦٣)، و «التفسير» (١/ ٢/ ٢٣٥)، والنسائي في « التفسير » (٢٠٥)، والترمذي (٢١٨٠)، والطبري (٩/ ٣١و٣١-٣٢)، والطيالسي (١٣٤٦)، والحميدي (٨٤٨) وغيرهم كثير بطرق عن الزهري به.

قلت: وسنده صحيح؛ صححه الترمذي وشيخنا الألباني -رحمهما الله-.

دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

يذكِّرهم نبيُّ الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنِّعم الدينيَّة والدنيويَّة، ويأمُرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه؛ فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ ﴾؛ أي: تنكصوا على أعقابكم، وتنكلوا عن قتال أعدائكم ﴿ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾؛ أي: فتخسروا بعد الرِّبح، وتنقصوا بعد الكمال.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾؛ أي: عتاة كفرة متمرِّدين ﴿ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾؛ خافوا من هؤلاء الجبَّارين؛ وقد عاينوا هلاك فرعون؛ وهو أجبر من هؤلاء، وأشد بأساً، وأكثر جمعاً وأعظم جنداً ! وهذا يدل على أنَّهم ملومون في هذه المقالة، ومذمومون على هذه الحالة؛ من الذِّلَّة عن مصاولة الأعداء، ومقاومة المردة الأشقياء.

وقد ذكر كثير من المفسِّرين هاهنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة، يدل العقل والنقل على خلافها؛ من أنَّهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جدّاً حتى إنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لَمَّا قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين، فجعل يأخذهم واحداً واحداً، ويَلفُّهم في أكمامه وحُجْزِهِ سراويله، وهم اثنا عشر رجلاً، فجاء بهم، فنثرهم بين يدي ملك الجبارين، فقال: ما هؤلاء ؟ ولم يعرف أنَّهم من بني آدم حتى عرَّفوه ! وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها.

وأن الملك بعث معهم عنباً ، كلُّ عنبة تكفي الرجل، وشيئاً من ثمارهم؛ ليعلموا ضخامة أشكالهم ! وهذا ليس بصحيح.

وذكروا هاهنا أن عُوَجَ بن عنق خرج من عند الجبَّارين إلى بني إسرائيل

ليهلكهم، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع! هكذا ذكره البغوي[١] وغيره ! وليس بصحيح؛ كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن»[٢].

قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل، فاقتلعها، ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى، فجاء طائر، فنقر تلك الصخرة ، فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق، ثم عمد موسى إليه، فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشر أذرع، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع، فوصل إلى كعب قدمه، فقتله.

يروى هذا عن نوف البكالي، ونقله ابن جرير[٣] عن ابن عباس، وفي إسناده إليه نظر، ثم هو مع هذا كلّه من الإسرائيليات، وكل هذه من وضع جهال بني إسرائيل؛ فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم، ولا تميز لهم بين صحتها وباطلها.

ثم لو كان هذا صحيحاً؛ لكان بنو إسرائيل معذورين في النُّكول عن قتالهم، وقد ذمهم الله على نكولهم، وعاقبهم بالتِّيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم! وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام، ونهياهم عن الإحجام، ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾؛ أي: يخافون الله، وقرأ بعضهم: ﴿ يُخَافُونَ ﴾؛ أي: يهابون؛ ﴿ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾؛ أي: بالإسلام والإيمان والطّاعة والشّجاعة: ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه؛ نصركم على عدوّكم وأيّدكم عليهم وأظفركم بهم.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾؛ فصمّم ملؤهم على النكول عن الجهاد، ووقع أمر عظيم ووهن كبير.

---

(١) كما في «معالم التنزيل» (٢/ ٢٥٣).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٦٨).

(٣) في «جامع البيان» (٤/ ٥١٥)، و«تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٤٣١).

عن طارق - هو ابن شهاب -: أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله! إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون.

وله طرق أخرى: عن طارق بن شهاب؛ قال: قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه-، لقد شهدت من المقداد مشهدا؛ لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله ! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك[1].

عن أنس: أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر؛ استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم، فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار ! إياكم يريد رسول الله ﷺ، قالوا: إذا؛ لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾، والذي بعثك بالحق؛ لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد؛ لاتبعناك[2].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩و٤٢٨و٤٥٠)، والبخاري (٣٩٥٢و٤٦٠٩).

(٢) صحيح- أخرجه ابن مردويه في « تفسيره» ؛ كما في « تفسير القرآن العظيم » للمصنف (٢/ ٤٠)، وأحمد (٣/ ١٠٥و١٨٨)، والنسائي في « التفسير» (١٦١)، وأبو يعلى في «المسند »(٣٧٦٦و٣٨٠٣)، وابن حبان في « صحيحه» (٤٧٢١-إحسان).

قلت: وسنده صحيح.

فصل في دخول بني إسرائيل التيه
وما جرى لهم فيه من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكول بني إسرائيل عن قتال الجبّارين، وأن الله -تعالى- عاقبهم بالتِّيه، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة.

ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصَّة نكولهم عن قتال الجبَّارين.

وقد قال الله -تعالى-: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه:٨٠-٨٢].

يذكر -تعالى- منّته وإحسانه إلى بني إسرائيل؛ بما أنجاهم من أعدائهم، وخلّصهم من الضّيق والحرج، وأنّه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطُّور الأيمن؛ أي: منهم؛ لِيُنزلَ عليه أحكاماً عظمية فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم، وأنه -تعالى- أنزل عليهم في حال شدّتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع منّاً من السماء؛ يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم، فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد، ومن ادّخر منه لأكثر من ذلك؛ فسد، ومن أخذ منه قليلاً ؛ كفاه، أو كثيراً؛ لم يفضل عنه، فيصنعون منه مثل الخبز، وهو في غاية البياض والحلاوة؛ فإذا كان من آخر النَّهار؛ غشيهم طيُر السَّلوى، فيقتنصون منها بلا كُلفةٍ ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم، وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام، وهو السَّحاب الذي يستر عنهم حرَّ الشمس وضوءها الباهر.

كما قال -تعالى- في سورة البقرة: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا

قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ إلى أن قال: ﴿ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة:٤٠-٦١].

فذكر -تعالى- إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المنّ والسَّلوى؛ طعامين شهيَّين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه، بل يُنزِّل اللهُ المنَّ باكراً، ويرسل عليهم طير السَّلوى عشياً، وأنبع الماء لهم بضرب موسى -عليه السلام- حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا، فتفجَّر منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط عين منه؛ تنبجس، ثم تنفجر ماء زلالاً، فيستقون؛ فيشربون ويسقون دوابَّهم، ويدخرون كفايتهم، وظلل عليهم الغمام من الحرّ.

وهذه نعم من الله عظيمة، وعطيات جسيمة؛ فما رعوها حقَّ رعايتها، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها، ثم ضجر كثير منهم منها وتبرَّموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها، مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها!

فقرَّعهم الكليم ووبخهم وأنَّبهم على هذه المقالة وعنَّفهم قائلاً: ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [البقرة:٦١]؛ أي: هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها، وإذا هبطتم إليها ؛ أي: ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها؛ تجدون بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنيَّة والأغذية الرديَّة، ولكنِّي لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ولا أُبلغكم ما تعنَّتُّم به من المنى.

وكلُّ هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنَّهم لم ينتهوا عمَّا نُهوا عنه؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه:٨١]؛ أي: فقد هلك، وحقَّ له والله الهلاك والدمار؛ وقد حلَّ عليه غضب الملك الجبَّار.

ولكنه -تعالى- مزج هذا الوعيد الشديد، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمرَّ على متابعة الشيطان المريد؛ فقال: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه:٨٢].

سؤال الرؤية

قال -تعالى-: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٢-١٤٧].

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد: الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذي الحجة[١].

فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر، وفي مثله أكمل الله -عز وجل- لمحمد ﷺ دينه، وأقام حجته وبراهينه.

والمقصود: أن موسى -عليه السلام- لما استكمل الميقات، وكان فيه صائماً، يقال: إنه لم يستطعم الطعام، فلما كمل الشهر؛ أخذ لحاء شجرة، فمضغه ليطيب ريح فمه، فأمره الله أن يمسك عشرا أخرى، فصارت أربعين ليلة؛ ولهذا ثبت في

(١) انظر: « جامع البيان » (٩/ ٣٢-٣٣).

الحديث: «أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[(١)].

فلمّا عزم على الذّهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل الجليل، وهو ابن أمه وأبيه، ووزيره في الدّعوة إلى مصطفيه، فوصّاه وأمره، وليس في هذا لعلوّ منزلته في نبوّته منافاة.

قال الله -تعالى-: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾؛ أي: في الوقت الذي أمر بالمجيء فيه ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أي: كلّمه الله من وراء حجاب؛ إلا أنه أسمعه الخطاب، فناداه وناجاه وقربه وأدناه، وهذا مقام رفيع ومعقل منيع، ومنصب شريف ومنزل منيف؛ فصلوات الله عليه تترى، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى.

ولّما أعطي هذه المنزلة العليّة والمرتبة السنية، وسمع الخطاب؛ سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار القويّ البرهان: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ثم بيّن -تعالى- أنّه لا يستطيع أن يثبت عند تجلّيه -تبارك وتعالى-؛لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشدُّ ثباتاً من الإنسان، لا يثبت عند التجلي من الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾: وفي الكتب المتقدّمة: أن الله -تعالى- قال له: يا موسى! إنه لا يراني حي إلاّ مات، ولا يابس إلا تدهده.

عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حجابه النّور -وفي رواية: النار-، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصرُهُ من خلقه»[(٢)].

ولهذا قال -تعالى-: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: قال مجاهد: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾؛ فإنه أكبرُ منك وأشدُّ خلقاً، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾؛ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدُكَّ على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل؛ فخر صعقاً.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- به.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٧٩).

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾؛ قال هكذا بأصبعه، ووضع النَّبيُّ ﷺ الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل[(١)].

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾؛ ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾: تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ﴿تبت إِلَيْكَ﴾؛ أي: فلست أسأل بعد هذا الرؤية ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾: أنه لا يراك أحد حيٌّ إلاّ مات، ولا يابس إلا تدهده.

وقد ثبت في «الصحيحين»[(٢)]، عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني من بين الأنبياء؛ فإن الناس يُصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق؛ فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟» لفظ البخاري، وفي أوله قصة اليهوديِّ الذي لطم وجهه الأنصاريُّ حين قال: لا، والذي اصطفى موسى على البشر؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيِّروني من بين الأنبياء».

وفي «الصحيحين»[(٣)] عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، وفيه: «لا تخيروني على موسى...» وذكر تمامه.

وهذا من باب: الهضم والتَّواضع، أو النَّهي عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبيَّة، أو: ليس هذا إليكم، بل الله هو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وليس ينال هذا بمجرَّد الرأي، بل بالتوقيف.

ومن قال: إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ باطلاعه على أفضليَّته عليهم كلِّهم؛ ففي قوله نظر؛ لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة،

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٣/ ١٢٥و٢٠٩)، والترمذي (٣٠٧٤)، والطبري في «جامع البيان» (٩/ ٣٧)، والحاكم(٢/ ٣٢٠و٥٧٧).

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

قلت: وهو كما قالا.

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).

وما هاجر أبو هريرة إلاّ عام حنين متأخراً، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا، والله أعلم.

ولا شكّ أنّه -صلوات الله وسلامه عليه- أفضل البشر؛ بل الخليقة. قال الله -تعالى-: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] وما كملوا إلا بشرف نبيهم.

وثبت بالتواتر عنه- صلوات الله وسلامه عليه-، أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[١]، ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون، حتى أولوا العزم الأكملون: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم.

وقوله ﷺ: «فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش - أي: آخذاً بها - فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟» :دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده؛ فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال، فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش.

قال الصادق المصدوق: «فلا أدري أصعق فأفاق قبلي»؟ أي: وكانت صعقته خفيفة؛ لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق، «أو جوزي بصعقة الطور» ؛ يعنى فلم يصعق بالكلية.

وهذا فيه شرف كبير لموسى -عليه السلام- من هذه الحيثية، ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه؛ ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة؛ لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال: لا، والذي اصطفى موسى على البشر، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى -عليه الصلاة والسلام-، فبين النبي ﷺ فضيلته وشرفه.

وقوله -تعالى-: ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى

---

(١) تقدم تخريجه (١٥٤).

وَبِكَلَـٰمِي ﴾؛ أي: في ذلك الزمان، لا ما قبله؛ لأن إبراهيم الخليل أفضل منه؛ كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم، ولا ما بعده؛ لأن محمدا ﷺ أفضل منهما؛ كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء؛ وكما ثبت أنه قال: «سأقوم مقاما يرغب إلي الخلق حتى إبراهيم»[١].

وقوله -تعالى-: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾؛ أي: فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام، ولا تسأل زيادة عليه، وكن من الشاكرين على ذلك.

وقال الله -تعالى-: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾: وكانت الألواح من جوهر نفيس؛ ففي «الصحيح»: «أن الله كتب له التوراة بيده»[٢]، وفيها مواعظ عن الآثام، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾؛ أي: بعزم ونية صادقة قوية ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾: أن يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾؛ أي: سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري المكذبين لرسلي.

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ﴾؛ أي: عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذي أريد منها ودل عليه مقتضاها ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾؛ أي: ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات؛ لا ينقادون لاتباعها ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾؛ أي: لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾؛ أي: صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير في معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

---

(١) تقدم تخريجه (ص ١٥٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٥٥).

قصة عبادتهم العجل في غيبة كليم الله موسى -عليه السلام- عنهم

قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨-١٥٤].

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ

يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾ [طه:٨٣-٩٨].

يذكر- تعالى- ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى -عليه السلام- إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى -عليه السلام- عن أشياء كثيرة وهو -تعالى- يجيبه عنها، فعمد رجل منهم يقال له: هارون السامري؛ فأخذ ما كانوا استعاروه من الحلي، فصاغ منه عجلاً ، وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه، فلما ألقاها في فيه؛ خار كما يخور العجل الحقيقي، كانت الريح إذا دخلت من دبره؛ خرجت من فمه، فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله ويفرحون! ﴿ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ [طـه:٨٨]؛ أي: فنسى موسى ربه عندنا ! وذهب يتطلبه وهو هاهنا!! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقدست أسماؤه وصفاته، وتضاعفت آلاؤه وهباته. قال الله- تعالى- مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من إلهية هذا الذي قصاراه أن يكون حيواناً بهيماً أو شيطاناً رجيماً: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه:٨٩]، وقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٨]؛ فذكر أن هذا الحيوان؛ لا يتكلم، ولا يرد جواباً، ولا يملك ضراً ولا نفعاً، ولا يهدي إلى رشد؛ اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم، عالمون في أنفسم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال.

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف:١٤٩]؛ أي: ندموا على ما صنعوا ﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

﴿ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٩].

ولما رجع موسى -عليه السلام- إليهم، ورأى ما هم عليهم من عبادة العجل، ومعه الألواح المتضمنة التوراة؛ ألقاها، فيقال: إنه كسرها- وهكذا هو عند أهل الكتاب[1]- وإن الله أبدله غيرها ! وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك. إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين. وعند أهل الكتاب: أنهما كانا لوحين! وظاهر القرآن أنها ألواح متعددة، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله -تعالى- عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك، ولهذا جاء في الحديث عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»[2].

ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح؛ قالوا: إنا ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه:٨٧]: تحرجوا من تملك حلي آل فرعون -وهم أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم- ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذي له خوار، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار !

ثم أقبل على أخيه هارون -عليهما السلام- قائلاً له: ﴿يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه:٩٢-٩٤]؛ أي: هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا! فقال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه:٩٤]؛ أي: تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝﴾ [الأعراف:١٥١].

وقد كان هارون -عليه السلام- نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي،

---

(١) (سفر الخروج: الإصحاح ٣٢).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد (١/ ٢٧١)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٣و٦٢١٤)، والبزار في «مسنده» (٢٠٠-كشف)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (٥)، وابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٩٦)، والحاكم(٢/ ٣٢١و٣٨٠) وغيرهم بسند صحيح.

وزجرهم عنه أتم الزجر؛ قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ [طه:٩٠] ؛ أي: إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾ [طه:٩٠]؛ أي: لا هذا ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ [طه:٩٠]؛ أي فيما أقول لكم ﴿ وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝ ﴾ [طه:٩٠-٩١]: يشهد الله لهارون -عليه السلام، ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ - أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه.

ثم أقبل موسى على السامري: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ۝ ﴾ [طه:٩٥]؛ أي: ما حملك على ما صنعت؟ ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [طه:٩٦] أي: رأيت جبريل وهو راكب فرساً ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ [طه:٩٦]؛ أي: من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه رآه، وكلما وطئت بحوافرها على موضع؛ أخضر وأعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه في هذا العجل المصنوع من الذهب؛ كان من أمره ما كان؛ ولهذا قال: ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ [طه:٩٦-٩٧] وهذا دعاء عليه بألا يمس أحداً؛ معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه، هذا معاقبة له في الدنيا، ثم توعده في الأخرى فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ -وقرئ: لن نخلفه[1]- وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾[طه:٩٧]: قال: فعمد موسى -عليه السلام- إلى هذا العجل، فحرقه؛ قيل: بالنار؛ كما قاله قتادة وغيره، وقيل: بالمبارد؛ كما قاله علي وابن عباس وغيرهما، وهو نص أهل الكتاب[2]. ثم ذراه في البحر، ثم قال -تعالى- إخباراً عن موسى أنه قال لهم: ﴿ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝ ﴾ [طه:٩٨].

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:١٥٢]:

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو.

(٢) (سفر الخروج: الإصحاح ٣٢).

وهكذا وقع، وقد قال بعض السلف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾: مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة.

ثم أخبر -تعالى- عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف:١٥٣]: لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:٥٤].

ثم قال- تعالى-: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٤] استدل بعضهم بقوله: ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾: على أنها تكسرت، وفي هذا الاستدلال نظر، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت، والله أعلم.

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون -كما سيأتي-: أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر، وما هو ببعيد؛ لأنهم حين خرجوا: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الأعراف:١٣٨]! وهكذا عند أهل الكتاب؛ فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلاد بيت المقدس.

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ

وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٧].

ذكر السدي وابن عباس وغيرهما أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناداب وأبيهو، ذهبوا مع موسى- عليه السلام- ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل، وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع؛ صعد موسى الجبل: فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله! وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين !! وحملوا عليه قوله -تعالى-: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٧٥]، وليس هذا بلازم؛ لقوله -تعالى-: ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٦]؛ أي: مبلغاً، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى -عليه السلام- وزعموا -أيضاً- أن السبعين رأوا الله، وهذا غلط منهم؛ لأنهم لما سألوا الرؤية؛ أخذتهم الرجفة؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦] وقال هاهنا: ﴿ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾؛ أي: اختبارك وابتلاؤك وامتحانك؛ قاله غير واحد من علماء السلف والخلف؛ يعني: أنت الذي قدرت هذا وخلقت ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما قال لهم هارون من قبل:﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ [طه:٩٠]؛ أي: اختبرتم.

ولهذا قال: ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ﴾ [الأعراف:١٥٥]؛ أي: من شئت أضللته باختبارك إياه، ومن شئت هديته؛ لك الحكم والمشيئة، ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٥٥]؛ أي: تبنا إليك ورجعنا وأنبنا؛ قاله غير واحد، وهو كذلك في اللغة.

﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

[الأعراف:١٥٦]؛ أي: أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدرها ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾؛ كما ثبت في «الصحيحين»[1] عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»؛ ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦]؛ أي: فسأوجبها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف:١٥٧] الآية.

وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى -عليه السلام- في جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه؛ وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في «التفسير»[2] بما فيه كفاية ومقنع، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى -عليه السلام-، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها، ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه وحسن هدايته ومعونته وتأييده.

عن المغيرة بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ: «إن موسى -عليه السلام- سأل ربه -عز وجل-: أي أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال: رجل يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول: نعم أي رب. فيقال: لك هذا ومثله ومثله ومثله. فيقول: أي:رب ! رضيت. فيقال له:إن لك هذا وعشرة أمثاله. فيقول: أي رب! رضيت. فيقال له: لك مع هذا ما اشتهت نفسك ولذت عينك. وسأل ربه: أي أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال: سأحدثك عنهم: غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها؛ فلا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

---

(١) أخرجه البخاري(٣١٩٤)، ومسلم(٢٧٥١) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

(٢) (٣/ ٦٣١- وما بعدها).

بشر»[١].

ومصداق ذلك في كتاب الله -عز وجل-: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة:١٧].

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سأل موسى ربه -عز وجل- عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها؟ قال: يارب! أي! عبادك أتقى ؟ قال: الذي يذكر ولا ينسى. قال: فأي عبادك أهدى ؟ قال: الذي يتبع الهدى. قال: فأي عبادك أحكم ؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه. قال: فأي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم؛ يجمع علم الناس إلى علمه. قال: فأي عبادك أعز ؟ قال: الذي إذا قدر غفر. قال: فأي عبادك أغنى ؟ قال: الذي يرضى بما يؤتى. قال: فأي عبادك أفقر ؟ قال: صاحب منقوص».

قال رسول الله ﷺ: « ليس الغني عن ظهر، إنما الغني غني النفس، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه، وإذا أراد بعبد شراً؛ جعل فقره بين عينيه»[٢].

قال ابن حبان: قوله: «صاحب منقوص» يريد به منقوص حالته، يستقل ما أوتي ويطلب الفضل.

عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: أنه قال: «قال موسى: يارب! علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يارب! كل عبادك يقول هذا. قال: قل لا إله إلا الله. قال: إنما أريد شيئاً تخصني به. قال: يا موسى! لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة؛ مالت بهم لا إله إلا الله»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم(١٨٩)، والترمذي(٣١٩٨)، وابن حبان (٦٢١٦و٧٤٢٦).

(٢) حسن- أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (٦٢١٧) بسند حسن؛ لأن رجاله ثقات إلا دراجاً أبا السمح، فحديثه عن أبي الهيثم ضعيف، وأما عن غيره؛ فحسن، وهذا منها، فتدبر.

(٣) حسن لغيره- أخرجه ابن حبان (٦٢١٨-إحسان)، والنسائي في « عمل اليوم والليلة» (٨٣٤و١١٤١)، وأبو يعلى في « المسند » (١٣٩٣)، والطبراني في «الدعاء » =

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة(١).

وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في «السنن» عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الدعاء دعاء عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»(٢).

وقال الله- تعالى-: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٤ ﴾ [البقرة:٦٣-٦٤].

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١ ﴾ [الأعراف:١٧١].

قال ابن عباس وغير واحد من السلف: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة؛ أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم، فقالوا: أنشرها علينا؛ فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة؛ قبلناها ! فقال: بل اقبلوها بما فيها !فراجعوه مراراً!! فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة - أي: غمامة - على رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها، وإلا؛ سقط هذا الجبل عليكم. فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود؛ فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سنة لليهود إلى اليوم؛ يقولون: لا سجدة أعظم من سجدة رفعت عنا العذاب.

= (١٤٨٠و١٤٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٢٨)، والحاكم (١/ ٥٢٨) وغيرهم كثير بسند ضعيف؛ ضعفه الهيثمي، وشيخنا الألباني.

وصح نحوه عن نوح -عليه السلام-: انظر «الصحيحة» (١٣٤).

لكن يشهد له ما بعده؛ كما قال المصنف -رحمه-.

(١) صحيح- أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد(٢/ ٢١٣و ٢٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٥) وغيرهم. قلت: وهو حديث صحيح؛ صححه الترمذي وابن حبان والحاكم والذهبي والمنذري وشيخنا وغيرهم.

(٢) صحيح- أخرجه الترمذي (٣٥٨٥)، وصححه بمجموع شواهده شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة» (١٥٠٣).

قال الله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٦٤]؛ أي: ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [البقرة:٦٤]: بأن تدارككم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم؛ ﴿ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [البقرة:٦٤].

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة:٦٧-٧٣].

قال غير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخا كبيرا، وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته؛ ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق، ويقال: على باب رجل منهم.

فلما أصبح الناس؛ اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه، فجعل يصرخ ويتظلم! فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله ؟ فجاء ابن أخيه، فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى-عليه السلام- فقال موسى -عليه السلام-: أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به: فلم يكن عند أحد منهم علم منه، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه -عز وجل-، فسأل ربه -عز وجل- في ذلك؟ فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾؛ يعنون: نحن نسألك عن أمر هذا القتيل، وأنت تقول لنا هذا؟ ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾؛ أي: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحي إلي، وهذا هو الذي أجابني حين سألته عما سألتموني أن أسأله فيه.

قال ابن عباس[١] وعبيدة[٢] ومجاهد[٣] وعكرمة[٤] وغير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أيِّ بقرة فذبحوها؛ لحصل المقصود منها، ولكن شددوا؛ فشدد عليهم. وقد ورد فيه حديث مرفوع، وفي إسناده ضعف. فسألوا عن صفتها؟ ثم عن لونها؟ ثم عن سنها؟ فأجيبوا بما عز وجوده عليهم. وقد ذكرنا تفسير ذلك كله في «التفسير».

والمقصود: أنهم أمروا بذبح بقرة عوان، وهي الوسط النصف بين الفارض (وهي الكبيرة)، والبكر (وهي الصغيرة)؛ قاله جماعة[٥]. ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم، فسألوا عن لونها؟ فأمروا بصفراء فاقع لونها؛ (أي: مشرب بحمرة) تسر الناظرين. وهذا اللون عزيز. ثم شددوا -قالوا- ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾: وهذه الصفات أضيق مما تقدم، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول، (وهي المذللة بالحراثة وسقي الأرض بالسانية)، مسلمة (وهي الصحيحة التي لا عيب فيها)؛ قاله قتادة[٦]، وقوله: ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾؛ أي: ليس فيها لون يخالف لونها، بل هي مسلمة من العيوب، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها.

فلما حددها بهذه الصفات، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف؛ ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾:

فأمرهم نبي الله بذبحها ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾؛ أي: وهم يترددون في أمرها.

ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها؛ فلما ضربوه ببعضها

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٢٣٥) بسند صحيح، وصححه المصنف في «التفسير» (١/ ١١٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٢٣٦-١٢٣٨) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الطبري (١٢٤٠-١٢٤٢) بسند صحيح.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١/ ١/ ٥٠)، والطبري (١٢٣٩) بسند صحيح.

(٥) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١١٤).

(٦) أخرجه الطبري (١٢٥٨و١٢٥٩)، وابن أبي حاتم (٧٣٨) بسند صحيح.

أحياه الله- تعالى-، فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبي الله موسى: مــن قتلـك ؟ قال: قتلني ابن أخي. ثم عاد ميتاً كما كان.

قـال الله -تعـالى-: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾؛ أي: كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له، كذلك أمره في سائر الموتى؛ إذا شاء إحياءهم؛ أحياهم في ساعة واحـدة؛ كمـا قـال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان:٢٨].



قصة موسى والخضر -عليهما السلام-

قــال الله -تعــالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ

كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[الكهف: ٦٠-٨٢].

قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا -الذي رحل إلى الخضر- هو موسى ابن منسا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم وينقل عن كتبهم! منهم نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي- ويقال: إنه دمشقي- وكانت أمه زوجة كعب الأحبار!

والصحيح: الذي دل عليه سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل.

روى البخاري[1]: عن سعيد بن جبير؛ قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو صاحب بني إسرائيل؟ فقال ابن عباس: كذب عدو الله ! حدثنا أبي بن كعب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا؛ فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب! فكيف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتاً، فتجعله في مكتل؛ فحيثما فقدت الحوت، فهو ثم. فأخذ حوتاً فجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة؛ وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، واتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ؛ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد؛ قال موسى لفتاه: ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾. قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، فقال له فتاه: ﴿ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾. قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً. فقال

(١) في «صحيحه» (٤٧٢٥)، وأخرجه -أيضاً- (٤٧٢٦و٤٧٢٧) ، ومسلم(٢٣٨٠).

له موسى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

قال: « فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام ؟! قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ يا موسى! إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾. فقال له الخضر: ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا ﴾ يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم! فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول؛ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها؛ ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾. قال: وقال رسول الله ﷺ: فكانت الأولى من موسى نسياناً. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل؛ إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله! فقال له موسى: ﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ ﴾؛ قال: وهذه أشد من الأولى ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ قال: مائل، فقام الخضر؛ ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ بيده؛ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا؛ ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ

تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما ».

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) وكان يقرأ:(وأمَّا الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين).

وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف، ولله الحمد.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾: ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾: فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، والله المستعان.

وقوله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف:٨٢]: دليل على أنه كان نبياً، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه، بل بأمر ربه؛ فهو نبي.

وقد قال الله -تعالى-: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران:٨١]؛ فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يجيء بعده من الأنبياء وينصره، واستلزم ذلك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ؛ لأنه خاتم الأنبياء، فحق على كل نبي أدركه أن يؤمن به وينصره، فلو كان الخضر حياً في زمانه، لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره، ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر، كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة.

وقصارى الخضر -عليه السلام- أن يكون نبياً وهو الحق، أو رسولاً كما قيل، أو ملكاً فيما ذكر، وأياً ما كان؛ فجبريل رئيس الملائكة، وموسى أشرف من الخضر، ولو كان حياً؛ لوجب عليه الإيمان بمحمد ونصرته؛ فكيف إن كان الخضر ولياً كما يقوله طوائف كثيرون ؟! فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى.

ولم ينقل في حديث حسن؛ بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى

رسول اللهﷺ، ولا اجتمع به، وما ذكر من حديث التعزية فيه؛ فإسناده ضعيف[1]، والله أعلم.

وسنفرد للخضر ترجمة على حدة بعد هذا.

(١) بل موضوع.

ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون
المتضمن قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها

روى الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب «التفسير» من «سننه» عند قوله -تعالى- في سورة طه [٤٠]: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾: حديث الفتون: عن سعيد بن جبير؛ قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله -تعالى- لموسى: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ فسألته عن الفتون: ما هي ؟ فقال: استأنف النهار يا ابن جبير؛ فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت؛ غدوت إلى ابن عباس لأتنجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال:

تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم -عليه السلام- أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك؛ قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم! فقال فرعون: فكيف ترون ؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل؛ فلا يجدون مولوداً ذكراً؛ إلا ذبحوه! ففعلوا ذلك.

فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون؛ قالوا: توشكون أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم ! فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر؛ فيقل نباتهم، ودعوا عاماً ؛ فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرهم إياكم، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم؛ فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يقتل فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل؛ حملت بموسى - عليه السلام-، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جبير! ما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به. فأوحى الله إليها أن ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

﴿ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم. فلما ولدت، فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها؛ أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني ؟! لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه!

فانتهى الماء به حتى أوفى عند فُرضة[1] تستقي منها جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن في هذا مالاً، وإنا إن فتحناه؛ لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه. فحملنه كهيئته؛ لم يخرجن منه شيئاً حتى دفعنه إليها. فلما فتحته؛ رأت فيه غلاماً، فألقى الله عليه منها محبة لم يُلق منها على أحد قط .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ﴾ من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى. فلما سمع الذباحون بأمره؛ أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون؛ ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير !

فقالت لهم: أقروه؛ فإنه هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، حتى آتي فرعون فأستوهبه منه؛ فإن وهبه مني؛ كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه؛ لم ألمكم. فأتت فرعون فقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾. فقال فرعون: يكون لك، فأما لي؛ فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: « والذي يُحْلَف به؛ لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته؛ لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك » .
فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها؛ لأن تختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه؛ لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك؛ فأمرت به، فأخرج إلى السوق ومجمع الناس؛ ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل.

وأصبحت أم موسى والهاً[2]، فقالت لأخته: قصّي أثره واطلبيه؛ هل تسمعين له ذكراً ؟ أحي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه.

---

(١) ثغرة.

(٢) شديدة الحزن كثيرة الجزع.

فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤورات أنا: ﴿ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ فأخذوها، فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك! وذلك من الفتون يا ابن جبير ! فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها، نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه رياً.

وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها؛ قالت: امكثي؛ ترضعي ابني هذا؛ فإني لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتى وولدي فيضيع؛ فإن طابت نفسك أن تعطينيه، فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا آلوه خيراً؛ فعلت؛ فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز موعوده، فرجعت إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السُخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع؛ قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني، فوعدتها يوماً تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤورها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة؛ لأرى ذلك فيه وأنا باعثة أميناً يحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم! فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها؛ نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه؛ لحسن أثرها عليها. ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه.

فلما دخلت به عليه؛ جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون، فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه؟! إنه زَعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك ! فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يا ابن جبير ! بعد كل بلاء ابتلي به وأريد به. فجاءت امرأة فرعون تسعى

إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟! فقال: ألا ترينه يزعم أن يصرعني ويعلوني ؟ فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً؛ تعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه؛ فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين؛ عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين؛ علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين! فانتزعهما منه مخافة أن تحرقا يده ! فقالت المرأة: ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال؛ لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع.

فبينما موسى -عليه السلام- يمشي في ناحية المدينة؛ إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم؛ لا يعلم الناس إلا أنه من الرضاع؛ إلا أم موسى؛ إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله -عز وجل- والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾، ثم قال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ الأخبار.

فأُتي فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون؛ فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم! فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه؛ فإن الملك؛ وإن كان صَفْوُة مع قومه؛ لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثبت؛ فاطلبوا لي علم ذلك؛ آخذ لكم بحقكم !

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة؛ إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجل من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى وقد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي

وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾! فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال؛ فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قاله له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده، إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾؟ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا. وانطلق الفرعوني، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾.

فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصا المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير !

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين؛ لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه - عز وجل-؛ فإنه قال: ﴿ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾؛ يعني: بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى فاستظل بشجرة، وقال: ﴿ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾.

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً[١] بطاناً[٢]، فقال: إن لكما اليوم لشأناً! فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته. فلما كلمه، قال: ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ليس

---

(١) ممتلئة الضروع باللبن.

(٢) ممتلئة البطون بالطعام.

لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾. فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟! فقالت: أما قوته؛ فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة؛ فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين. فسري عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك ﴿ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ففعل فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة، وكانت السنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته؛ فأتمها عشراً.

قال سعيد - وهو ابن جبير -: لقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم، فقال: هل تدرى أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس، فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبي الله واجبة؛ لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً ، وتعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي وعده؟! فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصرانيّ فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك؟ قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله؛ كان من أمر النار والعصا ويده، ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله -تعالى- مايتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءاً[1]، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه الله -عز وجل- سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون؛ فأمره أن يلقاه.

فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا: ﴿ إِنَّا رَسُولَا

---

(١) ناصراً ومعيناً ومساعداً.

رَبِّكَ ﴾ ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن. قال: فما تريدان ؟ وذكره القتيل. فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل. فأبى عليه، وقال: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فألقى عصاه فإذا هي حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه، خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه! ففعل. ثم أخرج يده من جيبه، فرآها بيضاء من غير سوء؛ يعني: من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول.

فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له: ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش. وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة؛ فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما!

فأرسل إلى المدائن؛ فحشر له كل ساحر متعلم، فلما أتوا فرعون؛ قالوا: بم يعمل هذا الساحر ؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله، ما أحد في الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل، فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا: ﴿ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾. قال سعيد: فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة- اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة- هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيد؛ قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا؛ فلنحضر هذا الأمر؛ ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾! يعنون: موسى وهارون؛ استهزاء بهما! فقالوا: يا موسى- بعد تريثهم بسحرهم-؛ ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾. قال بل ألقوا! ﴿ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾! فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾! فلما ألقاها؛ صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصا تلتبس بالحبال، حتى صارت جرزاً[1] إلى

---

(١) حزماً وجماعات.

الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته!! فلما عرف السحرة ذلك؛ قالوا: لو كان هذا سحراً؛ لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله -تعالى-، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه؛ فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

وامرأة فرعون بارزة متبذّلة[1] تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه؛ فمن رآها من آل فرعون؛ ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمّها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية؛ وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل؛ فإذا مضت؛ أخلف موعده؛ وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟! فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات؛ كل ذلك يشكو إلى موسى، ويطلب إليه أن يكفها عنه؛ ليوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل؛ فإذا كف ذلك عنه؛ أخلف بوعده ونكث عهده!!

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلاً؛ فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا؛ أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك موسى عبدي بعصاه؛ فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه! فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا، وانتهى إلى البحر وله قصيف[2]؛ مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل؛ فيصير عاصياً لله -عز وجل- فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ افعل ما أمرك به ربك؛ فإنه لم يكذب ولم تكذب! قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر؛ انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون

---

(١) غير معتنية بثيابها وزينتها.

(٢) صوت شديد يشبه صوت الرعد.

من أواخر جند موسى. فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه؛ التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر؛ قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه! فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم؛ ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم!

ومضى فأنزلهم موسى منزلاً؛ وقال: أطيعوا هارون؛ فإن الله قد استخلفه عليكم؛ فإني ذاهب إلى ربي! وأجَّلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها.

فلما أتى ربه- عز وجل- وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض، فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت ؟ -وهو أعلم بالذي كان - قال: يارب! إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك! ارجع فصم عشراً ثم ائتني! ففعل موسى ما أمره به ربه.

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل؛ ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم فقال: إنكم خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع، ولكم فيها مثل ذلك وأنا أرى أن تحتسبوا ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا. فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار؛ فأحرقه، فقال: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا فقضي له أن رأى أثراً، فقبض منه قبضة فمر بهارون، فقال له هارون: يا سامري! ألا تلقي ما في يديك ؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك. فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي

جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء؛ إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون. فقال: أريد أن تكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف، ليس فيه روح وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله؛ ما كان فيه صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك!

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامري! ما هذا؛ وأنت أعلم به ؟ قال: هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق! وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى؛ فإن كان ربنا؛ لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا؛ فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا، ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل وأعلنوا عدم التكذيب به. فقال لهم هارون -عليه السلام-: ﴿ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴾، ليس هذا! قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا ؟! هذه أربعون يوماً قد مضت. وقال سفهاؤهم: أخطأ ربَّه فهو يطلبه ويبتغيه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال؛ أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ﴾، فقال لهم ما سمعتم في القرآن ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له، وانصرف إلى السامري، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾، وفطنت لها وعميت عليكم، ﴿ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ ولو كان إلهاً ؛ لم يخلص إلى ذلك منه.

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى! سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا

ما عملنا.

فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك، لا يألوا الخير، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في الحق، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله -عليه السلام- من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به؛ لذلك رجفت بهم الأرض فقال: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

فقال: يارب! سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي! فليتك أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم! فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى -عليه السلام- متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذي أمر به من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقروا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل؛ مخافة أن يقع عليهم.

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون؛ خلقهم خلق منكر، وذكروا من ثمارهم أمراً عجباً من عظمها. فقالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾. ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾؛ قيل ليزيد: هكذا قرأه ؟ قال: نعم، من الجبارين، آمنا بموسى وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا؛ إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم؛ فإنهم لا

قلوب لهم ولا منعة عندهم. فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه؛ فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى.

فقال الذين يخافون من بني إسرائيل: ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ فأغضبوا موسى، فدعا عليهم، وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ، فاستجاب الله له، وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ يصبحون كل يوم، فيسيرون، ليس لهم قرار.

ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها؛ فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدّق ذلك عندي: أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل، فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك ؟! فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية، وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق! هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني ؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره.

هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في « تفسيرهما » من حديث يزيد بن هارون، والأشبه - والله أعلم - أنه موقوف[1]، وكونه مرفوعاً فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات، وفيه شيء

(١) أخرجه النسائي في « تفسيره » (٢/ ٤١-٦٢/ ٣٤٦)، والطبري في « جامع البيان »
=

يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار، وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك، والله -سبحانه وتعالى- أعلم[1].

= (١٦/ ١٢٥) وابن أبي حاتم في « تفسيره »؛ كما في « تفسير القرآن العظيم » (٥/ ٣٧٧)، والطحاوي في « مشكل الآثار » (٦٦)، وأبو يعلى في « مسنده » (٢٦١٨)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ٤٠٠)، وأحمد بن منيع في «مسنده»؛ كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٨/ ١١١-١٢٣/ ٧٧٤٨-ط الرشد) وغيرهم بسند رجاله ثقات؛ كما قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٧/ ٦٩).

قال الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » (٦/ ٤٢٧): « لمح المصنف بهذه التفاسير، لما جرى لموسى في خروجه إلى مدين، ثم رجوعه إلى مصر، ثم في إخباره مع فرعون، ثم في غرق فرعون، ثم في ذهابه إلى الطور، ثم في عبادة بني اسرائيل العجل، وكأنه لم يثبت عنده في ذلك من المرفوعات ما هو على شرطه، وأصح ما ورد في جميع ذلك ما أخرجه النسائي وأبو يعلى بإسناد حسن عن ابن عباس في حديث الفتون الطويل ».

قلت: وقد رجّح المصنف، وشيخه المزي وقفه، وأن غالبه متلقى من الإسرائيليات، وليس كذلك -عندي- للوجوه الآتية:

١- التصريح برفعه إلى رسول الله ﷺ.

٢- أن مثله لا يقال بالرأي والاجتهاد.

٣- أن ابن عباس صح عنه عدم الأخذ عن أهل الكتاب، ونهى المسلمين عن ذلك؛ كما عند البخاري.

(١) ونحوه قال المصنف- رحمه الله- في « تفسيره » (٥/ ٣٧٧).

ذكر بناء قبة الزمان

قال أهل الكتاب(١): وقد أمر الله موسى -عليه السلام- بعمل قبة من خشب الشمشاز وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بزينتها بالحرير المصبغ والذهب والفضة على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب، ولها عشر سرادقات؛ طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع، ولها أربعة أبواب وأطناب من حرير ودمقس مصبغ، وفيها رفوف وصفائح من ذهب وفضة، ولكل زاوية بابان وأبواب أخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يطول ذكره.

وبعمل تابوت من خشب الشمشاز يكون طوله ذراعين ونصفاً، وعرضه ذراعاً ونصفاً، وارتفاعه ذراعاً ونصفاً، ويكن مضبباً بذهب خالص من داخله وخارجه، وله أربع حلق في أربع زواياه، ويكون على حافتيه كروبيان من ذهب - يعنون صفة ملكين بأجنحة - وهما متقابلان؛ صنعة رجل اسمه: بصلئيل.

وأمره أن يعمل مائدة من خشب الشمشاز، طولها ذراعان، وعرضها ذراع ونصف، وارتفاعها ذراع ونصف، لها ضباب ذهب وإكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب، وأربع حلق من نواحيها من ذهب، مغرزة في مثل الرمان من خشب ملبس ذهباً، وأن يعمل صحافاً ومصافي وقصاعاً على المائدة.

ويصنع منارة من الذهب، دلي فيها ست قصبات من ذهب، من كل جانب ثلاثة، على كل قصبة ثلاثة سرج، وليكن في المنارة أربع قناديل، ولتكن هي وجميع هذه الآنية من قنطار ذهب.

ونصبت هذه القبة أول يوم من سنتهم، وهو أول يوم من الربيع، ونصب تابوت الشهادة، وهو - والله أعلم - المذكور في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ءَايَةَ

---

(١) (سفر الخروج: الإصحاح ٢٥-٣١).

قلت: وليس في الإسلام خبر ينفي بناء هذه القبة، وأما التابوت ففي قصة طالوت ما يشير إليه، والله أعلم.

مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٨].

وقد بسط هذا الفصل في كتابهم مطولاً جداً، وفيه شرائع لهم وأحكام وصفة قربانهم وكيفيته، وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها وإليها ويتقربون عندها، وأن موسى -عليه السلام- كان إذا دخلها؛ يقفون عندها، وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سجداً لله - عز وجل-، ويكلم الله موسى - عليه السلام- من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه ويأمره وينهاه وهو واقف عند التابوت صامد إلى ما بين الكروبين؛ فإذا فصل الخطاب؛ يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله -عز وجل- إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء؛ يجيء إلى قبة الزمان، ويقف عند التابوت، ويصمد لما بين ذينك الكروبين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة.

وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم؛ أعني: استعمال الذهب والحرير المصبغ واللآلئ في معبدهم وعند مصلاهم. فأما في شريعتنا؛ فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها[1]؛ لئلا تشغل المصلين؛ كما قال عمر بن الخطاب[2] -رضي الله عنه- لما وسع مسجد رسول الله ﷺ للذي وكله على عمارته: ابن للناس ما يكنهم، وإياك أن تحمر أو تصفر؛ فتفتن الناس! وقال ابن عباس[3]: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم! وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه؛ فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم؛ إذ جمع الله هممهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه، وصان أبصارهم وخواطرهم

---

(١) حسن - كما في «الصحيحة» لشيخنا -رحمه الله- (١٣٥١).

(٢) علقه البخاري (١/ ٥٣٩).

(٣) صحيح- كما بينته في كتابي «موسوعة المناهي الشرعية» (١/ ٣٥٣).

عن الاشتغال والتفكير في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة، فلله الحمد والمنة.

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه، يصلون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم، وإمامهم كليم الله موسى -عليه السلام-، ومقدم القربان أخوه هارون -عليه السلام-، فلما مات هارون ثم موسى -عليهما السلام-؛ استمر بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القربان، وهو فيهم إلى الآن.

وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون -عليه السلام- وهو الذي دخل بهم بيت المقدس.

والمقصود هنا: أنه لما استقرت يده على البيت المقدس؛ نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلون إليها؛ فلما بادت؛ صلوا إلى محلتها وهي الصخرة؛ فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ.

وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليه ستة عشر - وقيل سبعة عشر شهراً-، ثم حولت القبلة إلى الكعبة - وهي قبلة إبراهيم- في شعبان سنة اثنتين في وقت صلاة العصر، وقيل: الظهر[1]؛ كما بسطنا ذلك في «التفسير»[2] عند قوله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة:١٤٢-١٤٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٠و٣٩٩و٤٤٩٢و٧٢٥٢)، و «صحيح مسلم» (٥٢٥).
(٢) (١/ ٢٧٣-٢٨٢).

قصة قارون مع موسى -عليه السلام-

قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٧٦-٨٣].

عن ابن عباس؛ قال: كان قارون ابن عم موسى[١]. وكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج. قال ابن جرير[٢]: وهذا قول أكثر أهل العلم؛ أنه كان ابن عم موسى. قال قتادة[٣]: وكان يسمى المنور؛ لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٠/ ٧٥) بسند حسن.

(٢) في «تاريخ الأمم والملوك» (١/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه الطبري(٢٠/ ٦٧) بسند صحيح.

نافق السامري، فأهلكه البغي؛ لكثرة ماله.

وقد ذكر الله -تعالى- كثر كنوزه، حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها على الفئام[١] من الرجال الشداد، وقد قيل: إنها كانت من الجلود، وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً، فالله أعلم.

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين: ﴿ لَا تَفۡرَحۡ ﴾؛ أي: لا تبطر بما أعطيت، وتفخر على غيرك؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾: يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة؛ فإنه خير وأبقى، ومع هذا: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾؛ أي: وتناول منها بمالك ما أحل الله لك؛ فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال، ﴿ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾؛ أي: وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك، ﴿ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ أي: ولا تسئ إليهم ولا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم؛ فيعاقبك ويسلبك ما وهبك، . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾.

فما كان جوابه لقومه على هذه النصيحة الصحيحة الفصيحة؛ إلا أن ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾؛ يعني: أنا لا أحتاج إلى استماع ما ذكرتم، ولا إلى ما إليه أشرتم؛ فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه وأني أهل له، ولولا أني حبيب إليه وحظي عنده؛ لما أعطاني ما أعطاني.

قال الله -تعالى- رداً عليه فيما ذهب إليه: ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾؛ أي: قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالاً وأولاداً؛ فلو كان ما قال صحيحاً؛ لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ [سبأ:٣٧] وقال -تعالى-: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ

(١) العصبة.

مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [المؤمنون:٥٥].

وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، وأما من زعم أن المراد من ذلك: أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم؛ فاستعمله في جمع الأموال؛ فليس بصحيح؛ لأن الكيمياء[1] تخييل وصبغة لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق. والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر. ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم، وقد وضحنا هذا في كتابنا «التفسير» [2]، ولله الحمد.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ﴾: ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم؛ من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا؛ تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوا بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء؛ قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾؛ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى.

قال الله-تعالى-: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾؛ أي: وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية؛ إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده، وأيد لبه وحقق مراده.

وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ! والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ

---

(١) الكيمياء: الحيلة والحذق، وكانت عند القدماء: تحويل بعض المعادن الخسيسة إلى أخرى نفيسة كالذهب.

وهي على هذا تلبيس وتدليس وتمويه، أما الآن؛ فهي علم تجريبي ذو أهمية في جميع الصناعات.

(٢) (٦/ ٢٦٤-٢٦٥).

يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾: لما ذكر -تعالى- خروجه في زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها؛ قال: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ﴾؛ كما روى البخاري[١] عن النبي ﷺ؛ قال: «بينا رجل يجر إزاره؛ إذ خسف به؛ فهو يتجلجل في الأرض إلي يوم القيامة».

ثم رواه البخاري[٢] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه.

وقد ذكر عن ابن عباس[٣] والسدي: أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تقول لموسى -عليه السلام- وهو في ملأ من الناس: إنك فعلت بي كذا وكذا! فيقال: إنها قالت له ذلك، فأرعد من الفرق[٤]، وصلى ركعتين، ثم أقبل عليها؛ فاستحلفها: من دلّك على ذلك، وما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك، واستغفرت الله وتابت إليه. فعند ذلك خرَّ موسى لله ساجداً، ودعا الله على قارون؛ فأوحى الله إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه. فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره، فكان ذلك، فالله أعلم.

وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته، مر بجحفله[٥] وبغاله وملابسه على مجلس موسى- عليه السلام-، وهو يذكر قومه بأيام الله، فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير منهم ينظرون إليه، فدعاه موسى -عليه السلام- فقال له: ما حملك على هذا ؟! فقال: يا موسى! أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة؛ فقد فضلت عليك بالمال، ولئن شئت؛ لتخرجن فلتدعون علي ولأدعون عليك! فخرج موسى وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو أنا ؟ قال: أدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب له في موسى. فقال موسى: أدعو ؟ قال: نعم. فقال موسى: اللهم! مر الأرض؛ فلتطعني اليوم ! فأوحى الله إليه: إني قد فعلت. فقال موسى:

(١) في «صحيحه» (٣٤٨٥).

(٢) في «صحيحه» (٥٧٩٠)، وكذا أخرجه مسلم(٢٠٨٨).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٠/ ٧٥) بسند حسن.

(٤) أخذته القشعريرة من الخوف.

(٥) الجيش الكبير.

يا أرض! خذيهم! فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم! فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم؛ ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهمّ ! فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوي، فاستوت بهم الأرض.

وقد روي عن قتادة [١] أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة.

وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة، أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً.

وقوله -تعالى-: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾: لم يكن ناصر له من نفسه ولا من غيره؛ كما قال: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الطارق:١٠].

ولما حل به ما حل؛ من الخسف، وذهاب الأموال، وخراب الدار، وإهلاك النفس والأهل والعقار؛ ندم من كان يتمني مثل ما أوتي، وشكروا الله -تعالى-، الذي يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون؛ ولهذا قالوا: ﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾: وقد تكلمنا على لفظ: ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ في «التفسير» [٢]، وقد قال قتادة: ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ بمعنى: ألم تر أن. وهذا قول حسن من حيث المعنى، والله أعلم.

ثم أخبر -تعالى-: أن ﴿ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ ﴾، وهي دار القرار، وهي الدار التي يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها؛ إنما هي مُعَدَّة ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾: فالعلو: هو التكبر والفخر والأشر والبطر، والفساد: هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية؛ من أخذ أموال الناس، وإفساد معايشهم، والإساءة إليهم، وعدم النصح لهم، ثم قال -تعالى-: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر؛ لقوله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾؛ فإن الدار ظاهرة في البنيان، وقد تكون بعد ذلك في التيه،

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان » (٢٠/ ٧٦) بسند صحيح.

(٢) (٦/ ٣٨٢).

وتكون الدار عبارة على المحلة التي تضرب فيها الخيام؛ كما قال عنترة[١]:

يا دار عبلة بالجواء[٢] تكلمي ... وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

والله أعلم.

وقد ذكر الله -تعالى- مذمة قارون في غير ما آية من القرآن.

قال الله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [غافر:٢٣-٢٤]، وقال -تعالى- في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود: ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٣٩-٤٠]؛ فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما أنهم كانوا خاطئين.

(١) ديوانه (ص ٩٨).

(٢) اسم موضع.

باب ذكر فضائل موسى -عليه السلام- وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝ ﴾ [مريم:٥١-٥٣].

وقال -تعالى-: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وتقدم[١] في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تفضلوني على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش؛ فلا أدري؛ أصعق فأفاق قبلي؟ أم جوزي بصعقة الطور؟ ».

وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع، وإلا؛ فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، قطعا جزما لا يحتمل النقيض.

وقال -تعالى-: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝ ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٤].

وقال -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝ ﴾ [الأحزاب:٦٩].

روى الإمام أبو عبد الله البخاري: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص،

---

(١) مضى تخريجه (ص ١٥٥).

وإما أدرة[١]، وإما آفة! وإن الله -عز وجل- أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ؛ أقبل على ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله، وبرأه الله مما يقولون، وقام الحجر فأخذ ثوبه، فلبسه، وطفق بالحجر ضربا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا؛ فذلك قوله -عز وجل-: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٩] »[٢].

قال بعض السلف: كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله، وطلب منه أن يكون معه وزيرا، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبيا ؛ قال ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾ [مريم:٥٣].

ثم روى البخاري: عن عبدالله بن عباس؛ قال: قسم رسول الله ﷺ قسما، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فغضب، حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: « يرحم الله موسى؛ قد أوذي بأكثر من هذا فصبر »[٣].

وقد ثبت في «الصحيح» في أحاديث الإسراء: أن رسول ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره. رواه مسلم[٤] عن أنس.

وفي «الصحيحين»[٥] من رواية قتادة، عن أنس، عن مالك بن صعصعة، عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة، فقال له جبريل: هذا

---

(١) انتفاخ الخصية.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨و٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩)، وأحمد (٢/ ٣١٥ و٣٩٢ و٥١٥ و٥٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢).

(٤) في «صحيحه» (٢٣٧٥)، وكذا أحمد(٣/ ١٢٠و١٤٨و٢٤٨).

(٥) أخرجه البخاري (٣٢٠٧و٣٣٩٣و٣٤٣٠و٣٨٨٧)، ومسلم(١٦٤).

موسى؛ فسلم عليه. قال: «فسلمت عليه فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلما تجاوزت؛ بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي؛ لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخله من أمتي».

وذكر إبراهيم في السماء السابعة، وهذا هو المحفوظ، وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس؛ من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله ؛ فقد ذكر غير واحد من الحفاظ أن الذي عليه الجادة: أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة، وأنه مسند ظهره إلى البيت المعمور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

واتفقت الروايات كلها على أن الله -تعالى- لما فرض على محمد ﷺ وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة ؛ مر بموسى، فقال: ارجع إلى ربك؛ فسله التخفيف لأمتك؛ فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة. فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله -عز وجل-، ويخفف عنه في كل مرة، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة، وقال الله -تعالى-: هي خمس، وهي خمسون. أي: بالمضاعفة؛ فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً، وجزى الله عنا موسى -عليه السلام- خيراً[1].

وروى البخاري[2]:عن ابن عباس؛ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما، فقال: «عرضت علي الأمم ورأيت سواداً كثيراً سدّ الأفق، فقيل: هذا موسى في قومه». مختصراً.

ورواه الإمام أحمد[3] مطولا؛ عن حصين بن عبد الرحمن؛ قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ قلت: أنا، ثم

---

(١) وقول موسى - عليه السلام- لنبينا محمد ﷺ من باب الخبرة بالناس والنصح لهذه الأمة المرحومة، وليس من باب الوصاية، كما زعم من لا علم عنده؛ فطعن في حديث الإسراء لذلك، وزعم أنها الإسرائيليات!

(٢) في « صحيحه » (٣٤١٠).

(٣) في « مسنده » (١/ ٢٧١)، وكذا رواه البخاري(٥٧٠٥)، ومسلم(٢٢٠).

قلت: إني لم أكن في صلاة، ولكن لدغت. قال: وكيف فعلت ؟ قلت: استرقيت، قال: وما حملت على ذلك ؟ قال: قلت: حديث حدثناه الشعبي عن بريدة الأسلمي: أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة[١]. فقال سعيد - يعني: ابن جبير-: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ثم قال: حدثنا ابن عباس، عن النبي ﷺ ؛ قال: «عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي معه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد؛ إذ رفع لي سواد عظيم، فقلت: هذه أمتي ؟ فقيل: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق؛ فإذا سواد عظيم، ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب. فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل، فخاض القوم في ذلك، فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ. وقال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا قط... وذكروا أشياء. فخرج إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه ؟». فأخبروه بمقالتهم؛ فقال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون». فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: أنا منهم يا رسول الله ؟ قال: «أنت منهم». ثم قام آخر فقال: أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال: «سبقك بها عكاشة».

وهذا الحديث له طرق كثيرة جداً، وهو في الصحاح والحسان وغيرها، وقد أوردناها في باب صفة الجنة[٢] عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها.

وقد ذكر الله -تعالى- موسى -عليه السلام - في القرآن كثيرا، وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً، وكررها كثيراً؛ مطولة ومبسوطة ومختصرة، وأثنى عليه ثناء بليغاً.

وكثيرا ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ وكتابه؛ كما قال في

(١) لدغة من كل ذات سم من الهوام.

(٢) في «البداية والنهاية» (١٠/٥٧٨- فصل أمه محمد أكثر أهل الجنة عدداً وأعلاهم مكاناً ومكانة).

سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [البقرة:١٠١].

وقال -تعالى-: ﴿ الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران:١-٤].

وقال -تعالى- في سورة الأنعام [٩١و٩٢]: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾؛ فأثنى الله -تعالى- على التوراة، ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً.

وقال -تعالى- في آخرها: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٤و١٥٥].

وقال -تعالى- في سورة المائدة [٤٤-٤٨]: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره،وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب، فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها؛ فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم؛ لسوء فهومهم ، وقصورهم في علومهم، ورداءة قصودهم، وخيانتهم لمعبودهم؛ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة؛ ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله مالا يحد ولا يوصف، وما لا يوجد مثله ولا يعرف.

وقال -تعالى- في سورة الأنبياء [٤٨-٥٠]: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

وقال الله -تعالى- في سورة القصص [٤٨و٤٩]: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾؛ فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين -عليهما السلام-.

وقالت الجن لقومهم: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ [العلق: ١-٥]؛ قال: سبوح سبوح، هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران[١].

وبالجملة؛ فشريعة موسى -عليه السلام- كانت شريعة عظيمة، وأمته كانت أمة كثيرة، ووجد فيها أنبياء وعلماء، وعباد وزهاد وألباء، وملوك وأمراء، وسادات وكبراء؛ لكنهم كانوا فبادوا، وتبدلوا كما بدلت شريعتهم، ومسخوا قردة وخنازير ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم، وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها، ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها -إن شاء الله تعالى-، وبه الثقة وعليه التكلان.

---

(١) أخرجه البخاري(٣)، ومسلم(١٦٠).

ذكر حجه -عليه السلام- إلى البيت العتيق وصفته

روى الإمام أحمد[١]: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ مر بوادي الأزرق، فقال: «أي واد هذا؟». قالوا: وادي الأزرق. قال: «كأني أنظر إلى موسى، وهو هابط من الثنية، وله جؤار إلى الله -عز وجل- بالتلبية». حتى أتى على ثنية هرشاء، فقال: «أي ثنية هذه؟». قالوا: هذه ثنية هرشاء. قال: «كأني أنظر إلى يونس بن متى، على ناقة حمراء، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة- قال هشيم: يعني: ليفا - وهو يلبي».

وروى الإمام أحمد[٢]: عن مجاهد؛ قال: كنا عند ابن عباس، فذكروا الدجال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه (ك ف ر). فقال: ما يقولون؟ قال: يقولون: مكتوب بين عينيه (ك ف ر). فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك، ولكن قال: «أما إبراهيم؛ فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى؛ فرجل آدم جعد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخلبة، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي».

قال هشيم: الخلبة: الليف.

وروى الإمام أحمد[٣]: عن أبي العالية، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس؛ قال: قال نبي الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا أدم طوالا جعدا؛ كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس».

وروى الإمام أحمد[٤]: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ -حين أسري به-: «لقد لقيت موسى، فنعته»؛ قال: رجل - حسبته قال: - مضطرب، رجل

---

(١) في «مسنده» (١/ ٢١٥)، وكذا مسلم(١٦٦).

(٢) في «المسند» (١/ ٢٧٦-٢٧٧)، والبخاري(٣٣٥٥)، ومسلم(١٦٦/ ٢٧٠).

(٣) في «المسند» (١/ ٢٤٥و٢٥٩)، وأخرجه البخاري(٣٢٣٩)، ومسلم(١٦٦).

(٤) في «المسند» (٢/ ٢٨٢)، وأخرجه البخاري(٣٣٩٤)، ومسلم(١٦٨).

الرأس؛ كأنه من رجال شنوءة، ولقيت عيسى فنعته رسـول الله ﷺ، فقـال: «ربعـة أحمر كأنما خرج من ديماس » - يعني :حماما - قال: «ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به ». الحديث.

وقـد تقـدم غـالب هـذه الأحـاديث في ترجمـة الخليـل -صلـوات الله عليـه وسلامه-.

ذكر وفاته - عليه السلام -

روى البخاري في «صحيحه»[١]: وفاة موسى -عليه السلام-: عن أبي هريرة؛ قال: أرسل ملك الموت إلى موسى - عليه السلام-، فلما جاءه؛ صكّه؛ فرجع إلى ربه -عز وجل-، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور[٢]، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة. قال: أي رب! ثم ماذا ؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن. قال: فسأل الله -عز وجل- أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: « فلو كنت ثم؛ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر ».

وقد زعم بعضهم: أن موسى -عليه السلام- هو الذي خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة! وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين!! ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: رب! أدنني إلى الأرض المقدسة رمية حجر! ولو كان قد دخلها؛ لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه بالتيه، وحانت وفاته -عليه السلام-؛ أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها، وحث قومه عليها- ولكن حال بينهم وبينها القدر- رمية بحجر؛ ولهذا قال سيد البشر، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر: «فلو كنت ثم ؛لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر ».

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى، سوى يوشع بن نون، وكالب بن يفنة، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم، اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم.

---

(١) (١٣٣٩و٣٤٠٧) موقوفا ومرفوعا، وأخرجه مسلم-أيضا- (٢٣٧٢).

(٢) جلد.

ذكر نبوة يوشع
وقيامه بأعباء بني إسرائيل
بعد موسى وهارون -عليهما السلام-

هو يوشع بن نون، وقد ذكره الله-تعالى- في القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر؛ كما تقدم من قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ [الكهف:٦٠]، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ [الكهف:٦٢]، وقدمنا ما ثبت في «الصحيح» من رواية أبي بن كعب -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ من أنه يوشع بن نون.

وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب[1]؛ فإن طائفة منهم -وهم السامرة- لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون؛ لأنه مصرح به في التوراة، ويكفرون بما وراءه، وهو الحق مصدقا لما معهم من ربهم؛ فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة!

وأما ما حكاه ابن جرير[2] وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى، فكان موسى يلقى يوشع، فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي؟ حتى قال له: يا كليم الله! إني كنت لا أسألك عما يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداء من تلقاء نفسك! فعند ذلك كره موسى الحياة وأحب الموت؛ ففي هذا نظر؛ لأن موسى -عليه السلام- لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله -عز وجل-، ولم يزل معززا مكرما مدللا وجيها عند الله؛ كما قدمنا في «الصحيح» من قصة فقئه عين ملك الموت، ثم بعثه الله إليه: إن كان يريد الحياة ؛ فليضع يده على جلد ثور؛ فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها. قال: ثم ماذا ؟ قال: الموت، قال: فالآن يا رب! وسأل الله أن يدنيه إلى البيت المقدس رمية

---

(١) (سفر يشوع: الإصحاح ١).

(٢) في «تاريخه» (١/ ٢٥٥).

بحجر. وقد أجيب إلى ذلك -صلوات الله وسلامه عليه-.

فهذا الذي ذكر محمد بن إسحاق: إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب؛ ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة[1]: أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى؛ كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة في قبة الزمان.

ولقد ذكروا في السفر الثالث[2]: أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعلا على كل سبط من الاثني عشر أميرا، وهو النقيب؛ وماذاك إلا ليتأهبوا للقتال- قتال الجبارين- عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة.

ولهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى- عليه السلام- عين ملك الموت؛ لأنه لم يعرفه في صورته تلك؛ ولأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه في زمانه، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه، بل في زمان فتاه يوشع بن نون -عليه السلام-.

كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام؛ فوصل إلى تبوك، ثم رجع عامه ذلك في سنة تسع ، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم؛ امتثالا لقوله -تعالى-: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة:٢٩].

ولما جهز رسول الله جيش أسامة؛ توفي -عليه الصلاة والسلام- وأسامة مخيم بالجرف، فَنَفَّذَه صديقه وخليفته أبو بكر الصديق -رضي الله عنه-، ثم لما لم شعث جزيرة العرب وما كان دها من أمر أهلها وعاد الحق إلى نصابه؛ جهز الجيوش يمنة ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم؛ ففتح الله لهم، ومكن لهم وبهم، وملكهم نواصي أعدائهم؛ كما سنورده

---

(١) (سفر التثنية: الإصحاح ٢٨-٣٤).

(٢) بل في السفر الرابع، وهو (سفر العدد: الاصحاح ١و٢).

عليك في موضعه إذا انتهينا إليه مفصلا -إن شاء الله- بعونه وتوفيقه وحسن إرشاده.

وهكذا موسى -عليه السلام-؛ كان الله قد أمره أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء؛ كما قال -تعالى-: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:١٢]: يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم، ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة؛ لأجعلن ثواب هذه مكفرا لما وقع عليكم من عقاب تلك؛ كما قال -تعالى- لمن تخلف من الأعراب عن رسول الله ﷺ عن غزوة الحديبية: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح:١٦]، وهكذا قال -تعالى- لبني إسرائيل: ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٢]، ثم ذمهم -تعالى- على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانها، وقد ذكرنا ذلك في «التفسير»[1] مستقصى، ولله الحمد.

والمقصود: أن الله -تعالى- أمر موسى -عليه السلام- أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل، ممن يحمل السلاح ويقاتل وأن يجعل على كل سبط نقيبا منهم.

والمقصود: أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة:٢٤]؛ قاله ابن عباس[2]، وناس من الصحابة، حتى قال ابن عباس وغيره

---

(١) (٣/ ٦٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم» للمصنف (٣/ ١٠٦).

من علماء السلف والخلف: ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التيه جميعاً.

[خروج بني إسرائيل من التيه]

وعلى كل تقدير؛ فالذي عليه الجمهور: أن هارون توفي بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين، وبعده موسى في التيه ، وأنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك، فكان الذي خرج بهم من التيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون -عليه السلام-.

فذكر أهل الكتاب[1] وغيرهم من أهل التاريخ: أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن، وانتهى إلى أريحا، وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً، وأكثرها أهلاً، فحاصرها ستة أشهر،ثم إنهم أحاطوا بها يوما وضربوا بالقرون - يعني: الأبواق -، وكبروا تكبيرة رجل واحد، فتفسخ سورها وسقط وجبة واحدة، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم، وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء، وحاربوا ملوكا كثيرة. وذكروا أنه انتهى محاصرته إلى يوم الجمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب، ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان؛ قال لها: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم! احبسها علي؛ فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد، وأمر القمر فوقف عند الطلوع. وهذا يقتضي أن هذه الليلة كان الرابعة عشرة من الشهر.

والأول- وهو قصة الشمس المذكورة -في الحديث الذي سأذكره. وأما قصة القمر؛ فمن عند أهل الكتاب، ولا ينافي الحديث؛ بل فيه زيادة تستفاد؛ فلا تصدق ولا تكذب.

ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر، والأشبه - والله أعلم - أن هذا كان في فتح بيت المقدس، الذي هو المقصود الأعظم، وفتح أريحا كان وسيلة إليه، والله أعلم.

---

(١) (سفر يشوع: الإصحاح ٢-٦).

روى الإمام أحمد[١]: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس».

وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون -عليه السلام- لا موسى، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا.

وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع -عليه السلام-، فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه: أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب صلاة العصر، بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته، فسأله رسول الله أن يردها الله عليه حتى يصلي العصر فرجعت[٢].

وقد صححه أحمد بن صالح المصري، ولكنه منكر ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان، وهو مما تتوافر الدواعي على نقله.

وروى الإمام أحمد[٣]: عن أبي هريرة ؛قال: قال رسول الله ﷺ: « غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يبن، ولا آخر قد بنى بنياناً ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها. قال: فغزا، فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم! احبسها عليّ شيئاً.

---

(١) في « المسند » (٢/ ٣٢٥)، وكذا الطحاوي في « مشكل الآثار » (٢/ ١٠) بسند حسن، وجوّده شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة » (٢٠٢).

(٢) موضوع- أخرجه الطحاوي(٢/ ٨-٩و٤/ ٣٨٨)، والطبراني في« المعجم الكبير» (٢٤/ رقم٣٨٢و٣٩٠)، وابن الجوزي في « الموضوعات » (١/ ٣٥٦).

قال ابن الجوزي: «موضوع بلا شك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في « منهاج السنة النبوية » (٨/ ١٦٥): «المحققون من أهل العلم والمعرفة بالحديث يعلمون أن هذا الحديث موضوع».

وقال شيخنا الألباني-رحمه الله- في « الضعيفة » (٢/ ٣٩٥): « وجملة القول:إن العاقل إذا تأمل فيما سبق من كلام هؤلاء الحفاظ على هذا الحديث من جهة متنه، وعلم قبل ذلك أنه ليس له إسناد يحتج به؛ تيقن أن الحديث كذب موضوع لا أصل له».

(٣) في « مسنده » (٢/ ٣١٨)، وأخرجه البخاري (٣١٢٤و٥١٥٧)، ومسلم(١٧٤٧).

فحبست عليه حتى فتح الله عليه. قال: فجمعوا ما غنموا، فأتت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول! فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول؛ فليبايعني قبيلتك. فبايعته قبيلته. قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول؛ أنتم غللتم. قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب.قال: فوضعوه بالمال وهو بالصعيد؛ فأقبلت النار، فأكلته. فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا؛ فطيبها لنا ».

والمقصود: أنه لما دخل بهم باب المدينة؛ أمروا أن يدخلوها سجداً؛ أي: ركعاً متواضعين شاكرين الله -عز وجل- على ما مَنَّ به عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله وعدهم إياه، وأن يقولوا حال دخولهم: حطة؛ أي: حُطّ عنا خطايانا التي سلفت، من نكولنا الذي تقدم منا!

ولهذا؛ لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها، دخلها وهو راكب ناقته، وهو متواضع حامد شاكر، حتى إن عثنونه -وهو طرف لحيته - ليمس مورّك رحله، مما يطأطئ رأسه خضعاناً لله -عز وجل-[١] ومعه الجنود والجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق، ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ، ثم لما دخلها؛ اغتسل وصلى ثماني ركعات[٢]، وهي صلاة الشكر على النصر على المشهور من قول العلماء. وقيل: إنها صلاة الضحى. وما حمل هذا القائل على

---

(١) حسن- أخرجه أبو يعلى(٣٣٩٣)- وعنه ابن عدي في « الكامل » (٤/ ١٥٧١)-، والحاكم(٣/ ٤٧)- وعنه البيهقي في « دلائل النبوة » (٥/ ٦٨-٦٩)-من طريق عبد الله بن أبي بكر المقدمي ثنا جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس بنحوه.

قلت: صححه الحاكم على شرط مسلم؛ فوهم؛ فإن مسلماً لم يخرج للمقدمي شيئاً، وهو ضعيف الحديث.

وله شاهد مرسل من حديث عبد الله بن أبي بكر بن حزم باللفظ الذي ذكره المؤلف:
أخرجه ابن إسحاق في « السيرة » (٤/ ١٩)- ومن طريقه البيهقي(٥/ ٦٨) -حدثني عبدالله به.

فلعل الحديث بمجموعهما حسن.

(٢) أخرجه البخاري(٤٢٩٢)، ومسلم(٣٣٦).

قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى.

وأما بنو إسرائيل؛ فإنهم خالفوا ما أمروا به قولاً وفعلاً، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم[1] وهم يقولون: حبة في شعرة! وفي رواية: حنطة في شعرة! وحاصله: أنهم بدلوا ما أمروا به واستهزءوا به؛ كما قال -تعالى- حاكياً عنهم في سورة الأعراف [١٦١و١٦٢] -وهي مكية-: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وقال في سورة البقرة [٥٨-٥٩] -وهي مدنية- مخاطباً لهم: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾؛ قال: ركعاً من باب صغير.

وقوله: ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾: الواو هنا حالية لا عاطفة؛ أي: ادخلوا سجداً في حال قولكم: حطة.

قال ابن عباس[2] وعطاء[3]: أمروا أن يستغفروا.

روى البخاري[4]: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: « قيل لبني إسرائيل: ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ فدخلوا؛ يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا: «حطة؛ حبة في شعرة».

---

(١) جمع إست، وهو المؤخرة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٨٤)، والطبري في « جامع البيان» (١٠١٢و١٠١٦) بسند حسن.

(٣) أخرجه الطبري (١٠١٤) بسند جيد.

(٤) في « صحيحه » (٨/ ١٦٤/ ٤٤٧٩).

وروى عبد الرزاق[١]:عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾؛ فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا: حبة في شعرة».

وقد ذكر الله- تعالى- أنه عاقبهم على هذه المخالفة بإرسال الرجز الذي أنزله عليهم، وهو الطاعون؛ كما ثبت في «الصحيحين» من حديث أسامة بن زيد، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «إن هذا الوجع - أو: السقم - رجز عذب به بعض الأمم قبلكم»[٢].

وروى النسائي عن سعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت؛ قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذب به من كان قبلكم»[٣].

ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس؛ استمروا فيه، وبين أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة، حتى قبضه الله إليه.

---

(١) في «تفسيره» (١/ ٦٩/ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري(٣٤٧٣و٦٩٧٤)، ومسلم(٢٢١٨/ ٩٦و٩٨)، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٨٩٥)- رواية يحيى الليثي)، و(١٨٦٨ -رواية أبي مصعب الزهري).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢١٨/ ٩٧)، والنسائي في «الكبرى» (٧٥٢٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٩٥) وغيرهم.

وقد فات المصنف -رحمه الله- أن يعزو هذه الطريق لمسلم، وهو أولى كما لا يخفى.

ذكر قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام

[قصة الخضر -عليه السلام-]

أما الخضر؛ فقد تقدم أن موسى -عليه السلام- رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني، وقص الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك، وأوردنا هنا[١] ذكر الحديث المصرح بذكر الخضر -عليه السلام-، وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل -عليه السلام- الذي أنزلت عليه التوراة.

وقد اختلف في الخضر، اسمه، ونسبه، نبوته، وحياته إلى الآن على أقوال.

والأشبه- والله أعلم- أن الخضر لقب غلب عليه.

روى البخاري[٢]- رحمه الله-: عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: «إنما سمي الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء؛ فإذا هي تهتزمن خلفه خضراء»

قال عبد الرزاق: الفروة: الحشيش الأبيض وما أشبه؛ يعني: الهشيم اليابس.

وقال الخطابي: وقال أبو عمر: الفروة: الأرض البيضاء التي لا نبات فيها.

وقال غيره: هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة، ومنه قيل: فروة الرأس وهي جلدته بما عليها من الشعر؛ كما قال الراعي[٣]:

ولقد ترى الحبشي حول بيوتنا ... جذلاً إذا ما نال يوماً مأكلا

صعلاً أسكّ كأن فروة رأسه ... بذرت فأنبت جانباه فُلْفُلا

قال الخطابي: ويقال: إنما سمي الخضر خضراً؛ لحسنه وإشراق وجهه.

قلت: وهذا لا ينافي ما ثبت في «الصحيح»؛ فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما؛ فما ثبت في «الصحيح» أولى وأقوى، بل لا يلتفت إلى ما عداه.

---

(١) في هذا الكتاب وقد تقدم (ص ٣٤١).

(٢) في «صحيحه» (٣٤٠٢).

(٣) «ديوان الراعي النميري» (ص ٢١٨).

[الاختلاف في نبوة الخضر وولايته]

وتقدم أن موسى ويوشع -عليهما السلام- لما رجعا يقصان الأثر؛ وجداه على طنفسة خضراء، على كبد البحر، وهو مسجى بثوب، قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه، فسلم موسى -عليه السلام- فكشف عن وجهه؛ فرد، وقال: أنى بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال: أنا موسى.قال: نبي بني إسرائيل ؟ قال: نعم... فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما.

وقد دل سياق القصة على نبوته من وجوه:

أحدها: قوله -تعالى-: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الكهف:٦٥].

الثاني: قول موسى له: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الكهف:٦٦-٧٠]؛ فلو كان ولياً وليس بنبي؛ لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه؛ فلو كان غير نبي، لم يكن معصوماً، ولم تكن لموسى - وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة - كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة، ولما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عنه ولو أنه يمضي حقباً من الزمان- قيل: ثمانين سنة-، ثم لما اجتمع به؛ تواضع له وعظمه واتبعه في صورة مستفيد منه، فدل على أنه نبي مثله؛ يوحى إليه كما يوحى إليه، وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم نبي بني إسرائيل الكريم.

وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرماني على نبوة الخضر -عليه السلام-.

الثالث: أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام، وما ذاك إلا للوحي إليه من

الملك العلام، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى في خلده؛ لأن خاطره ليس بواجب العصمة؛ إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق، ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم- علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه؛ ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته؛ صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته-؛ دل ذلك على نبوته، وأنه مؤيد من الله بعصمته.

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج بن الجوزي طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه، وحكى الاحتجاج عليه الرماني -أيضاً-.

الرابع: أنه لما فسر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى، ووضح له عن حقيقة أمره وجلى؛ قال بعد ذلك كله: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ﴾ [الكهف:٨٢]؛ يعني: ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمر أمرت به وأوحي إلي فيه.

فدلت هذه الوجوه على نبوته، ولا ينافي ذلك حصول ولايته، بل ولا رسالته؛ كما قاله آخرون، وأما كونه ملكاً من الملائكة؛ فقول غريب جداً.

وإذا ثبتت نبوته - كما ذكرناه-؛ لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه.

[هل الخضر لا يزال حياً؟]

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا؛ فالجمهور على أنه باق إلى اليوم. وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن، وسنوردها مع غيرها- إن شاء الله تعالى وبه الثقة-.

...وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم، وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً، لا يقوم بمثلها حجة في الدين، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف في الإسناد، وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم

من صحابي أو غيره؛ لأنه يجوز عليه الخطأ، والله أعلم.

وروى عبد الرزاق[١]: عن أبي سعيد قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً كان الدجال، وقال فيما يحدثنا: «يأتي الدجال - وهو مُحَرم عليه أن يدخل نقاب المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس- (أو: من خيرهم) - فيقول: أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه. فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكون في الأمر ؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحيا: والله؛ ما كنت أشد بصيرة فيك مني الآن. قال: فيريد قتله الثانية فلا يسلط عليه».

قال معمر[٢]: بلغني أنه يجعل على حلقه صحيفة من نحاس، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه[٣].

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم «الصحيح » يقال: إن هذا الرجل الخضر. وقول معمر وغيره: « بلغني » ليس فيه حجة.

وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث: فيأتي بشاب ممتلئ شباباً، فيقتله، وقوله: الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ لا يقتضي المشافهة، بل يكفي التواتر.

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي- رحمه الله- في كتابه: «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك؛ من المرفوعات؛ فبين أنها موضوعة، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها

---

(١) في «المصنف » (٢٠٨٢٤)، وأخرجه البخاري (٧١٣٢)، ومسلم (٢٩٣٨).

(٢) في «جامعه » (١١/ ٣٩٣).

(٣) قلت: ولا حجة اتفاقاً في كلامه هذا؛ لأنه بلاغ لا يدري قائله، ولو دري؛ فهو مقطوع- وليس هو بحجة-؛ والخضر قد مات قبل النبيﷺ ولم يدركه؛ على ما هو الراجح عند المحققين؛ كما سيفصله المصنف- رحمه الله- فيما سيأتي.ولذلك قال ابن العربي؛كما في «فتح الباري»(١٣/ ١٠٤): «سمعت من يقول: إن الذي يقتله الدجال هو الخضر!! وهذه دعوى لا برهان لها».

ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد[1].

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات، ومنهم: البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو الحسين بن المنادي، والشيخ أبو الفرج بن الجوزي وقد انتصر لذلك وألف فيه كتابا أسماه «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر»؛ فيحتج لهم بأشياء كثيرة:

منها: قوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء:٣٤]؛ فالخضر إن كان بشرا؛ فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

ومنها: أن الله-تعالى- قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران:٨١].

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا؛ إلا أخذ عليه الميثاق؛ لئن بعث محمد وهو حي؛ ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق؛ لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

فالخضر إن كان نبيا أو وليا؛ فقد دخل في هذا الميثاق؛ فلو كان حيا في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه؛ يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه؛ لأنه إن كان وليا؛ فالصديق أفضل منه، وإن كان نبيا ؛ فموسى أفضل منه.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده»: عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده؛ لو أن موسى كان حيا؛ ما وسعه إلا أن يتبعني»[2].

وهذا الذي يقطع به، ويعلم من الدين علم الضرورة.

---

(١) ولله در الإمام الهمام ابن قيم الجوزية حيث قال في «المنار المنيف» (ص٦٧): «الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته؛ كلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد».

(٢) تقدم تخريجه (ص٢٥٨).

وقد دلت عليه هذه الآية الكريمة: أن الأنبياء كلهم؛ لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ؛ لكانوا كلهم أتباعاً له، وتحت أوامره وفي عموم شرعه؛ كما أنه -صلوات الله وسلامه عليه- لما اجتمع بهم ليلة الإسراء؛ رفع فوقهم كلهم، ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم؛ فدل على أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجل المقدم- صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-.

فإذا علم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن -؛ علم أنه لو كان الخضر حياً؛ لكان من جملة أمة محمد ﷺ؛ وممن يقتدي بشرعه؛ لا يسعه إلا ذلك...هذا عيسى ابن مريم -عليه السلام- إذا نزل في آخر الزمان؛ يحكم بهذه الشريعة المطهرة؛ لا يخرج منها ولا يحيد عنها؛ وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل... والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد، وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه -عز وجل-، واستنصره واستفتحه على من كفره: «اللهم ! إن تهلك هذه العصابة؛ لا تعبد بعدها في الأرض»[1].

وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة، حتى جبريل -عليه السلام-؛ كما قال حسان بن ثابت[2] في قصيدة له في بيت يقال: إنه أفخر بيت قالته العرب:

وببئر بدر إذ يَرُدُّ وجوههم ... جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حياً؛ لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته.

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي: سئل بعض

---

(١) أخرجه مسلم(١٨٦٣).

(٢) أورده ابن هشام في «السيرة» (١/ ١٥٨) ونسبه لكعب بن مالك.

أصحابنا عن الخضر: هل مات ؟ فقال: نعم. قال: وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر ابن الغباري؛ قال: وكان يحتج بأنه لو كان حيا ؛ لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزي في «العجالة».

فإن قيل: فهل يقال: إنه كان حاضرا في هذه المواطن كلها؛ ولكن لم يكن أحد يراه ؟.

فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد، الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات !! ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء؛ وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته ؟! ثم لو كان باقيا بعده؛ لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم، وشهود جمعهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم، ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل مما يقال عنه من كونه في الأمصار، وجوبه الفيافي والأقطار، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف فيه أحد بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ومن ذلك: ما ثبت في «الصحيحين»[١] وغيرهما عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء، ثم قال: «أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد». وفي رواية «عين تطرف». قال ابن عمر: فوهل الناس من مقالة رسول الله ﷺ هذه، وإنما أراد انخرام قرنه.

روى الإمام أحمد[٢]: عن عبد الله بن عمر؛ قال: صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم؛ قام؛ فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد».

---

(١) أخرجه البخاري(١١٦)، ومسلم(٢٥٣٧)، وأحمد(٢/ ١٢١و١٣١).

(٢) في «مسنده» (٢/ ٨٨) وسنده صحيح.

وروى الإمام أحمد[١]: عن جابر بن عبد الله؛ قال: قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر: «ما من نفس منفوسة - أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة - يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذ حية».

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوى حياة الخضر.

قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع؛ فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه؛ فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة سنة، فيكون الآن مفقودا لا موجودا؛ لأنه داخل في هذا العموم والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله، والله أعلم.

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السهيلي في كتابه «التعريف والأعلام»[٢] عن البخاري وشيخه أبي بكر العربي: أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده؛ لهذا الحديث!

وفي كون البخاري -رحمه الله- يقول بهذا وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر. ورجح السهيلي بقاءه، وحكاه عن الأكثرين. قال: وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده؛ فمروي من طرق صحاح! ثم ذكر[٣] ما تقدم مما ضعفناه، ولم يورد أسانيدها[٤]، والله أعلم.

---

(١) في «مسنده» (٣/ ٣٠٥)، وكذا أخرجه مسلم (٤/ ١٩٦٦).

(٢) (ص ١٩٠).

(٣) (ص ١٩٥-١٩٨).

(٤) وانظر ردها وبيان ضعفها في «الإصابة» (١/ ٤٤٣).

قصة إلياس - عليه السلام -

وأما إلياس -عليه السلام- فقال الله -تعالى- بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الصافات:١٢٣-١٣٢].

قال علماء النسب: هو إلياس التشبي، قالوا: وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق، فدعاهم إلى الله -عز وجل- وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا. ولهذا قال لهم: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ فكذبوا وخالفوا وأرادوا قتله!

وقد ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس، وأنهما يحجان كل سنة، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل! أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة! ولكن لم يصح شيء من ذلك، وأن الذي يقوم عليه الدليل: أن الخضر مات، وكذلك إلياس -عليهما السلام-.

وما ذكر وهب بن منبه وغيره: أنه لما دعا ربه -عز وجل- أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه؛ فجاءته دابة لونها لون النار، فركبها، وجعل الله له ريشا، وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب، وصار ملكيا بشريا سماويا أرضيا، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب!

ففي هذا نظر، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل الظاهر أن صحتها بعيدة. والله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي: عن أنس بن مالك؛ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلا؛ فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم

اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المثاب لها، قال: فأشرفت على الوادي؛ فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع، فقال لي: من أنت ؟ فقلت: أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، قال: فأين هو ؟ قلت: هو ذا يسمع كلامك، قال: فأته، فأقرئه مني السلام، وقل له: أخوك إلياس يقرئك السلام. قال: فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلم، ثم قعدا يتحادثان فقال له: يا رسول الله ! إني ما آكل في السنة إلا يوماً، وهذا يوم فطري، فآكل أنا وأنت. قال: فنزلت عليهما مائدة من السماء، عليها خبز وحوت وكرفس، فأكلا وأطعماني، وصلينا العصر، ثم ودعه ورأيته مّر في السحاب نحو السماء[1]؛فقد كفانا البيهقي أمره، وقال: هذا حديث ضعيف بمرة.

والعجب أن الحاكم أبا عبد الله النيسابوري أخرجه في « مستدركه على الصحيحين »، وهذا مما يستدرك به على «المستدرك »؛ فإنه حديث موضوع، مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه، ومعناه لا يصح -أيضاً-؛ فقد تقدم[2] في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في السماء»- إلى أن قال-: « ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ».

وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه ! وهذا لا يصح؛ لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يدي خاتم الأنبياء. وفيه أنه يأكل في السنة مرة ! وقد تقدم عن وهب أنه سلبه الله لذة المطعم والمشرب ! وفيما تقدم عن بعضهم: أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر! وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها.

وقد ساق ابن عساكر[3] هذا الحديث من طريق أخرى، واعترف بضعفها،

---

(١) موضوع- أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (١٠١٢)، والحاكم(٢/ ٦١٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة » (٥/ ٤٢١)، وابن عساكر (٩/ ٢١٢)، وابن الجوزي في «الموضوعات » (١/ ١٩٩) بسند موضوع. وقد حكم ابن الجوزي والذهبي والسيوطي بوضعه.

(٢) مضى (ص٤٣).

(٣) في « تاريخ دمشق » (٩/ ٢١٢-٢١٤)، وقال عقبة: « هذا حديث منكر، وليس بالقوي».

وهذا عجب منه؛ كيف تكلم عليه ؟ فإنه أورده عن واثلة بن الأسقع... فذكر نحو هذا مطولاً. وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك، وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس ابن مالك وحذيفة بن اليمان؛ قالا: فإذا هو أعلى جسماً منا بذراعين أو ثلاثة، واعتذر بعدم قدرته على دخول عسكر المسلمين؛ لئلا تنفر الإبل. وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ؛ أكلا من طعام الجنة، وقال: إن لي في كل أربعين يوماً أكلة، وفي المائدة خبز من عنب وموز ورطب وبقل ما عدا الكراث. وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخضر؟ فقال: عهدي به عام أول، وقال لي: إنك ستلقاه؛ فأقرئه مني السلام.

وهذا يدل على أن الخضر وإلياس- بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث- لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة، وهذا لا يسوغ شرعاً. وهذا موضوع -أيضاً-.

وقد أورد ابن عساكر طرقاً فيمن اجتمع بإلياس من العباد، وكلها لا يفرح بها؛ إما لضعف إسنادها، أو لجهالة المسند إليه فيها .

وقوله -تعالى-: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾؛ أي: للعذاب، إما في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة.

والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون.

وقوله: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾؛ أي: إلا من آمن منهم.

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ﴾؛ أي: أبقينا بعده ذكراً حسناً له في العالمين؛ فلا يذكر إلا بخير؛ ولهذا قال: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾؛ أي: سلام على إلياس، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها؛ كما قالوا: إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائين، وإلياس وإلياسين، وقد قرئ: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ آلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾؛ أي: على آل محمد.

وقرأ ابن مسعود وغيره: « سلام على إدراسين »، ونقل عنه من طريق أبي إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود: أنه قال: إلياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن مزاحم، وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق.

والصحيح أنه غيره؛ كما تقدم، والله -تعالى- أعلم بالصواب.

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل
بعد موسى -عليه السلام-
ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان -عليهما السلام-

قال ابن جرير في «تاريخه»[١]: لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع: كالب ابن يفنة؛ يعني: أحد أصحاب موسى -عليه السلام- وهو زوج اخته مريم، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله، وهما يوشع وكالب، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد: ﴿ ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣].

قال ابن جرير: ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيل بن بوزي، وهو الذي دعا الله فأحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

---

(١) (١/ ٢٧١).

قصة حزقيال

قال الله -تعالى-: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٣].

قال ابن إسحاق: فروا من الوباء، فنزلوا بصعيد من الأرض، فقال لهم الله: موتوا! فماتوا جميعاً، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع، فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيل- عليه السلام- فوقف عليهم متفكراً فقيل له: أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟ فقال: نعم. فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً وأن يتصل العصب بعضه ببعض؛ فناداهم عن أمر الله له بذلك، فقام القوم أجمعون وكبروا تكبيرة رجل واحد.

وعن ابن عباس: أنهم كانوا أربعة آلاف. وعنه: ثمانية آلاف. وعن أبي صالح: تسعة آلاف. وعن ابن عباس -أيضاً-: كانوا أربعين ألفاً. وعن سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات. وقال ابن جريج عن عطاء: هذا مثل؛ يعني: أنه سيق مثلاً مبيناً أنه لن يغني حذر من قدر ! وقول الجمهور أقوى، إن هذا وقع.

وقد روى الإمام أحمد وصاحبا «الصحيح » عن عبد الله بن عباس: أن عمر ابن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ؛ لقيه أمراء الأجناد؛ أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء وقع بالشام... فذكر الحديث يعني: في مشاورته المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه، فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً ببعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض؛ فلا تقدموا عليه» ؛ فحمد الله عمر ثم انصرف[١].

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٩٤)، والبخاري(٥٧٢٩و٥٧٣٠و٦٩٧٣)، ومسلم(٢٢١٩).

وروى الإمام أحمد[١]:عن عبد الله بن عامر بن ربيعة: أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ: «أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم؛ فإذا سمعتم به في أرض؛ فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً منه».

قال: فرجع عمر من الشام.

قال محمد بن إسحاق[٢]: ولم يُذكر لنا مدة لبث حزقيال في بني إسرائيل، ثم إن الله قبضه إليه، فلما قبض؛ نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم، وعظمت فيهم الأحداث، وعبدوا الأوثان وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له: بعل، فبعث الله إليهم إلياس .

قلت: وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر؛ لأنهما يقرنان في الذكر غالباً؛ ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات؛ فتعجلنا قصته لذلك، والله أعلم.

قال محمد بن إسحاق فيما ذكر له عن وهب بن منبه؛ قال: ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب -عليه السلام- وهذه:

---

(١) في «المسند» (١/ ١٩٣) وسنده صحيح.

(٢) انظر: « تاريخ الإمم والملوك » (١/ ٤٦٠-٤٦١).

قصة اليسع - عليه السلام -

وقد ذكره الله -تعالى- مع الأنبياء في سورة الأنعام [٨٦] في قوله: قال -تعالى-: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾، وقال -تعالى- في سورة [ص:٤٨] قال -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

فصل

قال ابن جرير وغيره: ثم مرج أمر بني إسرائيل، وعظمت منهم الخطوب والخطايا، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين يظلمونهم ويسفكون دماءهم، وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء؛ يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان فيه قبة الزمان؛ كما تقدم ذكره، فكانوا ينصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان؛ غلبوهم وقهوروهم على أخذه، فانتزعوه من أيديهم، فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان؛ مالت عنقه فمات كمداً، وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راع، حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له: شمويل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه.

قال ابن جرير[1]: فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله -عز وجل- شمويل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة... ثم ذكر تفصيلها بمدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً. تركنا ذكرهم قصداً.

---

(١) في « تاريخه»(١/ ٢٧٥).

قصة شمويل -عليه السلام-

وفيها بدء أمر داود -عليه السلام-

قال الله -تعالى- في كتابه العزيز: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة:٢٤٦-٢٥١].

قال أكثر المفسرين: كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل.

والمقصود: أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء؛ سألوا نبي الله في ذلك الزمان، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته؛ ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء، فقال لهم: ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ﴾؛ يقولون: نحن محروبون موتورون؛ فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم.

قال -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾؛ كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل، الباقون رجعوا ونكلوا عن القتال.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ ﴾:

قال عكرمة والسدي: كان سقاء. وقال وهب بن منبه: كان دباغاً .وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

ولهذا ﴿ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ ﴾؛ نفروا منه، وطعنوا في إمارته عليهم، وقالوا : نحن أحق بالملك منه! وقد ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه؛ فكيف يكون مثل هذا ملكاً؟!

﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ ﴾: قيل: في أمر الحروب، وقيل: بل مطلقاً. ﴿ وَٱلْجِسْمِ ۖ ﴾؛ قيل: الطول، وقيل: الجمال. والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم -عليه السلام- ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾: وهذا -أيضاً- من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سلب منهم وقهرهم الأعداء عليه، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ

مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ ﴾؛ ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾؛ أي: تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً؛ ليكون آية لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾. وقيل: إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت، وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة، وقيل: كان فيه التوراة -أيضاً- فلما استقر في أيديهم؛ وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم، فلما أصبحوا؛ إذا التابوت على رأس الصنم، فوضعوه تحته، فلما كان اليوم الثاني؛ إذا التابوت فوق الصنم، فلما تكرر هذا ؛ علموا أن هذا أمر من الله -تعالى-، فأخرجوه من بلدهم، وجعلوه في قرية من قراهم، فأخذهم داء في رقابهم، فلما طال عليهم هذا جعلوه في عجلة، وربطوها في بقرتين، وأرسلوهما، فيقال: إن الملائكة ساقتها حتى جاؤوا بهما ملأ بني إسرائيل وهم ينظرون كما أخبرهم نبيهم بذلك، فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة.

والظاهر أن الملائكة كانت تحمله بأنفسهم كما هو المفهوم من الآية، والله أعلم، وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾؛ قال ابن عباس وكثير من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن، وهو المسمى بالشريعة، فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهر عن أمر نبي الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً: أن من شرب من هذا النهر؛ فلا يصحبني في هذه الغزوة، ولا يصحبني إلا من لم يطعمه؛ إلا غرفة بيده. قال الله -تعالى-: ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾.

وقد روى البخاري في «صحيحه»[1] ، عن البراء بن عازب؛ قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت

---

(١) (٣٩٥٧و٣٩٥٨و٣٩٥٩).

الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة مؤمن.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ ﴾؛ أي: استقلوا أنفسهم واستضعفوها عن مقاومة أعدائهم بالنسبة إلى قلتهم وكثرة عدد عدوهم! ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾؛ يعني: ثبتهم الشجعان منهم والفرسان، أهل الإيمان والإيقان، الصابرون على الجلاد والجدال والطعان.

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾؛ طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر؛ أي: يغمرهم به من فوقهم، فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال، فسألوا التثبيت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه.

فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا، وأنالهم ما إليهم فيه رغبوا؛ ولهذا قال: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: بحول الله وقوته لا بحولهم، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم مع كثرة أعدائهم وكمال عددهم؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقوله -تعالى-: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ ﴾؛ فيه دلالة على شجاعة داود -عليه السلام- وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه؛ فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان، ويدال لأولياء الله على أعدائه، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه.

قصة داود -عليه السلام-
وما كان في أيامه
وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وأعلامه

هو داود ، عبد الله ونبيه، وخليفته في أرض بيت المقدس.

لما قتل جالوت، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم، فكان من أمر طالوت ما كان، وصار الملك إلى داود -عليه السلام-، وجمع الله له بين الملك والنبوة؛ بين خير الدنيا والآخرة، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمعا في داود هذا.

وهذا كما قال -تعالى-: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ أي: لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس؛ لأكل قوي الناس ضعيفهم؛ ولهذا جاء في بعض الآثار: السلطان ظل الله في أرضه[1]. وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان-رضي الله عنه-: إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن.

[كان يأكل من كسب يده]

وقال -تعالى-: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

وقال- تعالى-: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ

---

(١) لا يصح مرفوعاً؛ كما في «الضعيفة» (١٦٦١-١٦٦٤) لشيخنا -رحمه الله-.

شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد؛ ليحصن المقاتلة من الأعداء، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها، فقال: ﴿ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾؛ أي: لا تدق المسمار فيقلق، ولا تغلظه فيفصم؛ قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة. قال الحسن البصري وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة. قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح. قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم.

وقد ثبت في الحديث: « أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده »[١].

[تسبيح داود]

وقال -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص:١٧-٢٠].

قال مجاهد[٢]: الأيد: القوة في الطاعة؛ يعني: ذا قوة في العبادة والعمل الصالح. قال قتادة[٣]: أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام.

وقد ثبت في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الصلاة إلى الله

---

(١) أخرجه البخاري(٢٠٧٢) بنحوه. وأخرج النسائي في « سننه»(٧/ ٢٤١)، وأحمد (٦/ ٤٢و٢٢٠)، والرامهرمزي في « المحدث الفاضل »(ص٧٦) شطره الأول بحروفه من حديث عائشة -رضي الله عنها- به، وسنده صحيح.

(٢) أخرجه الطبري(٢٣/ ٨٦) بسند صحيح.

(٣) أخرجه الطبري(٢٣/ ٨٦) بسند صحيح.

صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»[١].

وقوله: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾ كما قال: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾؛ أي: سبحي معه. ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾؛ أي: عند آخر النهار وأوله، وذلك أنه كان الله -تعالى- قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد ؛ بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه؛ يقف الطير في الهواء يُرجّع بترجيعه ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً -صلوات الله وسلامه عليه-.

عن عبيد بن عمر يقول: كان داود -عليه السلام- يأخذ المعزفة، فيضرب بها، فيقرأ عليها، فترد عليه صوته. يريد بذلك أن يَبْكي ويُبكي[٢].

عن عائشة؛ قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ؛ فقال: «لقد أوتي أبي موسى من مزامير آل داود»[٣].

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أعطي أبو موسى من مزامير داود»[٤].

عن أبي عثمان النهدي أنه قال: لقد سمعت البربط والمزمار؛ فما سمعت صوتاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري.

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزبور؛ كما روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القراءة،

---

(١) أخرجه البخاري(٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»(٤١٦٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ١٠٠-١٠١).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٤١٧٧)، وأحمد (٦/ ٣٧و١٦٧)، والنسائي (٢/ ١٨٠-١٨١)، والدارمي(١/ ٣٤٩) وغيرهم بسند صحيح.

(٤) أخرجه أحمد(٢/ ٣٦٩و٤٥٠)، والنسائي(٢/ ١٨٠)، وابن ماجه(١٣٤١) وغيرهم بسند صحيح.

فكان يأمر بدابته فتسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يـأكل إلا من عمل يديه»[١].

والمراد بالقرآن ها هنا الزبور، الذي أنزله الله عليه وأوحاه إليه، وذكر «دوابه» أشبه أن يكون محفوظاً ؛ فإنه كان ملكاً له أتباع، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسـرج الدواب، وهـذا أمـر سـريع مـع التدبـر والـترنم والتغـني بـه علـى وجـه التخشـع -صلوات الله وسلامه عليه-.

وقد قال الله -تعالى-: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النسـاء:١٦٣]، والزبـور: كتاب مشهور، وذكرنا في «التفسير» الحديث الـذي رواه أحمـد وغـيره أنـه أنـزل في شهر رمضان[٢]، وفيه من المواعظ والحكم ما هو مشهور معروف لمن نظر فيه.

[اجتماع الملك والنبوة لدواد -عليه السلام-]

وقولـه: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠ ﴾ ؛ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً:

وقولـه -تعـالى-: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ أي: النبـوة ﴿ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾: وهو الفصل في الكلام وفي الحكم. واختاره ابن جرير.

[توبة داود -عليه السلام-]

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٤)، والبخاري (٣٤١٧).

(٢) صحيح- أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧)، والطبري في « جامع البيان»(٢٨٢١)، والطبراني في « المعجم الكبير»(٢٢/ رقم١٨٥)، و« الأوسط»(٣٧٥٢)، وقوام السنة الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (١٧٩١)، وابن عبد الهادي في « هداية الإنسان» (ق٢/ ب)وهو صحيح.

بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص:٢١-٢٥].

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف هاهنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة؛ تركنا إيرادها في كتابنا قصداً؛ اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد اختلف الأئمة في سجدة (ص)؛ هل هي من عزائم السجود، أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود ؟ على قولين:

روى البخاري[1]: عن العوام؛ قال: سألت مجاهداً عن سجدة (ص)؟ فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت ؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ... أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠]؛ فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه السلام؛ فسجدها رسول الله ﷺ.

وروى الإمام أحمد[2]: عن ابن عباس: أنه قال في السجود في (ص): ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

وروى النسائي[3]: عن ابن عباس: أن النبي ﷺ سجد في (ص)، وقال:

---

(١) في «صحيحه» (٤٨٠٧).

(٢) في «مسنده» (١/ ٣٥٩)، وكذا أخرجه البخاري (٣٤٢٢)، وأبو داود (١٤٠٩)، والترمذي (٥٧٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٧٠).

(٣) في «المجتبى» (٢/ ١٥٩)، و«الكبرى» (١١٤٣٨)، وكذا أخرجه عبد الرزاق (٥٨٧٠)، والطبراني في «الكبير» (١٢٣٨٦ و١٢٣٨٧)، والدارقطني (١/ ٤٠٧)، والبيهقي (٢/ ٣١٩) وسنده صحيح.

«سجدها داود توبة، ونسجدها شكراً».

وروى أبو داود[1]: عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص)، فلما بلغ السجدة ؛ نزل، فسجد وسجد معه الناس. فلما كان يوم آخر؛ قرأها، فلما بلغ السجدة؛ تشزن[2] الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكن رأيتكم تشزّنتم»؛ فنزل وسجد.

وروى الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس؛ قال: جاء رجل إلى النبيﷺ، فقال: يا رسول الله! إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: «اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها عندك ذخراً، وضع عني بها وزراً، واقبلها مني كما قبلت من عبدك داود»[3].

قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام، فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ

---

(١) في «سننه» (١٤١٠)، وكذا أخرجه الدارمي (١/ ٣٤٢)، وابن خزيمة (١٤٥٥ و١٧٩٥)، وابن حبان (٢٧٦٥)، والدارقطني (١/ ٤٠٨)، والحاكم (١/ ٢٨٤و٢/ ٤٣١)، والبيهقي (٢/ ٣١٨) بسند صحيح، صححه الحاكم والذهبي والنووي والزيلعي وشيخنا الإمام الألباني.

(٢) أي: تأهبوا وتهيؤوا واستعدوا.

(٣) صحيح- أخرجه الترمذي (٥٧٩و٣٤٢٤)، وابن ماجه (١٠٥٣)، وابن حبان (٦٩١-موارد)، والطبراني (١١/ رقم١١٢٦٢)، والحاكم (١/ ٢١٩)، والبيهقي (٢/ ٣٢٠) بسند ضعيف؛ لجهالة الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد.

لكن له شاهد من مرسل بكر بن عبد الله المزني بنحوه؛ أخرجه عبد الرزاق (٥٨٦٩) وهو مرسل صحيح.

وآخر من حديث أبي سعيد الخدري؛ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٧٦٥)، وأبو يعلى في «المسند» (١٠٦٩) بسند حسن لغيره.

وبالجملة؛ فهو بمجموع ذلك صحيح بلا ريب، والله أعلم.

مَـَابٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ص:٢٥]؛ أي: إن له يوم القيامة لزلفى، وهي القربة التي يقربه الله بها ويدنيه من حظيرة قدسه بسببها؛ كما ثبت في حديث: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما ولوا»[(١)].

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦]: هذا خطاب من الله -تعالى- مع داود، والمراد: ولاة الأمور وحكام الناس، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الأراء والأهواء، وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك.

[شيء من فضائله وأقواله]

وقد كان داود -عليه السلام- هو المقتدى به في ذلك الزمان في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

وقد أورد الحافظ بن عساكر في ترجمة داود -عليه السلام- أشياء كثيرة مليحة:

منها: قوله: كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد.

وقوله: مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس الميت.

وقوله: ما أقبح الفقر بعد الغنى! وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى.

وقال: انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم؛ فلا تفعله إذا خلوت.

وقال: لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له؛ فإن ذلك عداوة بينك وبينه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-.

ذكر كمية حياته وكيفية وفاته

قد تقدم[١] في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره، فرأى فيهم الأنبياء -عليهم السلام-، ورأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أي: رب! من هذا ؟ قال: هذا ابنك داود. قال: أي: رب! كم عمره ؟ قال: ستون عاماً. قال: أي رب ! زد في عمره! قال: لا؛ إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً، فلما انقضى عمر آدم؛ جاءه ملك الموت، فقال: بقي من عمري أربعون سنة، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود.

---

(١) (ص ٣١-٣٢).

قصة سليمان بن داود -عليهما السلام-

قال الله -تعالى-: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل:١٦]؛ أي: ورثه في النبوة والملك، وليس المراد ورثه في المال؛ لأنه قد كان له بنون غيره؛ فما كان ليخص بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث؛ ما تركنا فهو صدقة»، وفي لفظة: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث» (١).

فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج؛ لا يخصون بها أقرباؤهم؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك؛ كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم.

[سعة علمه وعظيم ملكه]

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا ﴾؛ يعني: أنه -عليه السلام- كان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

وكذلك ماعداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ أي: من كل ما يحتاج الملك إليه من العُدَد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس

---

(١) سيأتي تخريجه (ص ٤٤٢).

والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: من بارئ البريات وخالق الأرض والسماوات؛ كما قال -تعالى-: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾ [النمل:١٧-١٩].

يخبر -تعالى- عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود -عليهما الصلاة والسلام- أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير؛ فالجن والإنس يسيرون معه، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة؛ (أي: نقباء) -يردون أوله على آخره؛ فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه.

قال الله -تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝﴾؛ فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

والمقصود: أن سليمان -عليه السلام- فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره، وليس كما يقوله بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس، حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك؛ فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون، ولو كان هذا هكذا؛ لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره؛ إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك، ولو كان قد أخذ عليها العهد ألا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا -أيضاً- فائدة يعول عليها.

ولهذا قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ ﴾؛ أي: ألهمني وارشدني ﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾؛ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله- تعالى- له.

والمراد بوالديه: أبوه داود -عليه السلام- وأمه، وكانت من العابدات الصالحات.

[بين الهدهد وملكة سبأ]

وقال الله -تعالى-: ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ

مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النمل:٢٠-٣٧].

يذكر -تعالى- ما كان من أمر سليمان والهدهد، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون؛ يقومون بما يطلب منهم، ويحضرون عنده بالنوبة؛ كما هي عادة الجنود مع الملوك. وكانت وظيفة الهدهد على ماذكره ابن عباس وغيره: أنهم كانوا إذاً أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار؛ يجيء فينظر لهم: هل بهذه البقاع من ماء، وفيه من القوة ألتي أودعها الله -تعالى- فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض؛ فإذا دلهم عليه؛ حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم. فلما تطلبه سليمان -عليه السلام- ذات يوم؛ فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته؛ ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾؛ أي: ما له مفقود من هاهنا، أو: قد غاب عن بصري؛ فلا أراه بحضرتي ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾: توعده بنوع من العذاب اختلف المفسرون فيه، والمقصود حاصل على كل تقدير، ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾؛ أي: بحجة تنجيه من هذه الورطة.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾؛ أي: فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة، ثم قدم منها ﴿ فَقَالَ ﴾ لسليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾؛ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾؛ أي: بخبر صادق.

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾: يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها، فملكوها عليهم. ويقال لها: بلقيس.

وقد ثبت في «صحيح البخاري»[1] من حديث أبي بكرة: أن رسول الله ﷺ لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى؛ قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

وقوله: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾؛ أي: مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾؛ يعني: سرير مملكتها، كان مزخرفاً بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب والحلي الباهر.

ثم ذكر كفرهم بالله، وعبادتهم الشمس من دون الله، وإضلال الشيطان لهم، وصده إياهم عن عبادة الله -تعالى- وحده لا شريك له، الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون؛ أي: يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾؛ أي: له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات.

فعند ذلك بعث سليمان - عليه السلام- كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه؛ ولهذا قال لهم: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ ﴾؛ أي: لا تستكبروا عن طاعتي وامتثال أوامري. ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾؛ أي: واقدموا علي سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة.

فلما جاءها الكتاب مع الطير- ومن ثمّ اتخذ الناس البطائق، ولكن؛ أين الثريا من الثرى؟! تلك البطاقة كانت مع طائر سامع مطيع فاهم عالم بما يقول ويقال له-؛ فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم: أن الهدهد حمل الكتاب، وجاء إلى قصرها، فألقاه إليها وهي في خلوة لها، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابه.

فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها. ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾. ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ ﴾، ثم قرأته: ﴿ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ

---

(١) (٤٤٢٥)، وكذا أخرجه الترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي(٨/ ٢٢٧).

وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾، ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها، وتأدبت معهم، وخاطبتهم وهم يسمعون. ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ تعني: ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾؛ يعنون: لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال؛ فإن أردت منا ذلك؛ فإنا عليه من القادرين ﴿و﴾ مع هذا ﴿ ٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾؛ فبذلوا لها السمع والطاعة، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة، وفوضوا إليها في ذلك الأمر؛ لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم، فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع.

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾: تقول برأيها السديد: إن هذا الملك؛ لو قد غلب على هذه المملكة؛ لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلي، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عَلَي، ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾: أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان -عليه السلام- لا يقبل منهم- والحالة هذه- صرفاً ولا عدلاً؛ لأنهم كافرون، وهو وجنوده عليهم قادرون.

ولهذا؛ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾: هذا؛ وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمةكما ذكره المفسرون. ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾: يقول: ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قد منَّ بها؛ فإن عندي مما قد أنعم الله عليَّ وأسداه إليّ من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه. ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾؛ أي: فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا ممانعتهم، ولا

قتالهم، ولأخرجنهم من بلادهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾: عليهم الصغار والعار والدمار.

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله؛ لم يكن لهم بد من السمع والطاعة، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين.

فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه؛ قال لمن بين يديه ممن هو مسخر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل:٣٨-٤٤].

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس- وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها- قبل قدومها عليه. ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾؛ يعني: قبل أن ينقضي مجلس حكمك، وكان فيما يقال: من أول النهار إلى قريب الزوال، يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾؛ أي: وإني لذو قدرة على إحضاره إليك، وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك.

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾: المشهور أنه آصف بن برخيا،﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾: قيل: معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك. وقيل: قبل أن يصل إليك

أبعد ما تراه من الناس. وقيل: قبل أن يَكِلّ طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك. وقيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته. وهذا أقرب ما قيل.

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾؛ أي: فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾؛ أي: هذا من فضل الله علي، وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾؛ أي: إنما يعود نفع ذلك عليه. ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾؛ أي: غني عن شكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين.

ثم أمر سليمان -عليه السلام- أن يغير حلي هذا العرش وينكّر لها ليختبر فهمها وعقلها؛ ولهذا قال: ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾: وهذا من فطنتها وغزارة فهمها؛ لأنها استبعدت أن يكون عرشها؛ لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب.

قال الله -تعالى- إخباراً عن سليمان وقومه: ﴿ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾؛أي:ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم،لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حادهم على ذلك.

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج، وعمل في ممره ماء، وجعل عليه سقفاً من زجاج، وجعل فيه السمك وغيرها من دواب الماء، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه؛ ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

[الصافنات الجياد]

وقال تعالى في سورة ص [٣٠-٤٠]: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ

أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

يذكر -تعالى- أنه وهب لداود سليمان -عليهما السلام-، ثم أثنى الله -تعالى- عليه، فقال: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص:٣٠]؛ أي: رجاع مطيع لله.

ثم ذكر -تعالى- ما كان من أمره في الخيل الصافنات، وهي: التي تقف على ثلاثة وطرف حافر الرابعة. الجياد، وهي: المضمرة السراع.

﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾؛ يعني: الشمس. وقيل: الخيل -على ما سنذكره من القولين- ﴿ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾؛ قيل: مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف. وقيل: مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر. والذي عليه أكثر السلف الأول، فقالوا: اشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس.

وروي هذا عن علي بن أبي طالب وغيره.

والذي يقطع به أنه لم يترك الصلاة عمدا من غير عذر، اللهم إلا أن يقال: إنه كان سائغا في شريعتهم! فأخر الصلاة؛ لأجل أسباب الجهاد، وعرض الخيل من ذلك.

وقد ادعي طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق أن هذا كان مشروعا إذ ذاك حتى نسخ بصلاة الخوف؛ قاله الشافعي وغيره.

وقال مكحول و الأوزاعي: بل هو حكم محكم إلى اليوم: أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد؛ كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف.

وقال آخرون: بل كان تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق[١] نسياناً. وعلى هذا؛ فيحمل فعل سليمان -عليه السلام- على هذا، والله أعلم.

وأما من قال: الضمير في قوله: ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾: عائد على الخيل، وأنه لم يَفُتْه وقت الصلاة، وأن المراد بقوله: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾؛ يعني: مسح العرق عن عراقيبها وأعناقها؛ فهذا القول اختاره ابن جرير[٢]، ورواه الوالبي عن ابن عباس في مسح العرق.

ووجه هذا القول ابن جرير: بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة، ويهلك مالاً بلا سبب، ولا ذنب لها.

وهذا الذي قاله فيه نظر؛ لأنه قد يكون هذا سائغاً في ملتهم ! وقد ذهب بعض علمائنا إلى أنه إذا خاف المسلمون أن يظفر الكفار على شيء من الحيوانات من أغنام ونحوها؛ جاز ذبحها وإهلاكها؛ لئلا يتقووا بها.

وعليه حمل صنيع جعفر بن أبي طالب يوم عقر فرسه بمؤتة.

وقد قيل: إنها كانت خيلاً عظيمة. قيل: كانت عشرة آلاف فرس. وقيل: كانت عشرين ألف فرس. وقيل: كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة.

وقد روى أبو داود في «سننه»[٣]: عن عائشة؛ قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر، وفي سهوتها[٤] ستر، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لعب، فقال: «ما هذا يا عائشة؟!»، فقالت: بناتي. ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع، فقال: «ما هذا الذي أرى وسطهن؟!». قالت: فرس. قال: «وما الذي عليه هذا ؟!»، قالت: جناحان. قال: «فرس له جناحان؟!»، قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة ؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري (٤١١١و٤١١٢)، ومسلم (٦٢٨و٦٣١).

(٢) في «تفسيره»(٢٣/ ١٠٠).

(٣) (٤٩٣٢)، وكذا أخرجه النسائي في «الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف»(١٢/ ٣٥٧) بسند صحيح.

(٤) كوة تشبه ما يعرف اليوم بخزانة الحائط.

قال بعض العلماء: لما ترك الخيل لله؛ عوضه الله عنها بما هو خير له منها، وهو الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر؛ كما سيأتي الكلام عليها؛ كما روى الإمام أحمد: عن أبي قتادة وأبي الدهماء- وكانا يكثران السفر نحو البيت-؛ قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ، فجعل يعلمني مما علمه الله -عز وجل- وقال: «إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله -عز وجل-؛ إلا أعطاك الله خيراً منه»(١).

[بناء بيت المقدس]

وقوله -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص:٣٤]: ذكر ابن جرير و ابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا «التفسير»(٢) ، واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة.

ومضمون ما ذكروه أن سليمان -عليه السلام- غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه: ولما عاد؛ أمر ببناء بيت المقدس، فبناه بناء محكماً! وقد قدمنا أنه جدده، وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل -عليه السلام-؛ كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر: قلت: يا رسول الله ! أي مسجد وضع أولاً ؟ قال:«المسجد الحرام»، قلت: ثم أي ؟ قال: «مسجد بيت المقدس»، قلت: كم بينهما ؟ قال: «أربعون سنة»(٣).

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٥/ ٧٨و٣٦٣) ، ووكيع في « الزهد»(٣٥٦)، والنسائي في «السنن الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف»(١١/ ١٩٩) وسنده صحيح.

(٢) (٧/ ٨٦- وما بعدها).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٣٩).

ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود- عليهما السلام- أزيد من ألف سنة، دع أربعين سنة!

وكان سؤاله المُلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدس.

روى الإمام أحمد و النسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس؛ سأل ربه -عز وجل- خلالاً ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون له الثالثة: سأله حكماً يصادف حكمه؛ فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد ؛ خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه. فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطاه إياها»(١).

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله -تعالى-؛ فقد أثنى الله -تعالى- عليه وعلى أبيه في قوله: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]، وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف: أن هؤلاء القوم كان لهم كرم، فنفشت فيه غنم قوم آخرين؛ أي: رعته بالليل، فأكلت شجره بالكلية، فتحاكموا إلى داود -عليه السلام- فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا: بكذا وكذا. فقال: أما لو كنت أنا؛ لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودراً

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦)، والنسائي في «المجتبى»(٢/ ٣٤)، و«الكبرى» (١/ رقم ٧٧٢)، وابن ماجه (١٤٠٨)، وابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن حبان (١٦٣٣)، والحاكم (١/ ٣٠) وغيرهم بسند صحيح، وقد صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم والمنذري وشيخنا الألباني.

حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه، ثم يتسلموا غنمهم، فبلغ داود -عليه السلام- ذلك فحكم به.

وقريب من هذا ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابناهما؛ إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك. وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود، فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان، فقال: ائتوني بالسكين أشقه نصفين؛ لكل واحدة منكما نصفه. فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله؛ هو ابنها. فقضى به لها»[1].

ولعل كلاً من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم، ولكن ما قاله سليمان أرجح؛ ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه، ومدح بعد ذلك أباه، فقال: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

ثم قال: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾؛ أي: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٨١-٨٢].

وقال في سورة [ص: ٣٦-٤٠]: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

---

(١) يعني: للصغرى، والحديث أخرجه البخاري (٣٤٢٧)، ومسلم (١٧٢٠)؛ كما قال المصنف -رحمه الله-.

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله؛ عوضه الله عنها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ص:٣٦]؛ أي: حيث أراد من أي البلاد، كان له بساط مركب من أخشاب؛ بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان وغير ذلك من الحيوانات والطيور؛ فإذا أراد سفراً أو متنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء؛ فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط؛ أمر الريح، فدخلت تحته فرفعته؛ فإذا استقل بين السماء والأرض؛ أمر الرخاء فسارت به؛ فإن أراد أسرع من ذلك؛ أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون، فوضعته في أي مكان شاء؛ بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس، فتغدو به الريح، فتضعه بإصطخر مسيرة شهر، فيقيم هناك إلى آخر النهار، ثم يروح من آخره، فترده إلى بيت المقدس.

كما قال -تعالى-: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ:١٢-١٣].

وأما القِطْر؛ فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد: هو النحاس[1]. قال قتادة: وكانت باليمن أنبعها الله له[2].

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾؛ أي: وسخر الله له من الجن عُمالاً يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته، ومن خرج منهم عن الأمر؛ عذبه ونكل به.

---

(١) انظر: «جامع البيان» (٢٢/ ٤٨)، و«تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٦٦٠).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٤٨) بسند صحيح عنه.

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾: وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وَتَمَٰثِيلَ ﴾: وهي الصور في الجدران، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم. ﴿ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ ﴾؛ قال ابن عباس: الجفنة كالجوبة من الأرض، وعنه: كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.

وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية، وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء؛ كما قال الأعشى[1]:

تروح على[3] آل المحلق جفنة كجابية الشيخ[2] العراقي تفهق

وأما القدور الراسيات؛ فقال عكرمة: أثافيها منها؛ يعني: أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن. وهكذا قال مجاهد وغير واحد. ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان؛ قال -تعالى-: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣ ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ ﴾؛ يعني: أن منهم من قد سخره في البناء، ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلئ وغير ذلك مما لا يوجد إلا هناك. وقوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ ﴾؛ أي: قد عصوا؛ فقيدوا مقرنين اثنين اثنين في الأصفاد، وهي القيود. وهذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم يكن -أيضاً- لمن كان قبله.

وقد وروى البخاري[4]:عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «إ ن عفريتاً من الجن تفلت عليّ البارحة؛ ليقطع علي صلاتي؛ فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي

(١) ديوانه (ص ٢٢٥).

(٢) في الديوان: «نفى الذمّ عن».

(٣) في الديوان: «السيح».

(٤) في «صحيحه» (٣٤٢٣).

سليمان: ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ ﴾؛ فرددته خاسئاً».

وروى مسلم[١]:عن أبي الدرداء؛ قال: قام رسول الله ﷺ يصلي، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً. فلما فرغ من الصلاة ؛ قلنا: يا رسول الله! قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك ! قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار؛ ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك! ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة! فلم يستأخر! ثلاث مرات. ثم أردت أخذه، والله؛ لولا دعوة أخينا سليمان؛ لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة».

ورروىأحمد: عن أبي عبيد صاحب سليمان، قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني، ثم قال: حدثني أبو سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ قام، فصلى صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته؛ قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان؛ لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة؛ فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد؛ فليفعل».

روى أبو داود منه[٢]: «فمن استطاع» إلى آخره .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة؛ وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً.

روىالبخاري[٣]:عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله. فقال

---

(١) في «صحيحه» (٥٤٢).

(٢) في «سننه» (٦٩٩)، وقال شيخنا -رحمه الله- في «صحيح سنن أبي داود» (٦٤٧): «حسن صحيح».

(٣) في «صحيحه» (٣٤٢٤).

له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل. فلم تحمل شيئاً؛ إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه». فقال النبي ﷺ: «لو قالها؛ لجاهدوا في سبيل الله».

وروى أبو يعلى[1]: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله. ولم يقل: إن شاء الله. فطاف تلك الليلة على مائة امرأة، فلم تلد منهن امرأة؛ إلا امرأة ولدت نصف إنسان». فقال رسول الله ﷺ: «لو قال: إن شاء الله؛ لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله -عز وجل-».

وروى الإمام أحمد[2]: عن أبي هريرة؛ قال: قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، ولم يستثن. فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان. قال: قال رسول الله ﷺ: «لو استثنى؛ لولد له مئة غلام، كلهم يقاتل في سبيل الله -عز وجل-».

وروى الإمام أحمد[3]: عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان ابن داود: لأطوفن الليلة بمائة امرأة، تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله»، قال: «ونسي أن يقول: إن شاء الله، فأطاف بهن». قال: «فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان». فقال رسول الله ﷺ: «لو قال: إن شاء الله؛ لم يحنث، وكان دركاً لحاجته».

وقد كان له -عليه السلام- من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله، ولا يعطيه الله أحداً بعده؛ كما قال: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:١٦]، و ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ص:٣٥]، وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق.

---

(١) في «مسنده»، - ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٥٨)-، بسند صحيح على شرطهما.

(٢) في «مسنده» (٢/ ٢٢٩) وسنده صحيح على شرطهما -أيضاً-.

(٣) في «المسند» (٢/ ٢٧٥)، وكذا أخرجه البخاري (٥٢٤٢)، ومسلم (١٦٥٤).

ولما ذكر -تعالى- ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه؛ قال: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [ص:٣٩]؛ أي: أعط من شئت واحرم من شئت؛ فلا حساب عليك؛ أي: تصرف في المال كيف شئت؛ فإن الله قد سوغ لك ما تفعله من ذلك، ولا يحاسبك على ذلك، وهذا شأن النبي الملك؛ بخلاف العبد الرسول؛ فإن من شأنه ألا يُعطي أحداً إلا بإذن الله له في ذلك.

وقد خير نبينا محمد -صلوات الله وسلامه عليه- بين هذين المقامين، فاختار أن يكون عبداً رسولاً.

وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك، فأشار إليه أن تواضع، فاختار أن يكون عبداً رسولاً -صلوات الله وسلامه عليه-[1].

وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أمته إلى يوم القيامة؛ فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة[2]؛ فلله الحمد والمنة.

ولما ذكر- تعالى- ما وهبه لنبيّه سليمان - عليه السلام- من خير الدنيا؛ نبه على ما أعده له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه، وذلك يوم المعاد والحساب؛ حيث يقول -تعالى-: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ [ص:٤٠].

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، والبزار (٢٤٦٢)، وابن حبان (٦٣٦٥) بسند صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما-.

ذكر وفاته وكم كانت مدة ملكه وحياته

قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

عن ابن عباس عن النبي ﷺ؛ قال: «كان سليمان نبي الله -عليه السلام- إذا صلى؛ رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك ؟ فتقول :كذا، فيقول: لأي شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس؛ غرست، وإن كانت لدواء؛ أنبتت. فبينما هو يصلي ذات يوم؛ إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك ؟ قالت: الخروب، قال: لأي شيء أنت ؟ قالت: لخراب هذا البيت؛ فقال سليمان: اللهم! عم على الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب؛ فنحتها عصا، فتوكأ عليها حولا والجن تعمل، فأكلتها الأرضة[1]؛ فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب؛ ما لبثوا حولا في العذاب المهين. (قال: وكان ابن عباس يقرؤها كذلك) فشكرت الجن للأرضة، فكانت تأتيها بالماء»[2].

---

(١) دويبة بيضاء هي آفة الخشب.

(٢) ضعيف مرفوعا، صحيح موقوفا- أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢٢/ ٥١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»؛ كما في «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٦٦٤)، والبزار في «مسنده» (٢٣٥٥)، والطبراني في «الكبير» (١٢٢٨١)، والحاكم (٤/ ٤٠٢)، والضياء في «الأحاديث المختارة» (١٠/ ٢٩١/ ٣٠٨) من طريق إبراهيم بن طهمان به.

قلت: وعطاء؛ اختلط بأخره، وسماع إبراهيم منه بعد الاختلاط.

وأخرجه البزار (٢٣٥٦) من طريق سفيان بن عيينة عن عطاء به موقوفا.

وابن عيينة سمع منه قبل اختلاطه؛ فهذا أصح- وهو موقوف-.

وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٧٢)، والحاكم (٤/ ١٩٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٩٦-٢٩٧) من طريق سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به =

ذكر خراب بيت المقدس

وقوله -تعالى-: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝ ﴾ [الإسراء:٢-٨] (١).

= موقوفاً. وسنده حسن.

وبالجملة ؛ فالصحيح والأقرب أن يكون هذا الأثر موقوفاً.

(١) وانظر -لزاماً- كتابي «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح» (ص ٦١-٧٩).

ذكر شيء من خبر دانيال -عليه السلام-

قال أبو العالية: لما افتتحنا تُسْتَر؛ وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف؛ فأخذنا المصحف، فحملناه إلى عمر بن الخطاب، فدعا له كعباً، فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا. فقلت لأبي العالية: ما كان فيه ؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد، قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها؛ لنعميه على الناس؛ فلا ينبشونه، قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم؛ برزوا بسريره فيمطرون، قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال، قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما تغير منه شيء؟ قال: لا؛ إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع.

وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظاً من ثلاثمائة سنة؛ فليس بنبي، بل هو رجل صالح؛ لأن عيسى ابن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنص الحديث الذي في البخاري، والفترة التي كانت بينهما أربعمائة سنة، وقيل: ستمائة، وقيل: ستمائة وعشرون سنة، وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة، وهو قريب من وقت دانيال؛ إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر؛ فإنه قد يكون رجلاً آخر إما من الأنبياء أو الصالحين، ولكن قربت الظنون أنه دانيال؛ لأن دانيال كان قد أخذه ملك الفرس، فأقام عنده مسجوناً.

وقد روي بإسناد صحيح إلى أبي العالية: أن طول أنفه شبر، وعن أنس بن مالك بإسناد جيد: أن طول أنفه ذراع؛ فيحتمل على هذا أن يكون رجلاً من الأنبياء الأقدمين قبل هذه المدد، والله -تعالى- أعلم.

روي ابن أبي الدنيا: عن عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه؛ قال: رأيت في يد أبي بردة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نَقْشُ فصّه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل.

قال أبو بردة: وهذا خاتم ذلك الرجل الميت، الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال، أخذه أبو موسى يوم دفنه.

قال أبو بردة: فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم؟ فقالوا: إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم، فقالوا له: إنه يولد ليلة كذا وكذا غلام يغور ملكك ويفسده. فقال الملك: والله؛ لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته. إلا أنهم أخذوا دانيال؛ فألقوه في أجمة الأسد، فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضراه؛ فجاءت أمه، فوجدتهما يلحسانه، فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ.

قال أبو بردة: قال أبو موسى: قال علماء تلك القرية: فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه؛ لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك. إسناد حسن.

وهذا ذكر عمارة بيت المقدس بعد خرابها واجتماع الملأ من بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض وشعابها

قال الله -تعالى- في كتابه المبين وهو أصدق القائلين: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٥٩].

قصة العزير

المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة؛ ألهمه الله حفظها، فسردها على بني إسرائيل.

وروى ابن عساكر[1] عن ابن عباس: أنه سأل عبد الله بن سلام عن قول الله -تعالى-: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠]: لم قالوا ذلك؟ فذكر له ابن سلام ما كان مِنْ كَتَبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه وقول بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من غير كتاب ! فرماه طوائف منهم، وقالوا: عزير ابن الله!

ولهذا يقول كثير من العلماء: إن تواتر التوراة انقطع في زمن العزير. وهذا متجه جداً إذا كان العزير غير نبي؛ كما قاله عطاء بن أبي رباح والحسن والبصري.

وقد ثبت في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات، ليس بيني وبينه نبي»[2].

وقد روى الجماعة سوى الترمذي عن أبي هريرة.

وكذلك رواه شعيب عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: « نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة؛ فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أَمَرَ بها فأحرقت بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة »[3].

وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري: أنه عزير[4]، فالله أعلم.

---

(١) في «تاريخه» (٤٠/ ٣٢٥).

(٢) سيأتي تخريجه (ص ٤٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٠١٩و٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١)، وأبو داود (٥٢٦٥ و٥٢٦٦)، والنسائي (٧/ ٢١٠)، وابن ماجه (٣٢٢٥).

(٤) ولا يصح في ذلك شيء ألبتة.

قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام -

[خبر زكريا ويحيى - عليهما السلام - في القرآن الكريم]

قال الله -تعالى- في كتابه العزيز: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾ [مريم: ١-١٥]

وقال -تعالى-: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا

تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾ [آل عمران:٣٧-٤١].

وقال -تعالى- في سورة الأنبياء [٨٩-٩٠]: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنعام:٨٥].

والمقصود: أن الله -تعالى- أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا -عليه السلام- وما كان من أمره؛ حين وهبه الله ولداً على الكبر، وكانت امرأته مع ذلك عاقراً في حال شبيبتها، وقد أسنت أيضاً ، حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله -تعالى وتقدس-.

فقال -تعالى-: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم:٢-٣]؛ قال قتادة عند تفسيرها: إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي[1]. وقال بعض السلف: قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافته، فقال: يا رب ! يا رب ! يا رب! فقال الله: لبيك لبيك لبيك ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾؛ أي: ضعف وخار من الكبر ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾: استعارة من اشتعال النار في الحطب؛ أي: غلب على سواد الشعر شيبه؛ كما قال ابن دريد في مقصورته[2]:

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة[3] صبح تحت أذيال الدجا

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٣٥) بسند صحيح عنه.

(٢) المقصورة من الشعر: ما كانت قافيته مختومه بألف مقصورة. وانظر «تخميس مقصورة ابن دريد» (ص٣١-٣٣و٣٧).

(٣) الجبهة والناصية.

واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضا(١)
وآض(٢) عود اللهو يبساً ذاوياً من بعد ما قد كان مجاج الثرى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً. وهكذا قال زكريا -عليه السلام-: ﴿ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾. وقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾؛ أي: ما عودتني فيما أسألك إلا الإجابة.

وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران ، وكان كلما دخل عليها محرابها؛ وجد عندها فاكهة في غير إبانها ولا في أوانها، وهذه من كرامات الأولياء، فعلم أن الرزاق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن في سنه؛ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران:٣٨].

وقوله: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾؛ قيل: المراد بالموالي العصبة، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته، فسأل وجود ولد من صلبه يكون براً تقياً مرضياً؛ ولهذا قال: ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ﴾؛ أي: من عندك بحولك وقوتك. ﴿ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى ﴾؛ أي: في النبوة والحكم في بني إسرائيل. ﴿ وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾؛ يعني: كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء؛ فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي، وليس المراد هاهنا وراثة المال؛ كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة، ووافقهم ابن جرير(٣) هاهنا وحكاه عن أبي صالح من السلف؛ لوجوه:

أحدها: ما قدمناه عند قوله -تعالى-: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل:١٦]؛ أي: في النبوة والملك؛ لما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء، المروي في

---

(١) من شجر البادية.

(٢) صار.

(٣) في «جامع البيان» (١٦/ ٣٧).

الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ؛ قال: «لا نورث؛ ما تركنا؛ فهو صدقة»[١].

فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث؛ ولهذا منع الصدّيق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من ورثته الذين لولا هذا النص؛ لصرف إليهم، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس -رضي الله عنهم-، واحتج عليهم الصدّيق في منعه إياهم بهذا الحديث، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون -رضي الله عنهم-.

والثاني: أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»، وصححه[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٢-٣٠٩٤)، ومسلم (١٧٥٧-١٧٦١).

(٢) قلت: وقد وهم المصنف-رحمه الله- في هذا ؛ فإن الترمذي لم يروه ألبتة بلفظ «نحن»؛ بل ليس هو في الكتب الستة ولا في شيء من كتب الحديث المسندة.

قال الذهبي؛ كما في « موافقة الخبر الخبر»(١/ ٤٨١): « ليس هو في الكتب الستة»، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»(١٢/ ٨): «وأما ما اشتهر في كتب أهل الأصول وغيرهم بلفظ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث »؛ فقد أنكره جماعة من الأئمة وهو كذلك بالنسبة لخصوص لفظ: (نحن) ».

وقال في «موافقة الخبر الخبر» (١/ ٤٨٢): «وحاصل هذا: أن الخبر لم يوجد بلفظ: (نحن)، ووجد بلفظ: «إنا »، ومفادهما واحد، فلعل من ذكره ذكره بالمعنى، والله أعلم ».

قلت: لفظ (إنا)؛ أخرجه النسائي في «السنن الكبرى»(٤/ ٦٤/ ٦٣٠٩)- ومن طريقه الحافظ ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر»(١/ ٤٨١-٤٨٢)- ، وأحمد في «المسند»(١٧٢)، وغيرهم بسند صحيح.

وأخرجه أحمد(٢/ ٤٦٣) من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- بلفظ: (إنا)، وسنده صحيح.

الثالث: أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم؛ فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها.

الرابع: أن زكريا -عليه السلام- كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها؛ كما كان داود -عليه السلام- يأكل من كسب يده، والغالب -ولا سيما من مثل حال الأنبياء- أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه مالاً يكون ذخيرة له ولمن يخلفه من بعده، وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً»[1].

[الملائكة تبشر زكريا بيحيى -عليهما السلام-]

وقوله: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾ [مريم:٧]: وهذا مفسر بقوله: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:٣٩].

فلما بُشر بالولد وتحقق البشارة؛ شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم:٨]؛ أي: كيف يوجد ولد من شيخ كبير؟! قيل: كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة، والأشبه- والله أعلم- أنه كان أسن من ذلك، ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾؛ يعني: وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً لا تلد! والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٦و٤٠٥و٤٨٥)، ومسلم (٢٣٧٩)، وابن ماجه (٢١٥٠).

كما قال الخليل: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر:٥٤]، وقالت سارة: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود:٧٢-٧٣].

وهكذا أجيب زكريا -عليه السلام-؛ قال له الملك الذي يوحي إليه بأمر ربه: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾؛ أي: هذا سهل يسير عليه. ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾؛ أي: قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، أفلا يوجد منك ولد وإن كنت شيخاً؟!

وقال -تعالى-: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٩٠]: ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ ﴾ [مريم:١٠]؛ أي: علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم:١٠]؛ يقول: علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً، وأنت في ذلك سويّ الخلق صحيح المزاج معتدل البنية. وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب، واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار.

فلما بشر بهذه البشارة؛ خرج مسروراً بها على قومه من محرابه؛ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾: والوحي هاهنا هو الأمر الخفي: إما بكتابة؛ أو إشارة.

وقوله -تعالى-: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾ [مريم:١٢]: يخبر -تعالى- عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا -عليه السلام- وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه.

وأما قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [مريم:١٣]، فروى ابن جرير عن عكرمة[١] وقتادة[٢] والضحاك[٣]: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾؛ أي: رحمة من عندنا، رحمنا بها زكريا ، فوهبنا له هذا الولد.

وأما الزكاة؛ فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل. والتقوى: طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره.

ثم ذكر بره بوالديه، وطاعته لهما أمراً ونهياً، وترك عقوقهما قولاً وفعلاً؛ فقال: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ ﴾ [مريم:١٤]، ثم قال: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝ ﴾: هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان؛ فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر؛ فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه؛ ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها، وانتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها ! وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينهما وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور؛ فمن مسرور ومحبور، ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق في الجنة وفريق في السعير! ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمك باكياً مستصرخاً   والناس حولك يضحكون سروراً

فاحرص لنفسك أن تكون إذا   بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

ولما كانت هذه الواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم؛ سلم الله على يحيى في كل موطن منها، فقال: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝ ﴾ [مريم:١٥].

---

(١) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٣) بسند صحيح.
(٢) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٣) بسند صحيح.
(٣) أخرجه الطبري (١٦/ ٤٣) بسند صحيح.

وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران:٣٩]؛ فقيل: المراد بالحَصور: الذي لا يأتي النساء، وقيل: غير ذلك، وهو أشبه؛ لقوله: ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران:٣٨].

وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة؛ ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى »[١].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب؛ إلا ما كان من يحيى بن زكريا »[٢].

[من فضائل يحيى -عليه السلام-]

وروى الإمام أحمد: عن الحارث الأشعري: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات: أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطىء؛ فقال له عيسى -عليه السلام-: إنك قد أمرت بخمس كلمات: أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن؛ فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخي! إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أويخسف بي».

قال: «فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله -عز وجل- أمرني بخمس كلمات: أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن:

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (١/ ٣٤٥و٢٩٥و٣٠١و٣٢٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٥٦٢/ ١١٩٨٥)، وأبو يعلى في « مسنده»(٤/ ٤١٨/ ٢٥٤٤)، والطبراني في «الكبير» (١٢/ ١٦٧/ ١٢٩٣٣)، والبزار في «مسنده»(٣/ ١٠٨/ ٢٣٥٨-كشف)، والحاكم (٢/ ٥٩١)، والبيهقي (١٠/ ١٨٦)، وابن عساكر في « تاريخه»(١٨/ ٩٣).

قلت: وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

وللحديث طرق أخرى وشواهد جمعها وخرجها بتفصيل وحكم عليها شيخنا الألباني -رحمه الله- في «الصحيحة»(٦/ رقم٢٩٨٤)؛ فانظره غير مأمور.

(٢) انظر: «الصحيحة»(٦/ ١٢٠٨-١٢٠٩).

أولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً؛ فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيده؛ فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟! وإن الله خلقكم ورزقكم؛ فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وآمركم بالصلاة؛ فإن الله ينصب وجهه قِبَلَ عبده مالم يلتفت؛ فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صُرّة من مسك في عصابة؛ كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فشدوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وآمركم بذكر الله -عز وجل- كثيراً؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً، فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله -عز وجل- ».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «وأنا آمركم بخمس -الله أمرني بهن-: بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله؛ فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر؛ فقد خلع ربقَ الإسلام[1] من عنقه؛ إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية؛ فهو من جُثا[2] جهنم».

قالوا: يا رسول الله ! وإن صام وصلى؟

قال: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم، بما سماهم الله -عز وجل-، المسلمين المؤمنين عباد الله-عز وجل-»[3].

---

(١) ربق الإسلام: جمع ربقة، وهي العقدة في الحبل.

(٢) حجارتها.

(٣) صحيح- أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠و٢٠٢)، والطيالسي (١١٦١و١١٦٢)، والترمذي
=

بيان سبب قتل يحيى -عليه السلام-

وذكروا في قتله أسباباً:

من أشهرها: أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها؛ فنهاه يحيى -عليه السلام- عن ذلك، فبقي في نفسها منه.

فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها؛ استوهبت منه دم يحيى، فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها، فيقال: إنها هلكت من فورها وساعتها.

ثم اختلف في مقتل يحيى بن زكريا: هل كان في المسجد الأقصى أم بغيره؟ على قولين:

فقال الثوري[1]: عن الأعمش، عن شمر بن عطية؛ قال: قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً، منهم: يحيى بن زكريا -عليه السلام-.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام[2]: عن سعيد بن المسيب؛ قال: قدم بختنصر دمشق؛ فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأله عنه؟ فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفاً، فسكن.

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهو يقتضي أنه قتل بدمشق.

= (٢٨٦٣و٢٨٦٤)، والنسائي في «الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف» (٣/٣)، وأبو يعلى (١٥٧١)، والطبراني (٣٤٢٧-٣٤٣١)، وابن خزيمة (٤٨٣و٩٣٠و١٨٩٥).

(١) ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ١٠٥).

(٢) المصدر نفسه.

قصة عيسى ابن مريم
عبد الله ورسوله وابن أمته
-عليه من الله أفضل الصلاة والسلام-

قال الله -تعالى- في سورة آل عمران، والتي أنزل صدرها- وهو ثلاث وثمانون آية منها- في الرد على النصارى -عليهم لعائن الله-، الذين زعموا: أن لله ولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ، فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم[١] ويدعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة، وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم؛ على اختلاف فرقهم[٢]، فأنزل الله -عز وجل- صدر هذه السورة؛ بين فيها أن عيسى عبد من عباد الله؛ خلقه وصوره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات، وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وقال له: كن ! فكان، سبحانه وتعالى، وبّين أصل ميلاد أمه مريم، وكيف كان من أمرها، وكيف حملت بولدها عيسى، وكذلك بسط ذلك في سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته.

فقال -تعالى- وهو أصدق القائلين: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا

---

(١) المشهور عندهم -الآن- أن الأقانيم هي: الأب، والابن، والروح القدس.
وهذا لا ينافي أنهم اتخذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله، نعوذ بالله من ضلالهم وكفرهم.
(٢) انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٢٤٤).

نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣-٣٧].

يذكر -تعالى- أنه اصطفى آدم -عليه السلام- والخلّص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: ﴿ وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾؛ فدخل فيهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب، وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم -عليها السلام-.

ولا خلاف أنها من سلالة داود -عليه السلام-، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور.

[ميلاد مريم -عليها السلام-]

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾: وقرئ بضم التاء[1]. ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾؛ أي: في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خداماً من أولادهم.

وقولها: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾: استدل به على تسمية المولود يوم يولد.

وكما ثبت في «الصحيحين» عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ؛ فحنّك أخاه، وسماه:عبد الله[2].

---

(١) وهي قراءة ابن عامر الدمشقي وشعبة عن عاصم ويعقوب البصري؛ كما في «النشر»(٢/ ٢٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعاً: «كل غلام رهينة بعقيقته؛ تذبح عنه يوم سابعه، ويسمى، ويحلق رأسه». رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي[١].

وقولها: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: قد استجيب لها في هذا؛ كما تقبل منها نذرها.

روى الإمام أحمد: عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود؛ إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه؛ إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

وروى أحمد[٢] -أيضاً-: عنه عن النبي ﷺ؛ قال: «كل مولود من بني آدم يمسه الشيطان بأصبعه؛ إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى».

وروى أحمد[٣]: أن النبيﷺ قال: «كل إنسان تلده أمه يلكزه الشيطان في حضنيه؛ إلا ما كان من مريم وابنها، ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ؟». قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «ذلك حين يلكزه الشيطان بحضنيه».

وروى الإمام أحمد[٤] عنه - أيضاً- : عن النبي ﷺ؛ قال: «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين يولد؛ إلا عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب».

---

(١) صحيح- أخرجه أحمد (٥/ ١٧و٢٢)، وأبو داود (٢٨٣٧)، والترمذي (١٥٢٢)، والنسائي (٧/ ١٦٦)، وابن ماجه (٣١٦٥) وغيرهم بسند صحيح. وقد فصلت تخريجه والكلام عليه في تحقيقي لكتاب « تحفة المودود» (ص٧٢-٧٣).

(٢) في « المسند» (٢/ ٢٨٨) وسنده حسن.

(٣) في «المسند» (٢/ ٣٦٨) وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٤) في «مسنده» (٢/ ٥٢٣) وسنده على شرطهما.

[مريم في كفالة زكريا -عليه السلام-]

وقولـــــه: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾؛ ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتــها؛ لفتـها في خروقـها، ثـم خرجت بها إلى المسجد، فسلمتها إلى العباد الذيـن هـم مقيمـون بـه، وكـانت ابنـة إمامهم وصاحب صلاتهم، فتنازعوا فيها.

والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها. ثم لمـا دفعتها إليهم؛ تنازعوا في أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل أن زوجته أختها أو خالتها على القولين. فشاحّوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير، فخرجت قرعته غالبة لهـم، وذلـك أن الخالة بمنزلة الأم.

قال الله -تعالى-: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾؛ أي: بسبب غلبه لهـم في القرعـة؛ كمـا قـال -تعـالى-: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:٤٤]؛ قالوا: وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمـه معروفـاً بـه، ثـم حملوهـا ووضعوها في موضع، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث[١]، فأخرج واحداً منـها، وظـهر قلم زكريا -عليه السلام-. فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر؛ فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء؛ فهو الغالب ففعلوهـا، فكان زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء،؛ وسارت أقلامهم مع الماء ثـم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة؛ فأيهم جرى قلمه مـع المـاء ويكـون بقيـة الأقـلام قـد انعكس سيرها صعداً؛ فهو الغالب، ففعلوا؛ فكان زكريا هو الغالب لهم، فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة.

(١) سن البلوغ.

قال الله -تعالى-: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾؛ قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانا شريفا من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا؛ كلما دخل عليها موضع عبادتها؛ يجد عندها رزقا غريبا في غير أوانه، فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾؟! فتقول: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: رزق رزقنيه الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه؛ وإن كان قد أسن وكبر؛ ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران:٣٨]: قال بعضهم: قال: يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه! هب لي ولدا وإن كان في غير أوانه! فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته.

[اصطفاء الله لمريم - عليها السلام -]

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران:٤٢-٥١].

يذكر -تعالى- أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها؛ بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب، وبُشّرت بأن يكون نبياً شريفاً ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ ﴾؛ أي: في صغره؛ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك في حال كهوليته، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع؛ لتكون أهلاً لهذه الكرامة، ولتقوم بشكر هذه النعمة. فيقال: إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها.

فقول الملائكة: ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾؛ أي: اختارك واجتباك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾؛ أي: من الأخلاق الرذيلة، وأعطاك الصفات الجميلة ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها؛ كقوله لموسى: ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، وكقوله عن بني إسرائيل: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الدخان:٣٢]، ومعلوم أن إبراهيم -عليه السلام- أفضل من موسى، وأن محمداً ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: محفوظ العموم، فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو وجد بعدها؛ لأنها:

إن كانت نبية - على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم

وغيره-؛ فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى؛ لعموم قوله: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ إذ لم يعارضه غيره، والله أعلم.

وأما على قول الجمهور- كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره من أهل السنة والجماعة- من أن النبوة مختصة بالرجال، وليس في النساء نبية؛ فيكون أعلى مقامات مريم؛ كما قال الله -تعالى-: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة:٧٥]؛ فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها، والله أعلم.

وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضي الله عنهن وأرضاهن:

وقد روى الإمام أحمد و البخاري ومسلم و الترمذي و النسائي، عن علي ابن أبي طالب -رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»[١].

وروى الإمام أحمد: عن أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ:«حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»[٢].

وروى الإمام أحمد[٣]:عن أبي هريرة يحدث: أن النبي ﷺ قال: «خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش؛ أحناه على ولد في صغره، وأرعاه لزوج في ذات يده» . قال أبو هريرة: ولم تركب مريم بعيراً قط.

وقد رواه مسلم في «صحيحه»[٤] .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٨٤و١١٦و١٣٢و١٤٣)، والبخاري (٣٤٣٢)، ومسلم (٢٤٣٠)، والترمذي (٣٨٧٧)، والنسائي في «الكبرى»؛ كما في «تحفة الأشراف»(٧/ ٣٩٤).

(٢) صحيح- أخرجه عبد الرزاق في « المصنف»(٢٠٩١٩)، وأحمد (٣/ ١٣٥)، والترمذي (٣٨٧٨)، وابن حبان (٧٠٠٣)، والحاكم (٣/ ١٥٧) وغيرهم بسند صحيح.

(٣) في «مسنده»(٢/ ٢٦٩و٢٧٥) وسنده صحيح.

(٤) (٢٥٢٧).

وروى أبو يعلى الموصلي[١]:عن ابن عباس؛ قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط، فقال: «أتدرون ما هذا ؟ »، قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله: « أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ». ورواه النسائي[٢]عن عائشة: أنها قالت لفاطمة: أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ؟ قالت: أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أكببت عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت[٣]. وأصل هذا الحديث في «الصحيح »، وهذا إسناد على شرط مسلم، وفيه أنهما أفضل الأربع المذكورات.

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد[٤]: عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة؛ إلا ما كان من مريم بنت عمران ».

---

(١) في «مسنده»(٥/ ١١٠/ ٢٧٢٢) وسنده صحيح.

(٢) في « السنن الكبرى»(٥/ ٩٣/ ٨٣٥٥)، وأخرجه -أيضاً- أحمد (١/ ٢٩٣و٣٦٦ و٣٢٢)، وابن حبان في «صحيحه»(٧٠١٠) وغيرهم كثير.

(٣) حسن- وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى»(٥/ ٩٥/ ٨٣٦٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ١٢٦/ ١٢٣٢٠)، والطبراني في « المعجم الكبير» (٢٢/ رقم١٠٣٤)، وابن حبان في«صحيحه»(١٥/ رقم٦٩٥٢-إحسان) من طرق عن محمد بن عمرو به.

قلت: وسنده حسن.

والحديث أصله في البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠)؛ كما قال المصنف -رحمه الله-.

(٤) في «مسنده» (٣/ ٨٠)، و«فضائل الصحابة»(٢/ ٧٥٧/ ١٣٣١).

وأخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»(٣/ ٨٠) عن عثمان بن محمد به.

وأخرجه أحمد (٣/ ٦٢و٦٣)، والترمذي (٣٧٧١)، وأبو يعلى (٢/ ٣٩٥/ ١١٦٩)، والحاكم (٣/ ١٥٤) من طريقين عن عبد الرحمن بن أبي نعم به.

قلت: وهو صحيح؛ كما قال الحاكم والذهبي وشيخنا الألباني.

وانظر: «الصحيحة»(٢/ ٤٢٤).

والمقصود: أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربع، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة، ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة.

ولكن ورد حديث؛ إن صح؛ عين الاحتمال الأول؛ عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية امرأة فرعون»[1].

فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بثم التي للترتيب؛ فهو مبين لأحد الاحتمالين اللذين دل عليهما الاستثناء، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لاتقتضي الترتيب ولا تنفيه، والله أعلم.

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي عن ابن عباس مرفوعاً[2]. فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية، فخالفه إسناداً ومتناً، فالله أعلم.

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه، عن معاوية بن قرة، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت

---

(١) موضوع بهذا اللفظ؛ أخرجه الزبير بن بكار في «النسب»؛ كما في «الاستيعاب» (٤/ ٢٧٥)- ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ٧/ ٢)، وابن عساكر في «تاريخه»-به.

قلت: ومحمد بن الحسن بن زبالة؛ كذبوه؛ كما في «التقريب».

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٢٦): «رواه الطبراني؛ وفيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو متروك».

وقال الحافظ في «فتح الباري» (٧/ ١٣٦): «ليس بثابت».

(٢) صحيح- أخرجه أبو داود؛ كما في «تحفة الأشراف» (٥/ ٢٠٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٣٢٨/ ١٢١٧٩) من طرق عن الدراوردي به.

قال شيخنا الإمام الألباني-رحمه الله- في «الصحيحة» (٣/ ٤١٠/ ١٤٢٤): «وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم».

وللحديث شواهد ذكرها شيخنا- رحمه الله- ؛ فانظرها غير مأمور.

عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة؛ إلا أبا داود، عن أبي موسى الأشعري؛قال: قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[1]؛ فإنه حديث صحيح كما ترى، اتفق الشيخان على إخراجه، ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما؛ فإن كلاً منهما كفلت نبياً في حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبدالله ورسوله؛ فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة:

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها- رضي الله عنها وأرضاها-.

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؛ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها؛ لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها مُتن في حياة النبي ﷺ.

وأما عائشة؛ فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، ولم يتزوج بكْراً غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة - بل ولا في غيرها -أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا؛ فأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات، وقد عُمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة؛ تبلغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين، وتصلح بين المختلفين، وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسن الوقف فيهما -رضي الله عنهما-، وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ: « وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» يحتمل أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١)، والترمذي (١٨٣٤)، والنسائي (٧/ ٦٨)، وابن ماجه (٣٢٨٠)، وأحمد (٤/ ٣٩٤و٤٠٩).

عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات، والله أعلم.

والمقصود هاهنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران -عليها السلام-؛ فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا.

وقد روي أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم. وقد ذكرنا في «التفسير»[1] عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم:٥]؛ قال: فالثيب آسية، ومن الأبكار مريم بنت عمران. وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم، فالله أعلم.

(١) (٨/ ٢١٥).

ذكر ميلاد العبد الرسول

عيسى ابن مريم العذراء البتول

قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

[مريم: ١٦-٣٧].

ذكر -تعالى- هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها؛ كما ذكر في سورة آل عمران؛ قرن بينهما في سياق واحد، وكما قال في سورة الأنبياء: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٩-٩١].

وقد تقدم أن مريم لما وُلِدت؛ جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس، وأنه كفلها زوج أختها نبي ذلك الزمان زكريا -عليه السلام-، وأنه اتخذ لها محراباً -وهو المكان الشريف من المسجد- لا يدخله أحد عليها سواه، وأنها لما بلغت؛ اجتهدت في العبادة، فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا -عليه السلام-، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها، وبأنها سيهب لها ولداً زكياً يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولد من غير والد؛ لأنها لا زوج لها، ولا هي ممن تتزوج، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء، إذا قضى أمراً؛ فإنما يقول له كن! فيكون. فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها؛ فإن الناس يتكلمون فيها بسببه؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء؛ فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤونها و ﴿ ٱنتَبَذَتۡ ﴾؛ أي: انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى؛ إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل -عليه السلام- ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ ﴾.

فلما رأته؛ ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم:١٨]؛ قال أبو العالية: علمت أن التقيّ ذو نُهية. وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقي؛ فإن هذا قول باطل بلا دليل، وهو من أسخف الأقوال.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ [مريم:١٩]؛ أي: خاطبها الملك قائلاً: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾؛ أي: لست ببشر، ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم:١٩]؛ أي:ولداً زكياً.

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾؛ أي: كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾؛ أي: ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة؟! ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾؛ أي: فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾؛ أي: وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل، ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾؛ أي: وهذا سهل عليه ويسير لديه؛ فإنه على ما يشاء قدير.

وقوله: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾؛ أي: ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه -تعالى- خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾؛ أي: نرحم به العباد؛ بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفوليته وكهوليته؛ بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها؛ يعني: أن هذا أمر قد قضاه الله وحتّمه وقدره وقرّره. وهذا معنى قول محمد بن إسحاق، واختاره ابن جرير[1] ولم يحك سواه، والله أعلم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾: كناية عن نفخ جبريل فيها؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم:١٢] ؛ فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها، فحملت من فورها كما تحمل المرأة

---

(١) في «جامع البيان» (١٦/ ٤٧).

عند جماع بعلها. ومن قال: إنه نفخ في فمها! أو إن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها! فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن؛ فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة، وهو جبريل -عليه السلام-، وأنه إنما نفخ فيها، ولم يواجه الملك الفرج، بل نفخ في جيبها، فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه؛ كما قال- تعالى-: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾؛ فدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها؛ كما روي عن أبي بن كعب، ولا في صدرها؛ كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ ﴾؛ أي: فحملت ولدها ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾: وذلك؛ لأن مريم -عليها السلام- لما حملت؛ ضاقت به ذرعاً، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها.

فذكر غير واحد من السلف أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل؛ كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له: يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج ! فعرَّض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم ! هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم؛ فمن خلق الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم ؛ فمن خلق الشجر الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم؛ إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال لها: فأخبريني خبرك؛ فقالت: إن الله بشرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران:٤٥و٤٦].

ويروى مثل هذا عن زكريا -عليه السلام- أنه سألها؛ فأجابته بمثل هذا، والله أعلم.

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر؛ كما تحمل النساء ويضعن لميقات حملهن ووضعهن؛ إذ لو كان خلاف ذلك؛ لذكر.

وعن ابن عباس وعكرمة[١]: أنها حملت به ثمانية أشهر، وعن ابن عباس[٢]: ما هو إلا أن حملت به فوضعته. قال بعضهم[٣]: حملت به تسع ساعات، واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [مريم:٢٢-٢٣]. والصحيح: أن تعقيب كل شيء بحسبه؛ كقوله: ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [الحج:٦٣]، وكقوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤]، ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوما؛ كما ثبت في الحديث المتفق عليه[٤].

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم:٢٣]: فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها؛ مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾؛ أي: لم تخلق بالكلية.

وقوله: ﴿ فَنَادَىٰهَا مَن تَحْتِهَآ ﴾: وقرئ ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ على الخفض[٥].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»؛كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٩٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٠)، والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم؛ كما في « الدر المنثور» (٥/ ٤٩٧).

(٣) هو الحسن البصري؛ أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» عنه؛ كما في « الدر المثور» (٥/ ٤٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود-رضي الله عنه- به.

(٥) قرأ ابن كثير المكي وأبو عمرو البصري وابن عامر الدمشقي وشعبة عن عاصم الكوفي ﴿ مَن تَحْتِهَآ ﴾- بفتح الميم ونصب التاء، وقرأ الباقون ﴿ مِن تَحْتِهَآ ﴾ بكسر الميم =

وفي المضمر قولان: أحدهما: أنه جبريل؛ قاله العوفي عن ابن عباس[١]. قال: ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم. وبهذا قال سعيد بن جبير وعمرو بن ميمون[٢] والضحاك[٣] والسدي[٤] وقتادة[٥]. وقال مجاهد[٦] والحسن[٧] وابن زيد[٨] وسعيد ابن جبير[٩] في رواية: هو ابنها عيسى، واختاره ابن جرير[١٠].

وقوله: ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾؛ قيل: النهر. وإليه ذهب الجمهور. وجاء فيه حديث رواه الطبراني[١١]، لكنه ضعيف.

واختاره ابن جرير[١٢] وهو الصحيح.

وعن الحسن والربيع بن أنس وابن أسلم وغيرهم[١٣]: أنه ابنها.

= وخفض التاء، انظر: «النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣١٨)، وانظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة (ص٤٤٠).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٢) وسنده ضعيف جداً.

(٢و٣و٤و٥) أخرجها عنهم الطبري (١٦/ ٥١-٥٢)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦).

(٦) أخرجه الطبري (١٦/ ٥٢).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٦)- ومن طريقه الطبري (١٦/ ٥٢)-.

(٨و٩و١٠) أخرجها عنهم الطبري (١٦/ ٥٢).

(١١) في «المعجم الصغير» (رقم٦٨٦) من حديث البراء بن عازب مرفوعاً بسند ضعيف، وضعفه شيخنا -رحمه الله- في «الصحيحة» (١١٩١)، ومن قبله المصنف -رحمه الله- في «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٢٨٦).

لكن أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦-٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٦/ ٥٣)، والحاكم (٢/ ٣٧٣) من طريق سفيان الثوري وشعبة كلاهما عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء به موقوفاً.

قلت: وسنده صحيح موقوفاً؛ لكن له حكم الرفع، وصححه شيخنا الإمام الألباني -رحمه الله-.

(١٢) في «جامع البيان» (١٦/ ٥٤).

(١٣) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٥٤)، و«تفسير القرآن العظيم» (٥/ ٢٨٦).

الصحيح الأول؛ لقوله: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم:٢٥]؛ فذكر الطعام والشراب؛ ولهذا قال: ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ [مريم:٢٦].

ثم قيل: كان جذع النخلة يابسا، وقيل: كانت نخلة مثمرة. فالله أعلم. ويحتمل أنها كانت نخلة، لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك؛ لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر، وقد يفهم ذلك من قوله -تعالى- على سبيل الامتنان: ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾.

قال عمرو بن ميمون: ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية.

و قوله: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٦]: وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها؛ قال: ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ ﴾؛ أي: فإن رأيت أحدا من الناس ﴿ فَقُولِىٓ ﴾ له؛ أي: بلسان الحال والإشارة: ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾؛ أي: صمتا، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام؛ قاله قتادة والسدي وابن أسلم، ويدل على ذلك قوله: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾. فأما في شريعتنا؛ فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل[1].

وقوله -تعالى-: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾؛ ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم؛ ذهبوا في طلبها، فمروا على محلتها والأنوار حولها، فلما واجهوها؛ وجدوا معها ولدها، فقالوا لها: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾؛ أي: أمرا عظيما منكرا! وفي هذا الذي قالوه نظر؛ مع أنه كلام ينقض أوله آخره!

(١) كما في سنن أبي داود (٢٨٧٣)، وهو حسن.

وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله. قال ابن عباس: وذلك بعد ما تعالت[١] من نفاسها بعد أربعين يوما.

والمقصود: أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها؛ ﴿ قَالُواْ يَـٰمَرْيَـمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾: والفرية هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال.

ثم قالوا لها: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ قيل: شبهوها بعابد من عباد زمانهم كانت تساميه في العبادة، وكان اسمه هارون. وقيل: شبهوها برجل فاجر في زمانهم اسمه هارون؛ قاله سعيد بن جبير. وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى؛ شبهوها به في العبادة. وأخطأ محمد بن كعب القرظي في زعمه أنها أخت موسى وهارون نسبا؛ فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع ! وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه، فاعتقد أن هذه هي هذه !

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن؛ كما قررناه في «التفسير»[٢] مطولا، ولله الحمد والمنة.

وقد ورد في الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون، وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها، والله أعلم.

روى الإمام أحمد[٣]: عن المغيرة بن شعبة؛ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾؛ وموسى قبل عيسى بكذا

---

(١) خرجت من نفاسها وطهرت.

(٢) (٥/ ٢٨٩-٢٩٠)

(٣) في «مسنده» (٤/ ٢٥٢). وأخرجه مسلم (٢١٣٥)، والترمذي (٣١٥٥)، والنسائي في «التفسير» (٣٣٥).

وكذا؟! قال: فرجعت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ؛ فقال: « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم».

وفي رواية: « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم».

والمقصود: أنهم قالوا: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾، ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هارون، وكان مشهورا بالدين والصلاح والخير؛ ولهذا قالوا: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾؛ أي: لست من بيت هذا شيمتهم ولا سجيتهم؛ لا أخوك ولا أمك ولا أبوك.

فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء!

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال؛ عظم التوكل على ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال؛ ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾؛ أي: خاطبوه وكلموه؛ فإن جوابكم عليه، وما تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿ قَالُوا۟ ﴾؛ من كان منهم جبارا شقيا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾؛ أي: كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده، ولا يميز بين محض وزبده، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء، والنقص لنا والازدراء؛ إذ لا تردين علينا قولا نطقيا، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيا!

فعندها: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن قال: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾: اعترف لربه -تعالى- بالعبودية، وأن الله ربه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا -لعنهم الله وقبحهم-؛ كما قال -تعالى-: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ۝١٥٦ ﴾،

وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنى في زمن الحيض -لعنهم الله-. فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة، واتخذ ولدها نبيا مرسلا أحد أولي العزم الخمسة الكبار؛ ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ وذلك أنه حيث كان؛ دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة -تعالى وتقدس- ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾: وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف، وقرى الأضياف، والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات، ثم قال: ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾؛ أي: وجعلني برا بوالدتي، وذلك أنه تأكد حقها عليه؛ لتمحض جهتها؛ إذ لا والد له سواها؛ فسبحان من خلق الخليقة وبرأها، وأعطى كل نفس هداها ! ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾؛ أي: لست بفظ ولا غليظ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته. ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾: وهذه المواطن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا -عليهما السلام-.

ثم لما ذكر -تعالى- قصته على الجلية وبين أمره ووضحه وشرحه؛ قال: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [مريم:٣٤و٣٥]؛ كما قال -تعالى- بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران: ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ

ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [آل عمران:٥٨-٦٣].

ولهذا؛ لما قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكبا، يرجع أمرهم إلى أربعة عشر منهم، ويؤول أمر الجميع إلى ثلاثة هم أشرافهم وساداتهم، وهم العاقب والسيد وأبو حارثة بن علقمة، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح؛ فأنزل الله صدر سورة آل عمران في ذلك، وبين أمر المسيح وابتداء خلقه وخلق أمه من قبله.

وأمر رسوله بأن يباهلهم[١] إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلما رأوا عينيها وأذنيها نكصوا وامتنعوا عن المباهلة، وعدلوا إلى المسالمة والموادعة، وقال قائلهم- وهو العاقب عبد المسيح-: يا معشر النصارى ! لقد علمتم أن محمدا لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط؛ فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم؛ فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم؛ فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ ، وسألوه أن يضرب عليهم جزية، وأن يبعث معهم رجلا أمينا، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وقد بينا ذلك في تفسير آل عمران[٢]، وقد بسطنا هذه القصة في السيرة النبوية[٣].

والمقصود: أن الله -تعالى- بين أمر المسيح؛ فقال لرسوله: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾؛ يعني: من أنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله؛ ولهذا قال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾؛ أي: لا يعجزه شيء ولا يكرثه ولا يؤوده، بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

---

(١) دعاء كل فريق بالعذاب واللعنة على المبطل منهما.

(٢) انظر : «تفسير القرآن العظيم»(٢/ ٦٦-٧٢).

(٣) انظر «البداية والنهاية»(٣/ ٦٦٤).

وقولـــه: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (٣٦) ﴾ [مريم:٣٦]: هو من تمام كلام عيسى لهم في المـهد، أخـبرهم أن الله ربـه وربـهم، وإلهه وإلههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾ [مريم:٣٧]؛ أي: فاختلف أهل الزمان ومن بعدهم فيه:

فمن قائل من اليهود: إنه ولد زنية ! واستمروا على كفرهم وعنادهم.

وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله.

وقال آخرون: هو ابن الله !.

وقال المؤمنون: هو عبد الله ورســوله، وابـن أمتـه وكلمتـه ألقاهـا إلى مريـم وروح منه.

وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون، ومـن خالفـهم في شـيء من هذه القيود؛ فهم الكافرون الضالون الجاهلون، وقـد توعدهـم العلـي العظيـم الحكيم العليم بقوله: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾.

روى البخاري[1]: عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ؛ قال: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيســى عبـد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حــق، والنـار حـق؛ أدخلـه الله الجنة على ما كان من العمل ».

---

(١) في «صحيحه» (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

باب بيان أن الله تعالى منزه عن الولد
- تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا -

وقال -تعالى- في آخر هذه السورة: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ شيئا عظيما ومنكرا من القول وزورا. ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٩٠-٩٤].

فبين أنه -تعالى- لا ينبغي له الولد؛ لأنه خالق كل شيء ومالكه، وكل شيء فقير إليه خاضع ذليل لديه وجميع سكان السماوات والأرض عبيده، هو ربهم، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

كما قال -تعالى-: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠٣]؛ فبين أنه خالق كل شيء؛ فكيف يكون له ولد؟! والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين، والله -تعالى- لا نظير له ولا شبيه ولا عديل له؛ فلا صاحبة له؛ فلا يكون له ولد.

كما قال -تعالى-: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ وهو السيد الذي كمل علمه وحكمته ورحمته وجميع صفاته ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾؛ أي: لم يوجد منه ولد﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾؛ أي ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾؛ أي: وليس له عدل ولا مكافئ ولا مساو، فقطع النظير المداني والأعلى والمساوي، فانتفى أن يكون له

ولد؛ إذ لا يكون الولد إلا متولدا بين شيئين متعادلين أو متقاربين- تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-.

وقال -تبارك وتعالى وتقدس-: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ ﴾ [النساء:١٧١-١٧٣]: ينهى -تعالى- أهل الكتاب ومن شابههم عن الغلو والإطراء في الدين، وهو مجاوزة الحد، فالنصارى -لعنهم الله- غلوا وأطروا المسيح حتى جاوزوا الحد. فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبدالله ورسوله وابن أمته العذراء البتول، التي أحصنت فرجها، فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها من أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى -عليه السلام-. والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى، كما يقول: بيت الله، وناقة الله، وعبد الله، وكذا روح الله أضيفت إليه تشريفا لها وتكريما، وسمي عيسى بها؛ لأنه كان بها من غير أب، وهي الكلمة -أيضا- التي عنها خلق وبسببها وجد؛ كما قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾، وقال -تعالى-: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة:١١٦-١١٧]، وقال -تعالى-: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة:٣٠]؛ فأخبر

-تعالى- أن اليهود والنصارى - عليهم لعائن الله-، كل من الفريقين ادعوا على الله شططا ،وزعموا أن له ولدا، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة؛ تشابهت قلوبهم ! وذلك أن الفلاسفة -عليهم لعنة الله- زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثان ونفس وفلك، ثم صدر عن الثاني كذلك... حتى تناهت العقول إلى عشرة، والنفوس إلى تسعة، والأفلاك إلى تسعة!! باعتبارات فاسدة ذكروها، واختيارات باردة أوردوها. ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر. وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله وأنه صاهر سروات[1] الجن، فتولد منها الملائكة!! تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون

كما قال -تعالى-: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف:١٩].

وقال -تعالى-: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الصافات:١٤٩-١٦٠].

وقال -تعالى-: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ

---

(١) جمع سراة، مفرده سري: وهو الكريم الشريف.

مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٩].

وقال -تعالى- في أول سورة الكهف [١-٥] -وهي مكية-: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾.

وقال -تعالى-: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس:٦٨-٧٠].

فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين ادعوا وزعموا بلا علم أن لله ولدا- سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا-.

ولما كانت النصارى -عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة- من أشهر من قال بهذه المقالة؛ ذكروا في القرآن كثيرا للرد عليهم، وبيان تناقضهم وقلة علمهم وكثرة جهلهم.

وقد تنوعت أقوالهم في كفرهم، وذلك أن الباطل كثير التشعب والاختلاف والتناقض وأما الحق؛ فلا يختلف ولا يضطرب؛ قال الله -تعالى-: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢]؛ فدل على أن الحق يتحد ويتفق، والباطل يختلف ويضطرب:

فطائفة من ضلالهم وجهالهم زعموا أن المسيح هو الله -تعالى-.

وطائفة قالوا: هو ابن الله -عز وجل-.

وطائفة قالوا: هو ثالث ثلاثة! جل الله.

قال الله -تعالى- في سورة المائدة: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة:١٧]؛ فأخبر -تعالى- عن كفرهم وجهلهم، وبين أنه الخالق، القادر على كل شيء، وأنه رب كل شيء ومليكه وإلهه.

وقال في أواخرها: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة:٧٢-٧٥].

حكم -تعالى- بكفرهم شرعا وقدرا، فأخبر أن هذا صدر منهم مع أن الرسول إليهم -هو عيسى ابن مريم- قد بين لهم أنه عبد مربوب، مخلوق مصور في الرحم، داع إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتوعدهم على خلاف ذلك بالنار، وعدم الفوز بدار القرار، والخزي في الدار الآخرة والهوان والعار؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢].

ثم قال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾: قال ابن جرير[١] وغيره: المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة: أقنوم الأب، وأقنوم الابن،

---

(١) في «جامع البيان» (٦/ ٢٠٢).

وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب والابن؛ على اختلافهم في ذلك ما بين الملكية واليعقوبية والنسطورية -عليهم لعائن الله-؛ كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة.

ولهذا قال -تعالى-: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾؛ أي: وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد. ثم توعدهم وتهددهم، فقال: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾.

ثم بين حال المسيح وأمه، وأنه عبد رسول وأمه صديقة؛ أي : ليست بفاجرة كما يقول اليهود -لعنهم الله-، وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا. وقوله: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾: كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما؛ أي: ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلها؟ ! -تعالى الله عن قولهم وجهلهم علوا كبيرا-.

وقال السدي وغيره: المراد بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾: زعمهم في عيسى وأمه أنهما الإلهان مع الله؛ يعني: كما بين -تعالى- كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

يخبر -تعالى- أنه يسأل عيسى ابن مريم -عليه السلام- يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه، وافترى وزعم أنه ابن الله، أو أنه الله أو أنه شريكه -تعالى الله عما يقولون- فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه، ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾؛ أي: تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾؛ أي: ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾: وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾؛ أي: ما قلت غير ما أمرتني به حين أرسلتني إليهم وأنزلت علي الكتاب الذي كان يتلى عليهم. ثم فسر ما قاله لهم بقوله: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ ﴾؛ أي: خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم. ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾؛ أي: رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي، فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه، فلما كان ذلك؛ ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب -عز وجل- والتبري من أهل النصرانية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ ﴾؛ أي: وهم يستحقون ذلك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾، وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ ولم يقل: الغفور الرحيم.

وقد ذكرنا في «التفسير» ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلة حتى أصبح: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ وقال ﷺ: « إني سألت ربي -عز وجل- الشفاعة لأمتي، فأعطانيها، وهي نائلة -إن شاء الله تعالى- لمن لا يشرك بالله

شيئا»[1]. وقال -تعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ۝ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ۝ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝ ﴾ [الأنبياء:١٦-٢٠].

وقال -تعالى-: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ۝ ﴾ [الزمر:٤و٥].

وقال -تعالى-: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ۝ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ ﴾ [الزخرف:٨١و٨٢].

وقال -تعالى-: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝ ﴾ [الإسراء:١١١].

وقال -تعالى-: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾ [الإخلاص:١-٤].

---

(١) حسن بشواهده- أخرجه أحمد (٥/ ١٤٩/ ١٥٦و١٧٠و١٧٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٤٧٧)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٧٧)، و«التفسير» (١٨١)، وابن ماجه (١٣٥٠)، والبزار في «مسنده» (٧٣٠-كشف)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٤٧)، وابن نصر المروزي في «قيام الليل» (ص٦٣- مختصر)، والحاكم (١/ ٢٤١)، والبيهقي (٣/ ١٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٩١٥) وغيرهم بسند حسن لغيره.

وله شاهد من حديث أبي هريرة مرفوعا بنحوه: أخرجه مسلم(١٩٩).

وآخر من حديث عائشة مرفوعا بنحوه: أخرجه الترمذي في «جامعه» (٤٤٨)، و«الشمائل» (٢٧٧)، والبغوي (٩١٤) بسند صحيح.

وثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: « يقول الله -تعالى-: شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك؛ يزعم أن لي ولدا، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد »[١].

وفي «الصحيح» -أيضا- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم »[٢].

ولكن ثبت في «الصحيح »- أيضا- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه؛ لم يفلته»، ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود:١٠٢][٣].

وهكذا قوله -تعالى-: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج:٤٨].

وقال -تعالى-: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [لقمان:٢٤].

وقال -تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس:٦٩-٧٠].

وقال -تعالى-: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق:١٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري(٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

ذكر منشأ عيسى ابن مريم - عليهما السلام - ومرباه في صغره وصباه وبيان بدء الوحي إليه من الله - تعالى -

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريبا من بيت المقدس، وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر، وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار، وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف[1] شيء:

وهذا لا يصح، والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم كما ذكرنا، ومهما عارضه؛ فباطل.

قال -تعالى-: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون:٥٠].

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين، وهذه صفة غريبة الشكل، وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض، الذي أعلاه مستو يقر عليه، وارتفاعه متسع، ومع علوه فيه عيون الماء المعين، وهو الجاري السارح على وجه الأرض؛ فقيل: المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح، وهو نخلة بيت المقدس؛ ولهذا: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم:٢٤]، وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف، وعن ابن عباس بإسناد جيد: أنها أنهار دمشق. فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق.

---

(١) السرج.

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

وقد ذكرنا في «التفسير»[1] عند قوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة:١٨٥]: الأحاديث الواردة في ذلك، وفيها أن الإنجيل أنزل على عيسى ابن مريم -عليه السلام- في شهر رمضان.

[نبذة من أخبار عيسى -عليه السلام-]

قال الله -تعالى- وهو أصدق القائلين: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝ ﴾ [المائدة:١١٠و١١١].

يذكره -تعالى- بنعمته عليه وإحسانه إليه؛ في خلقه إياه من غير أب بل من أم بلا ذكر، وجعله له آية للناس ودلالة على كمال قدرته -تعالى-، ثم إرساله بعد هذا كله. ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾: في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة، وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون؛ ولهذا قال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾: وهو جبريل؛ بإلقاء روحه إلى أمه، وقرنه معه في حال رسالته، ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾؛ أي: تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾؛ أي: الخط والفهم. ونص عليه بعض السلف ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾. وقوله: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾؛

---

(١) (٦٤٦/١-٦٤٧).

أي: تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير عن أمر الله له بذلك. ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾؛ أي: بأمري؛ يؤكد -تعالى- بذكر الإذن له في ذلك لرفع التوهم. وقوله: ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾؛ قال بعض السلف: وهو الذي يولد أعمى، ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾: هو الذي لا طب فيه، بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالا ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾؛ أي: من قبورهم أحياء ﴿ بِإِذْنِي ﴾: وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مرارا متعددة بما فيه كفاية. وقوله: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾: وذلك حين أرادوا صلبه، فرفعه الله إليه، وأنقذه من بين أظهرهم؛ صيانة لجنابه الكريم عن الأذى، وسلامة له من الردى. وقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾: قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام؛ أي: أرشدهم الله إليه ودلهم عليه؛ كما قال: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص:٧]. وقيل: المراد وحي بواسطة الرسول، وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق؛ ولهذا استجابوا قائلين: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾: وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم؛ أن جعل له أنصارا وأعوانا ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال -تعالى- لعبده محمد ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

وقال -تعالى-: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:٤٨-٥٤].

كانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان:

فذكروا أن موسى -عليه السلام- كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه، وكانوا سحرة أذكياء، فبعث بآيات بهرت الأبصار وخضعت لها الرقاب، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقا له؛ أسلموا سراعا ولم يتلعثموا.

وهكذا عيسى ابن مريم؛ بعث في زمن الطبائعية الحكماء، فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها، وأنى لحكيم إبراء الأكمه -الذي هو أسوأ حالا من الأعمى- والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن؟! وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟ هذا -مما يعلم كل أحد -معجزة دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله.

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين؛ بعث في زمن الفصحاء البلغاء، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فلفظه معجز، تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ [البقرة:٢٤]، وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق -عز وجل-، والله -تعالى- لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

والمقصود: أن عيسى -عليه السلام- لما أقام عليهم الحجج والبراهين؛ استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة، فكانوا له أنصارا وأعوانا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك

حين هم به بنو إسرائيل، ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه، فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم، وألقى شبهه على أحد أصحابه؛ فأخذوه؛ فقتلوه، وصلبوه، وهم يعتقدونه عيسى، وهم في ذلك غالطون، وللحق مكابرون، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوه، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون؛ قال -تعالى-: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:٥٤].

[بشرى عيسى - عليه السلام - بمحمد ﷺ]

وقال -تعالى-: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الصف:٦-١٤].

فعيسى -عليه السلام - هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد قام فيهم خطيبا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده، ونوه باسمه، وذكر لهم صفته؛ ليعرفوه، ويتابعوه إذا شاهدوه؛ إقامة للحجة عليهم ، وإحسانا من الله إليهم.

كما قال -تعالى-: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

وروى محمد بن إسحاق: عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ: أنهم قالوا: يا رسول الله! أخبرنا عن نفسك. قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»[١].

وقد روي عن العرباض بن سارية[٢] وأبي أمامة[٣] عن النبي ﷺ نحو هذا، وفيه: «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى».

وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة؛ قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٩] الآية. ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى؛ قام فيهم خطيبا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم، وأنها بعده في النبي العربي الأمي، خاتم

---

(١) حسن- أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (١/ ١٧٥) -ومن طريقه الطبري في «جامع البيان» (١/ رقم ٢٠٧٩)، والحاكم (٢/ ٦٠٠)- بسند حسن.

وصححه الحاكم والذهبي، وحسنه المؤلف وشيخنا الإمام الألباني في «الصحيحة» (١٥٤٥).

(٢) حسن لغيره- أخرجه أحمد (٤/ ١٢٧)، وابن سعد (١/ ٧١)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ رقم ٦٢٩ و٦٣٠)، والطبري في «جامع البيان» (١/ رقم ٢٠٧٧ و٢٠٧٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١٤/ رقم ٦٤٠٤) بسند ضعيف لكن يشهد له ما قبله وما بعده.

(٣) حسن- أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢)، وابن سعد (١/ ٧١)، والطبراني في «الكبير» (٨/ رقم ٧٧٢٩) بسند حسن؛ كما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٥)، وشيخنا الألباني في «الصحيحة» (١٩٢٥).

الأنبياء على الإطلاق، أحمد، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليه السلام-.

قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾: يحتمل عود الضمير إلى عيسى -عليه السلام-، ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ.

ثم حرض -تعالى- عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ أي: من يساعدني في الدعوة إلى الله؟ ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾: وكان ذلك في قرية يقال لها: الناصرة، فسموا بذلك النصارى، قال الله -تعالى-: ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾؛ يعني: لما دعا عيسى ابن مريم بني إسرائيل وغيرهم إلى الله -تعالى-؛ منهم من آمن ومنهم من كفر: وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكاملهم فيما ذكره غير واحد من أهل السير والتواريخ والتفسير؛ بعث إليهم رسلا ثلاثة، أحدهم سمعان الصفا، فآمنوا واستجابوا، وليس هؤلاء هم المذكورون في سورة يس؛ لما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية. وكفر آخرون من بني إسرائيل، وهم جمهور اليهود. فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم؛ كما قال -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران:٥٥]؛ فكل من كان إليه أقرب كان غالبا لمن دونه، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه من أنه عبد الله ورسوله؛ كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به، ولما كان النصارى أقرب في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه -عليهم لعائن الله-؛ كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله، والله -تعالى- أعلم.

ذكر خبر المائدة

قال الله -تعالى-: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة:١١٢-١١٥].

قد ذكرنا في «التفسير»[1] الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف، ومضمون ذلك: أن عيسى -عليه السلام- أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوما، فلما أتموها؛ سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم؛ ليأكلوا منها، وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيدا يفطرون عليها يوم فطرهم، وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى -عليه السلام- في ذلك، وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها، فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه -عز وجل- فلما لم يقلعوا عن ذلك؛ قام إلى مصلاه ولبس مسحا من شعر، وصف بين قدميه، وأطرق رأسه، وأسبل عينيه بالبكاء، وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا.

فأنزل الله -تعالى- المائدة من السماء، والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلا قليلا، وكلما دنت؛ سأل عيسى ربه -عز وجل- أن يجعلها رحمة لا نقمة، وأن يجعلها بركة وسلامة. فلم تزل تدنوا حتى استقرت بين

---

(١) (٣/ ٣٠٧- وما بعده).

يدي عيسى -عليه السلام- وهي مغطاة بمنديل ، فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: بسم الله خير الرازقين. فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة، ويقال: وخل، ويقال: ورمان وثمار، ولها رائحة عظيمة جدا، قال الله لها: كوني ! فكانت.

ثم أمرهم بالأكل منها. فقالوا: لا نأكل حتى تأكل. فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها ! فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريبا من ألف وثلاثمائة، فأكلوا منها فبرىء كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل: إنه كانت تنزل كل يوم مرة، فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم، حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يوما بعد يوم؛ كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوما بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء؛ فشق ذلك على كثير من الناس، وتكلم منافقوهم في ذلك؛ فرفعت بالكلية، ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير.

فالجمهور أنها نزلت؛ كما دلت عليها هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن، ولا سيما قوله: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾؛ كما قرره ابن جرير[١]، والله أعلم.

---

(١) في «جامع البيان» (٧/ ٨٧-٨٨).

ذكر رفع عيسى -عليه السلام- إلى السماء في حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله -تعالى-: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ ﴾ [آل عمران:٥٤-٥٥].

وقال -تعالى-: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝ ﴾ [النساء:١٥٥-١٥٩].

فأخبر -تعالى- أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان؛ فأمر بقتله، وصلبه، فحصروه في دار ببيت المقدس، فلما حان وقت دخولهم؛ ألقى شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده؛ ورفع عيسى إلى السماء، ودخل الشرط؛ فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه؛ فأخذوه ظانين أنه عيسى؛ فصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلم لليهود عامة النصارى- الذي لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى- أنه صلب، وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبينا كثيرا فاحشا بعيدا.

وأخبر -تعالى- بقوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء:١٥٩]؛ أي: بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة؛ فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام؛ كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء؛ كما أوردنا ذلك مستقصى في كتاب «الفتن والملاحم»[1] عند أخبار المسيح الدجال، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي -عليه السلام- من ذي الجلال؛ لقتل المسيح الدجال، الكذاب الداعي إلى الضلال.

وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء:

روى ابن أبي حاتم [2]: عن ابن عباس؛ قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء؛ خرج على أصحابه، وفي البيت اثنا عشر رجلا منهم من الحواريين. يعني: فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي. ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي؛ فيقتل مكاني، فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم؛ فقام الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم؛ فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه، فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق؛ فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء! وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه! وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون.

---

(١) من «البداية والنهاية»(١٠/ ١٣٠- وما بعدها).

(٢) في «تفسيره»(٤/ ١١٠/ ٦٢٣٣)، والنسائي في «السنن الكبرى»(٢/ ٤٢٥-٤٢٧/ ٦١١-التفسير)، والطبري في «جامع البيان»(٢٨/ ٦٠) بسند حسن.

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ.

قال ابن عباس: وذلك قوله -تعالى-: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف:١٤].

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم[١].

وقال الحسن البصري: وكان عمر عيسى -عليه السلام- يوم رفع أربعاً وثلاثين سنة.

وفي الحديث: «إن أهل الجنة يدخلونها جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين»[٢].

وفي الحديث الآخر: «على ميلاد عيسى، وحسن يوسف»[٣].

---

(١) كذا قال المصنف-رحمه الله-! بل هو على شرط البخاري وحده؛ فإن مسلماً لم يخرج للمنهال بن عمرو.

(٢) حسن بشواهده- أخرجه أحمد(٢/ ٢٩٥و٣٤٣و٤١٥)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤١٨)، و«الصغير»(٨٠٩) بسند ضعيف؛ فيه علي بن زيد بن جدعان، وهو سيئ الحفظ. وله شاهد من حديث المقدام بن معدي كرب: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٦٦٣و٦٦٤)، و«مسند الشاميين»(١٨٣٩)، والبيهقي في «البعث» (٤٢١و٤٢٢) وسنده حسن في الشواهد.

وآخر حديث معاذ بن جبل: أخرجه الترمذي(٢٥٤٥)، وأحمد(٥/ ٢٤٣)، والبيهقي(٤٢٣) بسند حسن في الشواهد.

وآخر من حديث أبي هريرة بنحوه: أخرجه الترمذي(٢٥٣٩) بسند حسن في الشواهد.

وبالجملة؛ فالحديث حسن بمجموع ذلك.

(٣) حسن لغيره- أخرجه ابن أبي الدنيا ؛ كما في « البداية والنهاية »(١٠/ ٥٧٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء»(٣/ ٥٦)، والبيهقي في « البعث » (٤١٨) بسند ضعيف، ويشهد له حديث المقدام المتقدم.

ذكر صفة عيسى -عليه السلام-
وشمائله وفضائله

قال الله -تعالى-: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥].

قيل: سمي المسيح؛ لمسحه الأرض، وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان؛ لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه -عليهما السلام-.

وقيل: لأنه كان ممسوح القدمين.

وقال -تعالى-: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة:٤٦]، وقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة:٨٧].

والآيات في ذلك كثيرة جداً.

وقد تقدم[١] ما ثبت في «الصحيحين»: «ما من مولود؛ إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً؛ إلا مريم وابنها، ذهب يطعن، فطعن في الحجاب».

وتقدم[٢] حديث عبادة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبد الله ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق؛ والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

---

(١) مضى (ص ٤٥١).

(٢) مضى (ص ٤٧١).

وروى البخاري و مسلم من حديث أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها؛ كان له أجران. وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي؛ فله أجران. والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه؛ فله أجران»[1].

وتقدم[2] ما رواه البخاري: عن أبي هريرة؛ قال: قال النبي ﷺ: «ليلة أسري بي لقيت موسى - قال: فنعته - فإذا رجل (حسبته قال): مضطرب، رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة». قال: «ولقيت عيسى فنعته النبي ﷺ فقال: ربعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس-يعني: الحمام-، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به»

ثم قال[3]: عن ابن عمر؛ قال: قال النبي ﷺ: «رأيت عيسى وموسى وإبراهيم: فأما عيسى؛ فأحمر، جعد عريض الصدر. وأما موسى؛ فآدم، جسيم، سبط[4]، كأنه من رجال الزط».

عن عبد الله بن عمر: ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال، فقال: «إن الله ليس بأعور. ألا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية. وأراني الليلة عند الكعبة في المنام؛ فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من أدم الرجال، تضرب لمته بين منكبيه، رجل الشعر، يقطر رأسه ماء، واضعاً يديه على منكبي رجلين ، وهو يطوف بالبيت، فقلت: من هذا ؟ فقالوا: المسيح ابن مريم. ثم رأيت رجلاً وراءه جعداً قططاً أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن

---

(١) أخرجه البخاري(٣٤٤٦)، ومسلم(١٥٤).

(٢) مضى (ص ٣٣٠).

(٣) أي: البخاري، والحديث في«صحيحه»(٣٤٣٨) بهذا السند، لكنه من مسند ابن عباس لا من مسند ابن عمر، وهذا هو الذي صوبه أهل العلم: أن الحديث من رواية مجاهد عن ابن عباس . ومن قال ابن عمر؛ فقد وهم، والخطأ ممن هو دون البخاري.

(٤) أي: مسترسل الشعر.

قطن، واضعا يده على منكبي رجل يطوف بالبيت، فقلت: من هذا ؟ فقالوا: المسيح الدجال»[١].

قال الزهري: وابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية.

فبين -صلوات الله وسلامه عليه- صفة المسيحين: مسيح الهدى، ومسيح الضلالة؛ ليعرف هذا إذا نزل؛ فيؤمن به المؤمنون، ويعرف الآخر؛ فيحذره الموحدون.

وروى البخاري: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ؛ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق، فقال له: أسرقت ؟ قال: كلا؛ والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني »[٢].

وهذا يدل على سجية طاهرة؛ حيث قدم حلف ذلك الرجل- فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً- على ما شاهده منه عيانا، فقبل عذره ورجع على نفسه، فقال: آمنت بالله؛ أي: صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك.

وروى البخاري[٣]: عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤]؛ فأول الخلق يكسى إبراهيم، ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول: أصحابي! فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة:١١٧-١١٨]».

---

(١) أخرجه البخاري(٣٤٣٩و٣٤٤٠) ، ومسلم(١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري(٣٤٤٤)، ومسلم(٢٣٦٨).

(٣) في «صحيحه»(٣٤٤٧).

وروى[1] - أيضا -: عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم؛ فإنما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله ورسوله».

وروى البخاري[2]:عن أبي هريرة ،عن النبي ﷺ؛ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل، يقال له: جريج كان يصلي؛ إذ جاءته أمه، فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي ؟ فقالت: اللهم ! لا تمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة ، وكلمته، فأبى، فأتت راعيا ، فأمكنته من نفسها ، فولدت غلاما فقيل لها: ممن ؟ قالت: من جريج! فأتوه، وكسروا صومعته، فأنزلوه، وسبوه. فتوضأ، وصلى ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام ؟ قال: فلان الراعي. فقالوا: أنبني صومعتك من ذهب ؟ قال: لا؛ إلا من طين. وكانت امرأة ترضع ابنا لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم! اجعل ابني مثله، فترك ثديها وأقبل على الراكب، فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديها يمصه». قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه. ثم مر بأمة؛ فقالت: اللهم! لا تجعل ابني مثل هذه! فترك ثديها، فقال: اللهم! اجعلني مثلها. فقالت: لم ذلك؟! فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذا الأمة يقولون: سرقت وزنت، ولم تفعل ».

وروى البخاري[3]: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد علات[4]، ليس بيني وبينه نبي ».

وروىأحمد[1]:عن أبي هريرة قال: قال رسول الله:«أنا أولى الناس بعيسى ذ-عليه السلام- والأنبياء إخوة أولاد علات، وليس بيني وبين عيسى نبي».

---

(١) في «صحيحه» (٣٤٤٥).

(٢) (٣٤٣٦)، وكذا أخرجه مسلم(٢٥٥٠).

(٣) (٣٤٤٣).

(٤) الضرائر. والمقصود بـ(أولاد علات): أي: أنهم أولاد لأب واحد من أمهات مختلفات، والمقصود: أن أصل دين الأنبياء واحد، وإن كانت شرائعهم مختلفة.

وروى أحمد: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ؛ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، ودينهم واحد، وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل؛ فإذا رأيتموه؛ فاعرفوه؛ فإنه رجل مربوع، إلى الحمرة والبياض، سبط، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، بين ممصرتين[٢]؛ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويعطل الملل حتى تهلك في زمانه كلها غير الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعا والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً ، فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يتوفى؛ فيصلي عليه المسلمون، ويدفنونه»[٣].

ثم رواه أحمد[٤] عن أبي هريرة؛ فذكر نحوه. وقال: «فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون».

وسيأتي بيان نزوله -عليه السلام- في آخر الزمان في كتاب «الملاحم»[٥]، كما بسطنا ذلك -أيضا- في «التفسير»[٦] عند قوله -تعالى- في سورة النساء: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:١٥٩]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ...﴾ [الزخرف:٦١] الآية، وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق، وقد أقيمت صلاة الصبح؛ فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله ! فَصَلِّ! فيقول: لا؛ بعضكم على بعض أمراء

---

(١) في «المسند»(٢/ ٤٦٣)، وسنده صحيح على شرطهما.

(٢) أي: ثوبان ملونان بالصفرة.

(٣) صحيح- أخرجه أحمد(٢/ ٤٣٧)، وأبو داود (٤٣٢٤)، وابن حبان في«صحيحه» (١٥/ رقم٦٨٢٢)، والحاكم(٢/ ٥٩٥) . وغيرهم بسند صحيح، وقد صححه الحاكم والذهبي والحافظ ابن حجر وشيخنا الألباني.

(٤) (٢/ ٤٠٦).

(٥) من «البداية والنهاية»(١٠/ ١٣٠).

(٦) (٢/ ٣٩٩-٤١٩).

تكرمة الله هذه الأمة، وفي رواية: فيقول له عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك. فيصلي خلفه، ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال، فيلحقه عند باب لد ، فيقتله بيده الكريمة.

وذكرنا أنه قوي الرجاء حين بنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق، التي هي من حجارة بيض، وقد بنيت -أيضاً- من أموال النصارى حين حرقوا التي هدمت وما حولها، فينزل عليها عيسى ابن مريم -عليه السلام-؛ فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. وأنه يخرج من فج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لثنتيهما، ويقيم أربعين سنة، ثم يموت؛ فيدفن.

وروى البخاري[1] عن سلمان؛ قال: الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقيل: خمسمائة وأربعون سنة. وعن الضحاك: أربعمائة وبعض وثلاثون سنة. والمشهور ستمائة سنة، ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة بالقمرية؛ لتكون ستمائة بالشمسية، والله أعلم.

وذكر غير واحد: أن الإنجيل نقله عنه أربعة: لوقا، ومتى، ومرقس، ويوحنا.

وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة إلى كل نسخة ونسخة وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة إلى أخرى!!

وهؤلاء الأربعة: منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه، وهما: متى ويوحنا، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه، وهما: مرقس ولوقا،فالله أعلم.

وقد أنشد الشيخ شهاب الدين القرافي في كتابه: «الرد على النصارى» لبعضهم يرد عليهم في قولهم بصلب المسيح وتسليمهم ذلك لليهود؛ مع دعواهم أنه ابن الله -تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً-:

عجباً للمسيح بين النصارى   وإلى أي والد نسبوه

أسلموه إلى اليهود وقالوا   إنهم بعد قتله صلبوه

---

(١) في «صحيحه» (٣٩٤٨).

فـإذا كـان مـا يقولـون حقـاً وصحيحـاً فـأين كـان أبـوه
حـين خلـى ابنـه رهـين الأعـادي أتراهـم أرضـوه أم أغضبـوه
فلئـن كـان راضيـاً فـاحمدوهم واشـكروهم لأنـهم وافقـوه
ولئـن كـان سـاخطاً فـاتركوه واعبدوهـم لأنـهم غلبـوه

فصل

[في اختلاف أصحاب المسيح]

اختلف أصحاب المسيح -عليه السلام- بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال؛ كما قاله ابن عباس وغيره من أئمة السلف؛ كما أوردناه عند قوله: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف:١٤]!.

قال ابن عباس وغيره: قال قائلون منهم: كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء.

وقال آخرون: هو الله.

وقال آخرون: هو ابن الله.

فالأول هو الحق، والقولان الآخران كفر عظيم؛ كما قال: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [مريم:٣٧].

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل.

ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة العظمى والبلية الكبرى: اختلف البطاركة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان في المسيح على أقوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين باني القسطنطينية، وهم المجمع الأول، فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات، فسموا الملكية، ودحض من عداهم وأبعدهم، وتفردت الفرقة التابعة لعبد الله بن آريوس الذي ثبت على أن عيسى عبد من عباد

الله ورسول من رسله، فسكنوا البراري والبوادي، وبنوا الصوامع والديارات والقلايات، وقنعوا بالعيش الزهيد، ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل، وبنت الملكية الكنائس الهائلة؛ عمدوا إلى ما كان من بناء اليونان؛ فحولوا محاريبها إلى الشرق، وقد كانت إلى الشمال؛ إلى الجدي[١].

(١) من النجوم.

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة القمامة؛ يعني: على قبر المصلوب، وهم يسلمون لليهود أنه المسيح، وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء، ووضعوا القوانين والأحكام، ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة، وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة، ومن ذلك الخنزير، وصلوا إلى المشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى، ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حُول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل، وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة، وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس -أهل المجمع الثاني-، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي- أصحاب المجمع الثالث-، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها.

وها أنا أحكيها -وحاكي الكفر ليس بكافر -لأبثَّ على ما فيها من ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المفضي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ؛ فيقولون:

«نؤمن بإله واحد؛ ضابط الكل، خالق السماوات والأرض؛ كل ما يرى وكل ما لا يرى. وبرب واحد؛ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء، من أجلنا -نحن البشر- ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس، وصلب على عهد فيلاطس النبطي، وتألم، وقبر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس على يمين الأب، وأيضاً؛ فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه. وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب. والابن مسجود له. وبمجد الناطق في الأنبياء. كنيسة واحدة جامعة مقدسة يهولية. واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه. آمين »[1]

---

(١) هذه وثيقة مصالحة على الكفر ومهادنة على الشرك ومؤالفة بين تناقضات النصارى - أخزاهم الله-، ولذلك فالمسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام- بريء منها ومنهم، ونحن كذلك.

قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝ ﴾ [الفاتحة:٦و٧].

فهرس الموضوعات والفوائد

فهرس الموضوعات والفوائد

تم بحمد الله وفضله